

رواية

عالية ممدوح

نادي الآغا

المتوسط





عالية ممدوح: كاتبة وروائية عراقية، مواليد بغداد ١٩٤٤. خريجة علم النفس من الجامعة المستنصرية عام ١٩٧١، شغلت وظيفة رئيسة تحرير جريدة (الراصد) البغدادية الأسبوعية لأزيد من عشر سنوات. غادرت بغداد منذ ١٩٨٢، وتنقلت بين عواصم ومدن شتى. أصدرت عام ١٩٧٣ مجموعة قصصية بعنوان: «افتتاحية للضحك»، ومنها توالت أعمالها الأدبية؛ ثمان روايات تُرجمت بعضها إلى الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، أشهرها رواية «فتاليين» التي تُرجمت إلى سبع لغات، ودرست لمدة سنتين في جامعة السوربون.

جديد بدف®
[jadidpdf.com](http://jadicpdf.com)

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بذكاء

<https://jadidpdf.com>



حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطوي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجّهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاتtribasات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Altanki by "Alia MAMDouh"
Copyright © 2019 by Almutawassit Books.

المؤلف: عالية ممدوح / عنوان الكتاب: التانكي

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصرى

ISBN: 978-88-32201-03-1



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

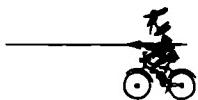
العراق / بغداد / شارع المتتبلي / مجلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

<https://jadidpdf.com>

عالیة ممدوح

نکی
ایش



المتوسط



<https://jadidpdf.com>

نکی
پی



<https://jadidpdf.com>

<https://jadidpdf.com>

"إن الكائنات حمقى بالضرورة، لدرجة أنه سيكون المرء مجنوناً، لو لم يكن مجنوناً"

باسكال

<https://jadidpdf.com>

إلى روح صديقتي الطيبة المصرية وفاء قاسم

<https://jadidpdf.com>

الفصل الأول

كلakinet أول مرّة

<https://jadidpdf.com>

الأستاذ صميم مجهول النّسب

كما في صور الألبومات العتيقة، فـكـرـنـا جـمـيـعـاً: نـحنـ المـوـقـعـيـنـ أـدـنـاهـ، عـائـلـةـ أـيـوبـ آـلـ الـذـينـ سـيـظـهـرـونـ بـالـتـدـرـيـجـ مـعـنـاـ، بـجـوارـنـاـ، بـعـدـنـاـ بـقـلـيلـ، أـمـانـاـ، أـوـ أـبـعـدـ قـلـيلاـ. مـنـ الـمـفـيدـ أـنـ نـدـعـ الـوـالـدـةـ مـكـيـةـ جـالـسـةـ عـلـىـ كـرـسـيـ، فـهـيـ غـيرـ قـادـرـةـ عـلـىـ الـوـقـوفـ طـوـبـلـاـ حـتـىـ لـوـ أـنـ الـأـمـرـ لـأـجلـ التـقـاطـ صـورـةـ. بـجـوارـهـاـ الـخـالـةـ فـتـحـيـةـ، بـعـدـهـاـ الـخـالـةـ الـأـصـغـرـ سـنـيـةـ. الـوـالـدـةـ بـيـبـيـ فـاطـمـ مـكـانـهـاـ غـيرـ مـوـجـودـ بـيـنـنـاـ، بـقـيـتـ فـيـ الطـابـقـ الـأـعـلـىـ. حـسـنـاـ، مـنـ الـمـفـضـلـ وـلـأـجلـ الـهـبـيـةـ أـنـ نـقـفـ وـرـاءـهـمـ، نـحـنـ الرـجـالـ. أـنـاـ الـوـالـدـ أـيـوبـ، وـبـجـوارـيـ أـخـيـ مـخـتـارـ. هـنـاـ يـسـتـحـسـنـ أـنـ تـرـكـ مـكـانـاـ لـهـلـاـلـ، وـلـدـنـاـ الـبـكـرـ، وـلـهـاـ، اـبـنـتـنـاـ عـفـافـ التـيـ أـوـكـلـنـاـ شـؤـونـ قـضـيـتـهـاـ إـلـىـ الـأـسـتـاذـ صـمـيمـ. هـيـاـ، يـاـ أـخـيـ، خـذـ عـنـيـ الـمـهـمـ، وـدـعـنـيـ أـعـودـ إـلـىـ مـكـانـيـ فـيـ الـأـلـبـومـ.

حسـنـاـ، ظـهـرـ طـيـفـ الـآـسـةـ عـفـافـ وـأـنـاـ أـكـتـبـ اـسـمـكـ فـقـطـ:

عزيزي الدكتور كارل فالينو،

أـنـاـ صـمـيمـ، كـاتـبـ سـرـيـ أـشـتـغلـ بـاسـمـ حـرـكـيـ. هـوـ الرـجـلـ ذـاـتـهـ الـذـيـ قـدـمـ مـعـهـاـ فـيـ الـعـامـ 1986ـ إـلـىـ عـيـادـتـكـ الـخـاصـةـ الـكـائـنـةـ فـيـ شـارـعـ جـاسـمـانـ فـيـ الـحـيـ السـادـسـ عـشـرـ. أـمـلـ أـنـ لـاـ تـحـبـطـكـ الذـاـكـرـةـ، وـهـيـ، الـآـسـةـ عـفـافـ، كـانـتـ تـقـدـمـ بـيـنـيـتـهـاـ الرـشـيقـةـ وـالـقـصـيرـةـ، وـبـيـدـهـاـ لـوـحةـ مـرـبـعـةـ مـنـ لـوـحـاتـهـاـ،

لكي تقدمها إليك بدون كلام، وطرب زوجتي، النّحّاته، صديقتها وزميلتها في الأكاديمية.

ومعاذ الألوسي، صاحبِي ومرشدِها الهندسي، المعماري، الذي شغفت بتصميمه المبدئي لـ المكعب - فسجّلت في كلية الهندسة، وداوامت لعامَين، ثمّ غيرت مسارها بالاتِّصال إلى أكاديمية الفنون الجميلة الكائنة في الوزيرية. هذا معاذ، من الجائز أفسدُها حين قال لها في أحد الأيام:

سنضمّ - المكعب - معاً، وندعو مَنْ نغيرُ بهم إلَيهِ.

رِيّماً، من مسار المكعب ذاتِ الفنون عامَّة، وسياق مدِينتنا كلها، كانت الآنسة، وأنا أصرّ على هذا اللقب قبل اسمها، في الوقت الحاضر واضعاً الأشواق، أو أي شيء قريب منها، في أول الخطاب.

ثمّ المحامي مختار، عمّها الذي قد يرشدنا إلى بعض الحيثيات القانونية والاستشارات الإدارية التي قد نجد بعض العزاء في أرشيفها.

وهلال شقيقها الذي ما زلنا نخاطبه ونستعجله بالرسائل، لكنه لا يرد علينا حتى الآن، مَنْ يدرِي؟ من الجائز وفي الساعات الأخيرة وقبل إقفال السيارة عن آخر وجه من وجوهنا يظهر وينضمّ إلى هذه المخطوطة، أو سُمِّها ما تشاء. معاذ يقول، إن يونس تغيّرت ابتسامته في الفترة الأخيرة، وصارت محيرة، وسألَه إن كان يفكّر بالانضمام إلينا، فيمقدوره أن يخبر عما يعتمل في داخله. أضاف معاذ، ستكتسب هذه التدوينات أهميَّة خاصة، وستأخذ مكانها حتَّى لو بعد حين. ولو كنَا نعرف عنوان السيد ياسين، لأرسلنا في طلبه، وجعلناه ينضمّ إلينا .. كما سنزوّدك ببعض الهوامش والإضافات، وأشياء لا نعرف عنواناً لها. كما قد تستهوي خطاباتنا الخالة فتحية، ويظهر صوتها للعلن .. ستدبر الأمْر، أمننا. وأنتَ، سيدي الحكيم،

ستتحول بدورك من محتكر لبعض، أو الحقيقة كلها، إلى قولها لنا، لأفراد عائلتها التي تتضرر منها البحث عنها قبل فوات الأوان. حضرتكَ منْ سُيُّطلب منكَ بالمصادقة على جميع ما تعلمته وتركته، ما سمعتهُ، ما تناهى إليك بالصادفة أو تعمداً، فنقر بالفاعل: أتم أم نحن، وكل واحد منا يحيل قصصه في إثرها، متورعاً من زعزعة يقينه بالبراءة المخادعة. بالطبع، نحن نعرف بعض الحقب، وماذا أنجزت وحررت فينا، وستفتح علينا وعليكم، ومن الجبهات والأمكنة جميعها، الانتقادات والشروع بخيانة الأصول في حالة، حالات الترجمة المؤقتة أو النهائية للواقع السريّة والعلنية جميعها .. ستلاحظ ذلك، سيدي. آثارنا جميماً، ونحن نباغت أنفسنا قبلكَ، فقد كنا نفضل بقاء الأسرار خفية في ما بيننا، أمّا اليوم، فسنجد مشقة وبعض الخطر، كلّ من جهته، ونحن نضعها بين يديكَ وأيدينا. آثارنا هي، كلنا، وما تبقى منها بين أيدينا، وعلى ثيابنا، وقبل أي شيء آخر، فكّرنا، ربّما، هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستعيد الاتصال بها، أو نستعيدها شخصياً، إذا تم إلقاء القبض علينا من بعضاً لأنفسنا، لسجلنا العدلي واللغوي والفكري والديني والفنّي والجنسى والسياسي. فكّرنا لو استعدنا أنفسنا، نحن المشرفين على الغرق؛ فقد يراودها كما يراودنا الحلم يوماً بالظهور أمامنا، دون توقع أو انتظار. ياه، كم فكّرنا بحفظ بعض الأسرار، وإفشاء البعض الآخر، كلّ واحد منا وما يملئه الظرف من اعتبارات.

معاذ، أوكِل لي خطّة تدوين هذه المخطوططة مردداً بصوت دود:

نعم، خطّك واضح قوي، وحروفك تامة التكوين. وهذا أمر يجعل القراءة يسيرة من أجل الترجمة. أنا سأرّوّدك بقصاصات ورق، ربّما مطبوعة أو بخطّي الركيك.

وطرب!

ما زالت متربّدة. هي متحفّظة على إفشاء الأسرار كلها قائلة:

بعضنا يختلفها، وُيُثقل نفسه بها، لكي يجد صاحب أُبّهَة، والبعض ينقلها إلى عالم الفنون والآداب، فتأخذ مسارات غير متوقعة.

العمّ مختار هو الذي دعم جهودنا بطريقته غير المبالغة التي تحبّها الآنسة، فأدخلته معنا. هو الذي لا يجيد المحادثة كما يحبّ، ومخمور كما تحبّ أن تراه، فمن الجائز إذا استغل في أدوات عمل جديدة، فلن يصبح هناك أيّ عائق أمام نفسه، فسيتخلّص لسانه من التأتأة، وتغدو روايته الموازية عنها تجاوزاً لروايتنا. ربّما عائلة أيوب آل لا تُفضل هذه الأنواع كلها من المسارات السّردية، فهذا قد يحاصر خطوات البحث عنها، وربّما العكس، لا نعلم دكتور. العائلة تريد أمراً عاجلاً واحداً، مردّدة من فوق رؤوسنا جميعاً: هيّا، ابدؤوا رواية القصة حالاً. ابحثوا عن ابنتنا، فوقت اختفائها لا يقاس بدوره الصبا والشباب، ولا بدوره الصحة وتوهّم المرض .. هيّا، قوموا بالغناء مثلها أو الهمس مثلنا، وليردّد الصدى ويصل بلاد الفرنج المشؤومة التي ضلّلت ابنتنا. هيّا، انتقلوا إلى المكان نفسه .. ها، هل بدأتم تشاهدونها؟ هي ابنتنا نفسها، أو مجرّد شخصية داخل صفحات كتاب تنوون تأليفه، ولا يدلّ عليها، لا تطروحوا أسئلة لا تعثرون على أجوبتها فقط، فليس لديكم إلاّ كلمات وحفلة أصابع يابسة على لوحات ضاعت بين أصدقائهما. لكننا كلنا أدلة، أليس كذلك؟ عال، نحن لا يرقى إلينا الشّكّ، فلا تحاوشوا أخذنا في نظر الاعتبار. توّقفوا عندنا، وتحدّثوا معنا، توّقفوا عندكم، أو عند غيركم، نحن لا نعرف خططكم. هل ستفتحون محضراً، كما هي محاضر البوليس؟ أم ستكتفون بالإعلان؟ هل هي فقيدة؟ لماذا تذهبون إلى أراضي الغير، ها؟ مجرّد صداع في الرأس، رأسها، يقوم بدور القاتل .. هذه ليست مشكلة قانونية كما يردّد مختار، عّمّها. ونحن، أسرتها،

مختلفون على العنوان: هل هي جريمة؟ أم حالة رعب بشكل عام، تنتقل ما بين العواصم والقارّات؟ نحن لم نر قطرة دم على ثياب ابنتنا، وهي تغدو خارج مجال نظرنا، لم نر ذلك. آه، صارت بعيدة عناً جداً. نعم، نعم. والخطوط والطُرُقات إليها مقطوعة منذ زمن بعيد، ليس بسبب الحروب فقط. ونحن نشتاق إليها، ولا نعرف ماذا نفعل بالشوق؟ وكيف تقوم بإدارته فيما بيننا؟ وأين نضعه؟ وكيف نوزّعه؟ وهل أخذ أحدها حصة منه أكثر من الآخر؟ وهل بمقدورنا أن نؤخره أو نستعجله، لكي ننتهي منه مَرَّةً واحدة؟ لكنه كان يمتّص نصف أعمارنا، فلا نعلم إلى أين ذهبت الأعوام؟ وكيف انقضت؟ من الجائز أن يكون الطبيب الأجنبي بصحة جيدة، وقلبه توقف عن الشوق، نحن لا نعرف أسباب ذلك، ربما، هو يكسب عيشه لهذا السبب. وأنتم مثله، قلُّم: الشوق لا طائل منه، واسترحو. صحيح، هو من المزعِجات، وطبيّكم لا يكلّف نفسه عناء البحث عن تشخيص المرض الصحيح: الشوق، نعم، لم يسجّل في معجم الأمراض، لكنه مرض مميت، وهو فرصتنا الوحيدة الباقيّة التي تدفقاً بها دماً علينا. هيا، أخبروني، ماذا تفعلون بهذه الأقلام والأوراق والأقداح والأشربة كلها، وابتمنا تأثّرت، يا سيّد صميم؟ ماذا سنفعل بهذه القوافل كلها من المرارة والطريق إليها ليست آمنة، وبعضاها مقطوعة، والجميع يعرف الأسباب. ونحن لن نستطيع التمسّك بها، وابتمنا لا نعرف كم بلغ سنّها اليوم؟ ونحن، كل يوم، يزداد شوقنا. ويصير أكثر وطأة من اليوم الأسبق، والذي يليه. لا نعرف كيف نُشاغل هذه الأمور؟ وبمَن؟ وكيف يحصل هذا التلازم ما بين الاختفاء والأشواق وقطع الطُرُقات والحروب؟ ظننتُ أنكم تعرفون السبب، وسيكون بمقدوركم إخبارنا، ها .. أنتم تبحثون هنا، الطُرُق إليها مقطوعة، وهناك، لا يُرجى الشفاء، وإذن، منْ سيقوم بالبحث عنها؟ لا يجوز اللالعب بنا وعلينا، أو التملّق والنفاق لهم، ولو تلقّلتم وحملتم المراجع والمجلّدات جميعها،

وابيض سواد عيونكم، فلن نعثر لها على أثر وأتتم تشغلون بهذه الطريقة الباردة، فهذا لن يعيدها إلينا، وربما إليكم. ألم تدرکوا أنها تركتكم جميعاً قبل أن تقطع الطرقات؟! تركت طرب ويونس وياسين، وأنت، سيد صميم، وذلك المهندس الذي كان يعتبرها أمينة سرّه، فعافته وأخذت أسراره معها.

ونحن الحالات: نعم، أنا الحالة فتحية التي استفحلاً مرضي وأنا أصوغ الجمل البسيطة التي كانت تحبها، علّها تعود، فصرتُ أحاديثها يومياً، وأنادي عليها كما تبدأ القصص عادة وحسب ما نشاء. نقدر أن نُوقف البنت هنا، ونُقرّب الكاميرا من كل وجه منوجوه العائلة، ذكّرني، يا سيد صميم، فيما إذا نسيتُ واحداً منها. سيبتسم طبّيكم قليلاً، فهي كانت الأصغر سنّاً بين العائلة يوم انتقلنا إلى شارع التانكي .. نعم، أنا التي قسمت اسمها إلى قسمين، فما إن أرفع رأسي وأراها أمامي، أعود وأناديهما:

عُقو، نظفي المنفحة زين، يمكن تمرّ علينا واحدة من الخانمات والخواتين. هنا الجيران مو مثل أهل السفينة. عملتُ استطلاعاتي على أصحاب الشارع وأعيانه، وسجلتُ كل شيء في مفكرة، يا نور عيني. وأول ما استقررت الأحوال في السكن الجديد، أمسكتُها من يدها، وقلتُ لها:

هيا، امشي نكتشف الطرق والفيلات والقصور العجيبة هنا. امشي، وحزني في رأسك ألوان السماء وطين الأرض ورائحة الراينج، وهو ينفلع على الشجرة.. شمّي يا عقو زين، وبعدين اجلسني ولوّني وارسمي.

صحيح، يا سيد صميم، كانت عقوبة تستجيب لندائى، فأكرر، ويرتفع صوتى، وأمط لسانى شوية، لكي أمازحها هكذا:

..... ٩٩٩٩٩٦

لاتجىب، فهى تدرى ماذا أريد. أكلم نفسي وهى واقفة ورائي:

يلاً عيني، ارسمى صورهم كلهم. آنى حضرتهم لكِ بأشكالهم وثيابهم، بالفينية والسدارة الفيصلية {نسبة إلى الملك فيصل الأول} والعمامة فوق رؤوس بعضهم الآخر. يلاً، أريد أشوفهم بكامل قيافتهم. خلى قنادرهم تلمع مثل صلواتهم، وبدلاتهم جديدة طالعة من يد الخياط حالاً، وباقات قمحانهم ناصعة البياض. زين بنتى. أفكّر لو تسوين معرض للوزراء العراقيين .. ها عيني. طلعت تصاوير من كتاب تشکيل الوزارات العراقية، وكبُرُّها بمكتبة الصباح في أول شارع عشرين. تعالي شوفي الشياكة والذوق الحلو، الصديري والفيونكا لعبد المحسن السعدون رئيس الوزراء. تعرفيين عقو من نطاقة الجميع كنتُ أشمُّ بعض العطور تطلع من الثياب والشوارب ... ههه. ترى في تلك السنين كانت عندهم عادات لطيفة في المأكل والملابس وحركات الأيدي والوقوف أمام المصور وأخذ الصور. كانوا رجالاً من صدق.

تسكتُ وأنا أردد اسم التصغير. كانت تتضايق منه وتسكت. هل كان الأمر مزعجاً لها ودون علمي أنا بالذات؟! فهل التصغير أشعرها بشيء من الضآللة؟ هذا هو سوء الفهم الذي يفسد العلاقات، ربما على مر الأجيال، فأنا كنتُ أعتقد أنه نوع من التحجب أو الاستحسان، أليس كذلك، يا سيد صميم؟ ففي أحد الأيام، أوقفتها أمامي، وشرحْتُ لها الأمر على الصورة التالية:

لا تصدقّهم. أملك اختارت لكِ اسم عفيفة على اسم والدتنا، لكن والدكِ، صاحب الذوق اللطيف حسم الأمر قائلاً:

لا، عفاف أحلى.

وحين أصفن وأسكت أو أدخن، عفو تطلق صوتها بالغناء، فكانت

تشاهدني أتمخّط وأمسح الدموع من عيني، ودائماً يكون الأمر بهذا الشكل وهي تغنىًّا ومع أفراد العائلة جمِيعهم، فيقع على عاتقنا أن نردد بعض كلمات الاستلطاف والإعجاب، لكننا لا نفعل، حتى الكلمات العائلية البسيطة والبسخيفة لا نقوى على تردیدها أمامها.

آه، من الطبيعي أن نقدم لها بعض الكلمات شاكرين لها أمراً لا نجيد تماماً التعبير عنه، إما بالسكتوت أو بالدموع، وقد عرفت عقوبة مبكراً بعض الندوب منذ تلك السنّ الصغيرة، لكنني لا أظنّ أن هذا أثّر في حالها الصوتية، فبعض نوبات الكآبة والقلق الشديد كانت تتباها، وهلال هو الذي يخبرنا بها، وفي بعض الأحيان سنّية أو العمّ مختار. فالغناء سخّنه ياسين، ومن الجائز أنها أخبرت طرب، وربما أخبرتكم جميعاً ..

كنتُ أخدعها وأخدع نفسي، وأردد: هذه مسؤوليتي وحدي، أمّا هي، فكانت ترتحل أبعد مما سبق، وتبتعد عنّا جمِيعاً، وهي بیننا .. آني الآن أمّامكَ، يا سيد صميم، حضرتُ بنفسي إلى بيتكم، هياً، انظر إلى، وأنا أرتدي ثيابي التي كانت تفضلها: طقم رصاصي مكسّم على جسمي، أزراره الذهبيّة لا تُعقل، وباقته رفعتها إلى أعلى لإخفاء ترهّل جلد رقبتي، وسحّاب التّنّورة لم يصعد كله للأخير، فشكلته بدبوس أبو رأسين. والفندرة ذاتها بكعب متوسّط الارتفاع، جلد روغان يلمع، زدتُّه لمعاناً بمسحه بزست ناشف. والشال، ألا تراه؟ انظر إليه جيداً، هل تذكره؟ كان ذلك منذ سنين، طرب جلبة من هناك، نعم، هذا منها، أرسلتهُ معكَ، هل تذكر؟ .. ها، هل تراني مهندمة وبلا عطر فواح، إلا عرقى الخيف، والحقيقة العتيقة تحت إبطي، وأنا أمّامكَ كما كنتُ نذهب، نحن أفراد العائلة جمِيعهم، لأخذ العزاء وعمل الواجب .. أنا حاضرة باسم الجميع، ومن الجائز ستري من وقت لآخر سنّية تمدّ رأسها وتقول لكَ: مساء الخير، أستاذ صميم، هل

تريد أحداً يصحح لك المشاعر؟ هل وصلت للحديث عن الأحزان؟ هيّا، نادني في أيّ وقت تشاء. وأمها مكّة، كانت تحضر لكم ولنا أللّالاتم، وبلا منّة؛ علّ جوع المأكّل يوازي الجوع إليها. وهلال أخوها، والعمّ مختار، أبوها أيوب .. كلنا، الرجال والنساء، وسّكّان هذا الحَيِّ والشارع .. يا ويلي عليّ من لسان بيبي فاطم، جدّتها، لو عرفتُ أنني تناستُ اسمها، لما غفرتُ لي. سوق بيبي كان متاهّلاً لدخول غرفتها، والإقامة فيها بعد حملة تنظيف جنونية. تفتح الشّرائط التي سجّلنا عليها صوتها وهي تشدو بأغاني سيد درويش وعبد الوهاب وسعاد محمد وأسمهان .. هذا لا يخبر أيّ شيء عنها، لكنها كانت على اعتاب الثالثة والعشرين، فتوقفت الأعمار والقصص هناك.

طرب، وطوال ثمانية أعوام بقيت تسافر إليها في باريس، وحين تعود لا تؤكّد ولا تتفّي، وهي تقول:

اسمع صميم، لا يمكن أن توقف القصّة في المشفى ذاك أو تلك الرّدّهَة أو عيادة ذلك الطبيب إبّاه. فهي تدخل وتخرج إلى هناك، فالحالة ليست خطيرة، وهي ما زالت تسخر من كل شيء.

كانت تضيف بنبرة حزينة:

من الجائز، هي تعتقد أنها تركناها تصيع من بين أيدينا. فنحن أيضاً توقفنا عن الشّوق إليها والبحث عنها. هكذا عناداً، حنقاً منها، وعليها. هل نحن أسباب المرض؟ كلا، كلا، لا أريد الحكم الآن.

معاذ يدعوك، يا سيّدي الدكتور، لزيارة، آه عندنا، في بلدنا الذي تداوله بتقطيع السّرّزد، والخوف من فرار شخصيات القصّة والعائلة من الصفحات قبل التعرّف إليك، بدءاً من الحال سامي مروراً بالأخ هلال،

ثم بالآنسة عفاف. وكلّما انقطع السّرذ فجأة لسبب سياسي، أو حربي، أو عسكري، أو ديني، منحنا أنفسنا بعض المكافآت، وعملنا وجية طعام مُعتبرة في الحديقة الخلفية، وشربنا نخب أفراد هذه العائلة. فتدخل على الخطّ دكتور، وأنت تضع قدمك على أرضية - المكعب - وتمكّن من دراستنا جميّعاً، تضحك ولا تعلق! لن نضع أمامك قطعاً من لحم الآنسة، أو ثيابها، فنزّنها هنا في بلد़ها، ونهدّها أمامك كالفرسَة المولودة حديثاً.. كلا، هذه طريقة قصيرة النَّفَس، وهذا نحن الذين تتفاوض معك، وتتناوب على إدارة عملية السّرذ، ولا علم لنا مَنْ سيدخل ولا يخرج، ومنْ سيستقرُّ ويحضر لدقائق ويفقد، ومنْ يعرض علينا الفظاعات لإخافتنا، ومنْ يرید العيش معنا، لكي ينفع صدره قائلاً: آه، كنتُ معهم نفراً فرداً واحداً يتلذّذ بالصيد والأذية. هؤلاء كلهم، ومن الجائز أكثر، يقدمون أنفسهم أمامك، فلا تبخل بالتعاون معنا. بالطبع، هناك احتمالات للشكوك والأخفاء فيما سنرويه، فلسنا كما تتصوّر، أصحاب نظريات في تحليل الجرائم، لكن وفراً ارتكابها، وتنوع طرقها قد تدفع بعض البشر، كالآنسة، إلى فكرة لا جدوى الحياة ذاتها.

الفاذرية الأمريكية

في نظرنا، هؤلاء كانوا من أهم القادمين إلينا، على الخصوص إذا كان السبب مقبولًا:

فتحن بلد نقدم يد العون والصدقة وحسن الضيافة للغرباء. وإذا،
فليكن الله في عوننا.

"الفرنسيون الكاثوليك كانوا يمارسون نشاطهم في العراق، ولم يكونوا سعداء".

معاذ عَّقب قائلًا:

مرتاحين أدقّ.

في حورتنا الكثير من الشائعات التي رافقت الآنسة وهي تغادر المدينة.
طرب بقيت تُلَحَّ:

أيّ مدخل لقصصي أطوارها فليكن من هناك، من البيت الكائن في حي السفينة. يشير المقدسي: "قرب مشهد الإمام أبي حنيفة النعمان، وبعد دخول الإنكлиз عام 1917 كان نفوس الأعظمية / المركز حوالي ألفين وبيه في محلّاتها الرئيسة، وهي الشيوخ، والنصة، والحرارة، والسفينة، عدا الأطراف. كانت الأعظمية هي المركز إداريًّا في العهد الملكي، وقد بدأ التوسيع في المركز عام 1935 من جهة السفينة، حيث أنشئت محلّة هيبة

خاتون، ومن جهة النصة، حيث محلّة راغبة خاتون. وافتُتح شارع عشرين عام 1913، وببدأ العمran يتَوَسّع تدريجياً. وقيل، سُمِّيت بهذا الاسم على شاطئ الأعظمية في هذا الموضع، ففي أحد فصول السنة، ومن كل عام، يبيع لها السُّكَان المُحليُّون متوجاتهم، ويُشتَرون ما يحتاجون من بضائع".

كان صوت معاذ وهو يدعوني للعودة إلى قدوم اليسوعيين الأميركيان
لبغداد. فقد كان رأيه:

سيزداد فضولك كلما توغلت في تلك الفترة. ستري مثلي وأنا أشق وأحضر أساسيات - المكعب - فأرى المخلط الذي جعلني أرى حيوة أفكار تلك الآنسة الجذابة، على الخصوص لما تجمّع أكdas التراب والأحجار وباقى المتروكّات، لكننا كنّا نرى ومعاً بجوارها شيئاً آخر. فالصور الجانبية تتغيّر، والأمامية تتّسع، والخلفية تختلف روبيتها، وهكذا أشاهد قسماً من وجهها وهو يمتّص إشعاع الضوء الساقط على دجلة، فتبعد في تلك اللحظات أكثر كمالاً من حقيقتها، فتلتفتْ قائلة بصوت بعيد وساخر:

سنرى، أستاذ معاذ، أمراً لم يكن بالحسبان. كثير منا لا يُصر جيداً. كلا، هم عميان وعيونهم مفتوحة على اتساعها. ربما، واحدة من أسباب ذهابي إلى هناك، لم تقل باريس أبداً، أريد تنظيف حواسّي جميعها، فلو بقيتُ هنا، لعميتُ، واختفيتُ!

تفاجأ معاذ وهي ترك كُلّيّة الهندسة الكائنة قريباً من باب المعظم، للتسجيل في أكاديمية الفنون الجميلة الكائنة في الوزيرية، في البقعة ذاتها. داومت عامين متاليين في كُلّيّة الهندسة، فكانت ترى مُقدّم السفينة وهي على وشك الغرق. هكذا ذكرت لطرب، فأصبنا جميعاً بالدهشة من ذلك الاتصال والرؤيا. كان السيد أيوب لا ينفك يعرض عليها وقوفيات

جدّتها ببي فاطم، وكيف ستُجرب فنون الهندسة والتصميم عليها عندما تقدم على الهدم وإعادة البناء، لكنها وقفت في مفترق الطرق: الرسم أو الهندسة؟ نعم، كانت المفاجأة ذاتها باتصالهم من حي السفينة إلى شارع تانكي الماء المجاور لسكن الأخوة يسوعيين. فقد بدت نصيحة الأب ولش، أن تكون بغداد هي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يعمل فيها هؤلاء دون أن يثيروا معارضة الفرنسيين الذين يشكّلون حجر عثرة أمام الآباء، وهذا ما حصل في بادئ الأمر فعلاً. كان معاذ يجلب لي بعض الفضّاصات، ويبلوها أمامي، فأعدّل وأمحو وأضيف، فهو يتحدث ويقرأ بسلامة، كأنه يقرأ في مخطوطة تخصّه. أظنّ أن أحد أعمامه مؤرخ، وخاله محام، ووالده، هنا روحه طلبت الرحمة، كان على اطّلاع تامٍ على تلك المراحل من نشوء تلك المناطق. فيضيف:

أظنّ أنه ليس جميع ما نقرؤه أو نحصل عليه من معلومات يبقى فوق مستوى الشبهات. ستبقي الثعالب وهي تسرد أحداث التاريخ تُزور وتُلْفَق. ولن توقف رحلات الصيد هذه، التي تقوم بها من حين لآخر، فهي لا تدعو أن تكون من باب كش الذباب عن برميل العسل المسموم.

صحيح دكتور، الأخوة يسوعيون اشتروا قطعة أرض سبخة مهملة ومتروكة، يعجّ فيها البعوض والحلفاء، وتقع في شارع الأخطل. هذا الشارع الذي لم نطلق عليه هذا الاسم أبداً، إنما بقينا جمِيعاً، وبِاللُّغَرَابَةِ! نردد اسمه الذي يملك سلطانه على أفراد العائلة جميعهم، فانتقل إلى الأصدقاء، وأصحاب المحلات والأراضي والوقفيات وسائل خطّ التكسيّات: شارع تانكي الماء. هو الشارع ذاته الذي يتقطع مع شارع نظام الطبّاجلي. لا أظنّ أنك سمعتَ اسم هذا الضابط الذي أُعدِمَ مع مجموعة من الضّباط في التسعة والخمسين من القرن المنقضي، وكان

حاكم العراق، العسكري الذي أُعدم بدوره عبد الكريم قاسم. لقد تمت الإغارة على وزارة الدفاع، وهو داخلها، فجلب لمحطة الإذاعة العراقية وأمام المشاهدين، حظي بميزة لم نشاهدها من قبل: القتل بدون ارتكاب خطأ واحد، فقد تم إعدامه رمياً بالرصاص، وكان ذلك في التاسع من فبراير من العام 1963. ربما، بدت لك تلك التواريخ لا تستحق الذكر، لكننا كنّا نعمل بتراتبية متصلة باستعمال الشرّ، ومن الدرجات الدنيا، وإلى الدرجات المتقدمة والمتقدمة على مَدّ أبصارنا. لدينا ساحة الطبقجي، لكننا لا نملك مقابر للفادة والزعماء. تلك الساحة تبعد مثيّاً عشرين دقيقة عن جرف دجلة في قسمه الغربي الواقع في الصليخ الجوانى. بالتأكيد ستأخذك طرب في جولات، وبالطبع معاذ، فتسيران ما بين - المكعب - وكورنيش دجلة عندما تلبّي الدعوة، وسوف ترى أننا نقف في كعب شارع عمر بن عبد العزيز. فكل خطوة هناك تستطيع أن تجعلنا نشاهد صور الرهبان الأربع في ثيابهم البيضاء الطويلة. تشدّ خصوصهم أربطة سوداء عريضة، وكانت رؤوسهم عارية وشعورهم حلقة، ورقباب بعضهم غليظة، لكتهم طوال القامات، وهم يقفون أمام الباب الرئيس للكلية، يُحدّقون في السماء البغدادية.

للتوّ، أشعر كما شعر معاذ وطرب والعمّ مختار، ونحن نُحدّق طويلاً في الصور، تلك التي استخرجتها طرب من النت، فهي تدير تلك الأجهزة العالمية باقتدار أفضل مني. كنّا نقلّبها بأيدينا، ونتأملّها مليّاً. فيبادر معاذ قائلاً:

صور تتفاdue مع بعض الحسرات، وتتقارب من وخz الضمير.

أخذ مجّة من الباب المحسوّ بالتبع عالي الجودة، ففاحت رائحته في أرجاء غرفة المكتب الذي نشتغل فيه نحن الثلاثة. ففي غالب الأحيان،

أعمل وحدي، وكل واحد يذهب إلى حال سبيله. هو يحاول الاستذكار والتنقيب، فيبغتنا حتى لو كنا نتهيأ للوصال، بهاتف يخضنا، الأمر الذي كان يهمّ معاذ التالي:

الأسماء، يا صاحبي، هل ستُشير إلى اسمي الحقيقي واسم زوجتك، وبافي أسماء عائلة أبيوب؟

صمت قليلاً، وأضاف:

وعشاقها وأصدقائها وعلاقاتها العجيبة والمتوترة معنا كلنا وبدون استثناء.

رشفتُ من قدح الويسكي الذي أمامي، ولم أرفع رأسي:

هذا الكلام كله لا طائل من ورائه، فنحن مَنْ يُقدر حسناتها وجنون عظمتها أيضاً. وفي هذه الحالة، كلنا متساون معها. رفعتُ رأسي إلى أعلى:

هل لديكَ موانع من إيراد اسمكَ الحقيقي؟ أنا أراه اسمًا أدبيًا لطيفاً، بالرغم من رتبته التّاريخية. فالاسم الفعلي للشخص ونحن ندعه يتبوأً مرتبة في وظيفة السُّرْد والإخبار، يحمل مع الراوي المجهود الجسدي والعصبي، التعب وبهجة النزهات القصيرة مع الشخصيات.

والدكتور كارل فالينو؟

كان سؤال طرب من باب اللياقة والإتيكيت الأوروبي، بمعنى، هل تقوم بسؤالكَ دكتور بالسماح لنا بذلك؟ أم نقوم بوضع اسمكَ حالاً، لكي نقلص المسافة الروتينية التي تضعونها دائماً في استعمال الضمائر ودبلوماسية

اللغة الفرنسية. اسمك دكتور أراه فائق الجمال. يتكلّم ولا يقفز سطوراً، ولا
أظنّ أنك ستفرض لو اخترتُ لكَ اسماً حَرَكيّاً مغايِراً، فلن أجد ألطف من
اسمكَ الحقيقِي، وسوف تعرّف على نفسكَ وشخصكَ ونحن نصوّركَ
وأنتَ تحدّث في فصول آتية، فتبدو أنتَ المتكلّم، والمُخاطب أنا /
أنتَ. فالإقامة هنا ستكون بيننا، بين هذه القُصصَات والصور والأبواب
والشِرائط والآلات والخمرة بأفضل أنواعها .. إلخ، وأزعم أنّ لدى معاذ بعض
أفخر أنواع النبيذ الفرنسي، إلخ.

ضيوف الشرف

كان أفراد البعثة اليسوعية الأربعية قد طلبَ منهم الإشراف على إنشاء الكلية في بغداد حسب ما دُون "وأعلن في المعاهدات بين جعفر العسكري ومفوض الولايات المتحدة. وكان هناك الآباء اليسوعيون "الفاذريه". وهناك المُدرّسون الأميركيان "الأفندية" الذين يطلقون عليهم "المستيرية". وهناك المُدرّسون العراقيون أيضاً. حصل الإبلاغ رسميًّا وبأنّ مستلزمات البدء بهذا المشروع قد جُهزت بما فيها المبالغ المالية، وأعدّت لتمويلها، تلك التي وعد بها الحبر الأعظم في روما. وقام بتوفيرها لتسخير عمل المشروع البالغة {50,000} خمسين ألف دولار أمريكي، إذ أصبحت جاهزة، لتُوضع تحت تصرفهم "وهذا يتعلّق بإنشاء كلية بغداد فقط ما بين العام {1928.1930}. استوقفنا كلمة "طلب" منهم، وأنا أعيدها بصوت مرتفع، فيجيبني معاذ ضاحكاً:

من المفيد في هذه الحالة استخدام المخيّلة، فنحن هنا وصورهم أمامنا، ومن البداهي كانت لهم خلفيات اجتماعية ربما متناقضة، جعلت المعنيين بالإدارة الأمريكية يختارونهم، وبدون بذل الجهد. صورهم وهُم أمامنا كأنهم كانوا على اتصال مع قوى فوق طبيعية، أو يمتلكون طاقات غير مرئية، تجعل البعض من الأهالي يفتحون أفواههم أول ما يقع نظرهم عليهم، كما وقع نظري على بنود المعاهدة التي سُنتَ بين الفرقاء: "الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وال العراق التي أبرمت في تموز 1923

في لوزان، سويسرا، والتي كانت تسمح في مادّتها الرابعة لرعايا الولايات المتحدة مع مراعاة أية مقتضيات عامة للتعليم: الموضوعة بقانون في العراق، بأن يؤسّسوا في العراق بحرّية، معاهدة تهدىبية، وخيرية ودينية، تقبل من يطلب الدخول فيها مختاراً، وتدرّس باللغة الإنكليزية، وبأن يقوموا على تأمين سيرها". وُقعت بأسماء الثلاثة وقتذاك: جالس. ج. داوس، السفير فوق العادة لبريطانيا العظمى، ومفوض الولايات المتحدة أرثر هندسن، والسيد جعفر العسكري: المفوض العراقي / لندن في كانون الثاني 1930."

"في الجانب الغربي من شارع التانكي كان يسكن أولئك الفاذري، وبعد موافقة الخبر الأعظم على المصاريـف جميعـها، أصبح كل شيء جاهزاً وتحت تصرـفـهمـ. فـلمـ يـواجهـ الآباءـ الـيسـوعـيونـ عـنـدـ وـصـولـهـمـ أـيـةـ مـعـارـضـةـ منـ قـبـلـ الـمـسـؤـولـينـ فـيـ الـحـكـومـةـ الـعـرـاقـيـةـ. فقدـ أـوـضـحـ أحدـ تـقارـيرـ وزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ لـشـؤـونـ الشـرـقـ الـأـدـنـيـ، أـنـ الـأـبـ ولـشـ بيـنـ مـوـقـفـ الـحـكـومـةـ مـنـ مـجـيءـ الـآـبـ وـتأـسـيسـ كـلـيـةـ بـغـدـادـ بـمـاـ يـلـيـ: إـنـ الـمـسـؤـولـينـ يـحاـولـونـ تـطـوـيرـ بـلـدـهـمـ بـسـرـعـةـ كـبـيرـةـ، وـيـحاـولـونـ أـنـ يـنـجـزـواـ فـيـ عـشـرـ سـنـوـاتـ ماـ أـنـجـرـهـ أـورـبـاـ فـيـ قـرنـ". ولكنـ ولـشـ يـعـتـقـدـ أـنـ مـثـلـ هـذـاـ التـطـوـرـ السـرـيعـ كـانـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ إـنـجـازـهـ فـيـ تـلـكـ الـظـرـوفـ. وهـكـذاـ وـقـعـ اـخـتـيـارـ الـآـبـ عـلـىـ الـحـاجـةـ الشـمـالـيـةـ لـبـغـدـادـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـصـلـيـخـ، وـذـلـكـ فـيـ الـعـامـ 1934ـ، فـقـدـ تـمـ اـسـتـئـجارـ بـيـتـ يـقـعـ عـلـىـ ضـفـافـ دـجـلـةـ، وـهـوـ مـبـنـيـ عـلـىـ الطـرـازـ الـعـرـبـيـ الـقـدـيمـ، وـمـؤـلـفـ مـنـ طـابـقـيـنـ بـرـوـاقـ حـولـ الطـابـقـ الثـانـيـ. اـسـتـخـدـمـ قـسـمـ مـنـ الدـارـ كـسـكـنـ لـلـآـبـ، وـكـانـ الـدـرـاسـةـ تـجـريـ فـيـ بـنـيـاتـ مـسـتـأـجرـةـ، إـلـىـ أـنـ تـمـ شـراءـ أـرـضـ قـرـيبـةـ مـنـ الـعـقـارـ الـمـؤـجـرـ فـيـ الـصـلـيـخـ مـنـ قـبـلـ الجـمـعـيـةـ التـعـلـيمـيـةـ الـعـرـاقـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ. هـذـهـ الـأـرـضـ الـجـدـيـدـةـ تـقـرـرـ أـنـ تـكـوـنـ مـوـقـعـاـ ثـابـتاـ لـكـلـيـةـ بـغـدـادـ. وـهـيـ تـبـعدـ حـوـالـيـ أـربـعـةـ أـمـيـالـ شـمـالـ مـرـكـزـ الـعـاصـمـةـ. وـهـيـ أـرـضـ زـرـاعـيـةـ، وـتـبـلـغـ مـسـاحـتـهـا 4050ـ مـتـرـاـ مـرـبـعاـ".

هذا هو شارع التانكي، دكتور، وهو كائن وسط الصليخ الجنواني، والذي سنعاود ونذكر ذكره.. اسمه وسكنه وقصوره وجنرالاته وموتاه وعاهراته. وهو الشارع ذاته المؤدي للكلية النازل من الكورنيش، فنصادف دار: "حكمت سليمان رئيس الوزراء في الثلاثينيات. ويقع في الجانب الغربي من الشارع، يقابلها سكن الفاذيرية بعدما صار الآن سكاناً للراهبات، سنعاود ذلك بعد أن تم طردتهم في العام 1969 في حكم الرئيس أحمد حسن البكر. أما الكورنيش نفسه، فهناك كان يطلّ بيت "رشيد عالي الكيلاني" في الجهة الجنوبية، والذي صار فيما بعد مقرّاً لـ"للمجمعية البغدادية" التي أجرته من الورّة. طرب زوجته ومعاذ معها بحيثيات مَنْ كان يسكن مقابل من: كما هو بيت الطبيبة المشهورة آمنة صبري مراد، التي كانت تعالجها وجيلاها والذي قبلها، مرددة بصوت خفيض:

تمرضت تلك الطبيبة بمرض خطير، وسافرت إلى لندن للعلاج، وكان ذلك في التسعينيات، ثم غادرتُنا. ولو وصل الدكتور فالينو، ونحن الآن في العام 2011، لما استطعتُ أن أمسك بيده ونمسي معاً في تلك البقعة من شارعنا الذي ما زلنا نعيش فيه.

هكذا ستتجه للغرب، ونرى بيت الشيخ "بلاسم الياسين"، ذا "المستانية" الكبيرة التي توصل بسلم إلى النهر، وبجانبه بيت الدكتور التسائي الأشهر كمال السامي، هو ذاته الذي أخبر الآنسة عفاف بولادة أخيه الصبيين التوأمين اللذين قضيا خنقاً في أثناء الرضاعة بعد أيام، وقبل أن تولد هي.

كنا نلتقي بنا، بأنفسنا ونحن نحاول العودة إلى هنا ثانية، ونحن لم نبرح المكان. معاذ غادرنا إلى أمكنا كثيرة في أوروبا وبعض البلاد العربية، لكنه لم يغادر المكعب في رأسه. لم نستحسن نحن جميعاً هذا الاستمرار في التنقيب عنا كما هو عنها، فقد بدت الأمور مثيرة، والمهمة مشحونة

بالمفاجآت، وأذاها مزعج لنا جميعاً، نحن والأهل. ففي هذا الخطاب بدا لنا، ونحن نُرَكِّز على أحداث بذاتها، امتحان الصداقة بين البشر، فهذه لها شجرة، أشجار، وتعتمد على سلالات وأصوات وروائح ومشاعر، كلها نهضت أمام أعيننا مجردة من كل شيء، فالأمر لا تؤكّدتها سجلات الميلاد والدم والوفاة، والمبادئ المجردة وإجراءات المصطلحات النّظرية، ولا تختصرها أطوار الأصدقاء الغربة والغامضة، لكن، تتكفل بها المصاعد والأهوال.

تُلاحظ، سيدي الطيب، أننا ننتقل شيئاً في تلك الشوارع الجانبيّة، وقد يعيّب علينا البعض ندرة التوثيق لسلسلة الأحداث، فهذا ليس غرضنا الوحيد. وبعد عدّة دور باتجاه الشرق، كان هناك دار الدكتورة سعاد خليل إسماعيل. شغلت منصب أول عميدة لكلية بغداد. ولا يتعدّ كثيراً بيت العسكري صالح مهدي عماش الذي شغل مركز نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع في حكم الرئيس أحمد حسن البكر في سبعينيات القرن العشرين. وفي الجهة الشّمالية، أي على الكورنيش أرض ليحيى ثيّان. كانت خالية، لكنه في ما بعد زرعها حديقة، لها سلّم ينزل إلى النهر. ولو ابتعدنا قليلاً عن تانكي الماي، لظهر أماناً، فجأة، صورة ووجه: "بكر صدقي الذي طلع من هذا الصلیخ الجواني" في العام 1936. هذا العسكري لم يكن إلا مُنْقَذ المقتلة التي نزلت بالأشوريين في العام 1933، وبعد عامين بعشائر الفرات الأوسط الشّيعية. وبعد ذلك بأكراد العراق".

أكسسوار

تفاهة ... تفاهة ..

هذه اللّازمة دكتور التي بقيت الآنسة ترددّها أمامنا، فنسمعها منها وهي تنفجر بالضحك، وتشرب الخمرة، أو ترشف فنجان القهوة المرة من يد طرب، ترددّها بنوع من نبالة تناسب بعضهم، وكأنها تُورشِف بها الكتاب وعنوانه. تعني بالنعمت، وتحاطبه وراءنا، أمامنا، وفي بعض الأحيان تفترضه كسؤال: عن أمور وأناس تعرفهم، عن معارض وكتب وأشخاص قابلتهم .. ترى، هل حصل وذكرتها أمامك دكتور في تلك الأيام والسنين؟

بقيت تتلّخص وهلال وسنّية على تلك القصور المتجاورة. هلال يغتّي الأغاني الأجنبية، وهي تنادي على سيد درويش، فتصير في مواجهة الطبقة التي تربى الكلاب البوليسية، وتعرف البيانو، وتلعب التنس، وتنزل {للمسنّية} الكائنة بجوار كل فيلا وقصر. رجالها يرتدون الشورت، وبناتها المایوه، فيدفعن الأمواج بأذرعهنّ البضة البيضاء بعيداً. ويتشمّسون على كراسٍ مستطيلة ملوّنة. بعضهن يستلقين على الجنب، والبعض على البطن، وأفخاذهن مفخورة ومدبوجة بشمس بغدادية حارقة وما إن ترى ذلك كله، فتنفجر بالغناء، وهي لا تنظر في وجه أي أحد ... ثم تبتعد وتمشي وحيدة و يصل صوتها إلى هلال وسنّية:

"صعب على أنام"

أحسن أشوف في المنام
غير اللي يتمنّاه قلبي،
سهرت أستنّاه
وأسمع كلامي معاه
وأشوف خياله قاعد جنبي"

في بعض الأحيان، نستخدم العribات الخاصة للانضمام إلى تلك المجموعات، أي المؤسسين لـكُلية بغداد الذين تجولت حكاياتهم بين سُكّان قصور شارع التانكي وما يجاوره من أحيا، مروراً بالمخابرات العراقية وبعض رجالها الذين كانا نراهم بثيابهم المدنية ونظاراتهم المخيفة وشواربهم غير المشدبة جيّداً. كنتُ أعتقد أن أرشيف وزارة الداخلية كله كان يتوقف في شارعنا، وهناك أسئلة مبثوثة في الهواء سوف تساقط على رؤوسنا، ولكن، لا نعرف متى! بالطبع لا نستطيع أن نتحاشي الحوادث التي تعرضوا لها. بالتأكيد عندما حضروا إلى العراق، كانت لهم أفكار وأهداف، وصارت لهم علاقات وصداقات، وكان عندهم معارف وأقارب في أرجاء المعمورة.

تخيلُهم هكذا، بادرني معاذ الذي كان يسافر إلى خارج المدينة، ويعود إلينا محملاً بالأوراق، بأنه هو الذي صمم بناء الكُلية، وكتب بنود الاتفاقيات، ويريد منا العناية بهؤلاء السادة قائلاً:

دائماً تصوّرُهم وهم ينزلون من مركبة فضائية، تشبه تانكي الماي بأذرعه وأرجله الممتدة إلى باطن الأرض، وهم يقرؤون المستقبل، وسوف يسيطرون وبالتدريج على البيئة المجاورة لنا.

دجلة يظلّ يصغي، وفي كثير من الأحيان، كان يحرّك الكلمات والرياح والجيوش والدبّابات. فقد تناهى إلينا في إحدى السنين الدّمويّة: أن

هناك عسكريًّا كان يعيش في واحد من بيوت شارع التانكي، كان بمقدوره، وبمفرده، عمل انقلاب عسكري، وبدبابة واحدة، وفي بعض ساعات. هنا كانت تختل أنظمة الأحياء، وتهزّ عظام الموتى، فالعسكري ذاك اختفى، وجاءت اللحظة وللتّو، فبدأت أردد بدوري أنا أيضًا:

تفاهة .. تفاهة ..

تقطيع

أنتَ الآن، يا سيد صميم، مَنْ يترجم سيرة تلك الآنسة. تُدُونُها، ولستَ متأكداً من حدث إختفائها البطيء الصعب الذي شرع بالإخبار عن غيابنا نحن .. في العمق، هذه واحدة من إزعاجات تأليف الكُتب والمخطوطات، فما إن تبدأ وتشقّ ساقية صغيرة، فتصير بركة ماء، ثمّ تحول إلى جدول جار، فنرى دجلة وهو يتکفل بالباقي، يستلطف مَنْ بعض الشخصيات، ويأخذهم إليه، أو يوقع العزل على البعض الآخر، فُيُشوّه حياتهم .. أجل، أنا، ونحن أصابنا الفزع مما حصل ويهصل، لكنني، دكتور: التأليف لم يبق تحت إمرتي، ولا أحتفظ بعذلي من جهة أخرى، على العكس، صار التأليف عدواً يقف على حدود دماغي، وهو يعدد الخسائر والبلى. لم أتفرّغ لسلطته وصارماته، فأنا كاتب غير جديّ، وسرعان ما أنفجر بالضحك من أولئك الذين يبالغون في هذا الأمر: الآنسة عفاف على رأسهم. بقيتُ مجھولاً تستهوييني الأسماء المجهولة، وأنا أغدقها على مَنْ أشاء من الأشخاص الذين أتناول حيواناتهم، وأعرف ماضيهم حسب الأصول المرعية، نازعاً عن بعضهم الأقنعة، وكاشفاً عن البعض الآخر ما يخيفني شخصياً. فالبشاشة والأصوات المدوّية التي أشعلت السماء منذ أعوام الثمانينيات وحتى اليوم تتطلّب مني رعاية صحّي وحواسّي وألياف عقلي بالدرجة الأولى، فأنا لم أغادر المدينة، مأخوذاً بالحدود القصوى لقدرة الكائن البشري على تحمل الابتذال والسفاهة، وهو يصدّ ويرد قبل حدوث الانفجار. لم أجد أفضل من تقنيات المكر والسلّك، واللعب مع حالات الانضباط الحربي، كما هو في

النظام السُّرِدِيُّ، وهو يفتح لي طُرُقاً سَرِيَّةً في البحث عن نوع من الامبالاة الملطفة، وإنجاح عبارات طازجة على شاكلة: تفاهة. وفي واقع الحال، لم تتوّقف، أنا وطرب صراحة عن حثّ معاذ على التَّوْقُف عن المراوغة وحماءة نفسه بالدرجة الأولى، لا مصير المكعب - العزيز علينا جميعاً، ومن العودة إليه بين حين آخر كنوع من إكرام الفضائل لطريقة بنائه والعيش فيه .. قطعنا له عهداً، سوف تتولّ طرب اللقاء به عبر السكایب، فهما يتتميان أكثر مني للاضطراب الافتراضي الذي أصابنا جميعاً، ولو بدرجات، وسنضعلك، دكتور، في المقدمة، نعم، عزيزي، لا أطئنك ستصمم استغاثة ما ونحن نرى ونسمع المتحضرین طوال الليل والنهار، ولن نزعم أن الآنسة شاهدت ما نشاهد، فهي لم تمتلك جهاز تلفزيون طوال حياتها. أخذت لها طرب في إحدى الزيارات مذيعاً صغيراً هدية من العمّ مختار.

نعم، دكتور، دائماً أخرج عن النَّصّ، فأؤدّ إعادة ترتيب بعض الواقع، وجلب الآنسة إلينا ثانية، وهي تجib على طرب في أحد الأيام، وهما في الأكاديمية:

"الفراغ هو الممتنى الوحيد الذي يتّجه إليه العالم والوجود كلّه، ولا يكتثر إلى أين نصل" ..

تدخل معاذ عبر السكایب، فقد سافر وفضل هذه الطريقة الافتراضية المزعجة، غير المألوفة لي، فأنا لا أحبّذ هذه الطُّرق جميعها .. ما علينا:

نحن تخيل، يا صاحبي، كما كانت تفعل هي. لا نملك أية لوحه من

لوحاتها في مرحلتها الأولى. ولا للبناء الأول لسكن الأخوة اليسوعيين، وليس لدينا أي أرشيف للدار الأولى المتواضعة المستأجرة الواقعة شرقي دجلة في منطقة المربيعة، ولا اللوحات التي رسمت بها أفراد عائلتها جميعهم وأبطال الألياذة، أوليس وبنينلوبا، وكارل ماركس ولينين وأنجلز وبيري فاطم والخالات، والعم مختار الذي كانت تُطلق عليه لقب: صاحب القلب المخمور والمفطور دائماً.

حسب علمي، الدكتور سوف يجيب عن القسم الأول الذي يخص الملف الطبيّ، لكنني متأكد أنه سوف يعرّج على الملف الفنيّ، ونحن سوف نكمل الجانب الذي يخصنا هنا، فالدار في شارع الكيلاني المتفرّع من شارع الرشيد، وقبل الانتقال إلى الصليخ، أوضحت بعض تقارير وزارة الخارجية الأمريكية بشؤون الشرق الأدنى، أن الأدب ولش بين موقف الحكومة العراقية من مجيء الآباء وتأسيس كنيسة بغداد. وهنا وبعد قراءة هذه الفقرة توضّحت بعض الأمور: كانت الحاجة التنافسية ما بين الولايات المتحدة وفرنسا شديدة في الطرق التي استخدماها كلا الفريقين ببعضهم ضد بعضهم الآخر في مهمّات التنصّت والتلصّص والتجسس واللاحقات الغامضة بالعربات التي تجرّها الخيول، إلخ ..

ما هذا، يا صاحبي معاذ؟

أنا لم أبدأ بكتابه خطابي الحقيقي إليك، سيدي الحكيم، كنا وبدون علمنا أو علمك تقوم بتحضير الكحول والأغذية والمقبلات والموسيقى والتبغ، وما يُسمّى بتحريك رفات الموتى والإنصالات إلى بلبة الأحياء، ونشهد على ما كان يرددّه الفرنسيون وهم يصفون الميت: "لفظ نفسه الأخير"، أمّا الإغريق، فيقولون: "أطلق نظرته الأخيرة".

حسنا، علينا العناية بالميت، أو الميّة، فنحن لا ندرّي إن كانت ما تزال

موجودة . وتحضر، أو أنها مجرد مخفية، ولا تنتهي إلينا، ونحن لا نعرف كيف نقوم بالسهر على مصيرها، ولم نفكّر في الأصل كيف؟ أظنّ هذه طريقة، أعني طريقتنا، ميؤساً منها، فهي عزّمت على الإخفاء، أو اقتصرت على هذا الاحتمال، ونحن نقوم بتحضير الخلفيات الفاجعة في الرسم والفنّ، في السياسة وطرد الأخوة الفاذيرية. لا ندري لم تصوّرت عائلتها أنك كطبيب، ولكَ يد في حياتها كلها، وربما اختفائها. بمعنى: أنك القاضي، يا سيدِي الحكيم. هكذا تُسمّيك السيدة مكينة أمّها. ستجلّينا للمحكمة كلنا على ما أظنّ، وسوف تمثّل أمامنا أنتَ أيضاً، فهذا هو الذي يُسمّى عدلاً. ذلك الأمر الذي لا أحد يؤمن به. من الجائز، هكذا تبدأ القصص، فيما إذا تجنبنا، على الأقلّ، وفي الوقت الحاضر، إعداد الجنارة، فلا نريدّها أن تبدو كاريكاتورية وهي ترفع رأسها في وجوه المشيّعين والمُعرّين، فتتفوّه في وجوهنا، وبصوت ماكر:

تفاهة .. تفاهة ..

<https://jadidpdf.com>

الفصل الثاني

<https://jadidpdf.com>

معاذ الألوسي،

مدير الموقع

ولكن، مَنْ هو معاذ الألوسي، دكتور؟

أخبرك صميم وريماً طرب، إذا تركت عنادها، تكوني سأكون الشخص الثالث الذي له بعض التأثير في حياة عفاف. وإذا ما بدأت بالكتابة إليك، فليس لأنني الأشد إخلاصاً لها، وإنما لأنّ كلاً منا يحاول تضييق مجال البحث، فالذي لدى ليس أدلة، ولا أنا أحد الشهود. أقسم لك، في بعض الأحيان أن هذا المعاذ لا ينبع بذاته، وإنما هي حفظة وطوال ساعات، وفي كثير من الأوقات، يُلقي اللوم على نفسه، وليس عليها. على التوقف أمام خطئي الأولى؛ يوم تركتها تُلقي بنفسها في أكاديمية الفنون الجميلة، ولم أصرّ عليها للاستمرار في دراسة الهندسة المعمارية. كانت تحتاج على هذا المكان، وترفض تفاهاته، لكنها تقوم بتدفن متواه في لوحاتها، فتبقى تحملق في الفراغ، ثم تبدأ الحروف تتجمع وتتجري دون عائق، وكأنها تخاطب نفسها بهذه:

كل يوم أستيقظ وأتبع الرائحة ذاتها: رب العائلة، أيوب وبيبي فاطم والخالتين المكروريتين وهما تحتفظان بالأسى الذي لا ينقطع كالشهيق والزفير، فتدخلان في الصمت التام. وعمي مختار الذي أراه دائمًا على أهبة

الاستعداد، ولكن، لا أعرف لأي شيء؟ كانت الحياة لا تُعلق في أهداب هذه العائلة. لا يكفي أن يكون لنا عائلة هنا، لكي تُسمى مدينة الآباء. نعم، خانة لاسم الجد وجَدَ الجَدْ وسابع ظهر، كما تحب بيبي فاطمة شتيمنتا إلى حدود تلك السلالة، وجميع ما يخص الطوبوغرافيا، عمل أبي. أنت محظوظ، أستاذ معاذ، فيما إذا احتفظت ذاكرتك بوجوه جَدَنِكَ من الأم والأب، واللوائح والصور والأحوال والشوارع والأطعمة والصفات واستمارات الولادة والسفر والدفن .. وهل هذه صورة ملطفة من خارطة المكعب الذي تنوی الاشتغال عليه؟

بالضبط، دكتور، كانت على دراية بعموم ما يدور في رأسي، وهي ما زالت في السابعة عشرة، وفي يدها ملف وثائقها وشهادتها تخرّجها ومعدلاتها التامة تقريباً من القسم العلمي من ثانوية الحريري، ونحن في قسم التنسيق المكون من الأساتذة وبعض المعيدين نعاين ونسأل ونرقب .. بدت شديدة الإخلاص لشيء أو لأمر لا أعرف على وجه التقرير تحديده بالضبط، لكنني أدعّي أنه لا يُخترّل: إنها تشعر بمسؤولية عن الجمال.

أجل، دكتور، منْ كان غيرها ليصدّقني؟ كان المكعب قد بدأ يتحول إلى ورم حقيقي في رأسي وجودي. نعم، له وجود يحفر في داخلي، فهو قصّتي التي أقدمها أنا إليك، فكل واحد منّا له اسم وقصة ومكعب، لا يتلعثم وهو يردده أمام نفسه، ولا يذكره بحماسة عتيبة. وهذا أنا أُفصّح عن أسمي الحقيقي، يا دكتور: أنا المكعب، معاذ الألوسي. أظنّ عفاف شعرت بذلك، وكنتُ أريد لها أن تخمن وتتخيل أن ذلك البناء في طور التأسيس، له وجه وأنف وعينان وأستان ووجدان وخیال وغیرة وهذیان ومحظورات ورغبات باللغة الصعوبة .. آه، له قسمات تمتّ إلى وإليها .. فلنطلب له الحظّ السعيد، سيسقّ الغبار، ويظهر، ويكون له أبوان، وأظنّ اسمه

المناسب كما أخبرتَ به ... هو تجربة أسراري الخاصة، يا سيّدي، فكان مكعب الشكل، حجم واحد يحتوي دعوة للنوم والعمل والرغبة واللذّة والممتعة والتسلية والفكاهة والرسم والتصوير، فضلاً عن مراسيم من التدوّق والملامسة والولع والإنسات والإثارة وما رب عيش عايش. "حتى المواد البنائية عبئية، وهي بحالتها الطبيعية العارية دون تشويه: الطابوق والخشب والإضاءة الظاهرة، حدقة داخلية، غرفة نوم لا باب لها ولا شبابك، وغير مستعدّة، لأنها مندمجة بفناء داخلي أخضر، وتطلّ على دجلة. والحمام، سيّدي، وما أدراك ما الحمام؟! مسطبة مرمي تسخن، وتشرف على النهر. طورت وظيفتها لقضاء وقت طويل في القراءة متوسّداً المرمر المسخن. هو شطحات سكن الطفولة المطلّ على الشّطّ، مقابل منائر وقباب موسى الكاظم الذهبيّة، وغرفة نوم الوالد كانت تطلّ على جسر الأئمّة، والفراندة الخشنة تطلّ على دجلة، سيّدي، لن أُحقّق حُلماً دون مادّة كاملة من دون نهر وانكساراته".

عنّا جميعاً على بقعة الأرض، وهي كانت معنا في تلك المنطقة القريبة من شارع التانكي، كانت فضلة من أرض الأحلام، قطعة من حديقة مطلّة على الماء، وغير مُستغلّة على الوجه الأكمّل، فتمّ التفاوض مع صاحبها، وبالتالي حصل المراد. تلك هي الأطياف الأولى ما أطلقنا عليه بـ"المكعب". عفاف كانت تتجوّل بين مجرّات دماغي، وتلقى بالأحجار من هنا، وترفع الحلفاء من هناك، وتكتب بفرع أحد الأغصان على التراب اسم المكعب وهي تضحك:

يا لك من فنان متواحش. هل دَعَتْ لك الوالدة أن تفي بِندَرها في هذا البناء..؟ أنت مقامر، أستاذ معاذ، وأنا أخشى عليك أن تتكدر في أحد

ال أيام فيما لو هلكَ هذا البناء، فقط لسبب واحد لا غير: يتعدّر احتمال
فتنته ودويه، فماذا ستفعل فيما بعد؟

كانت لا تهدأ في مكان، لكن، لها القدرة على السكوت لساعات،
كميّة، وهي ترصد وتراقب المخلوقات والأشياء. كنّا أنا وطرب وصميم
لا نملك إلا هذه القصّة، لكي لا تفترّ من بين أيدينا، والأرجح هذه الطريقة
الوحيدة لإغرائها بالبقاء. أنا على يقين أن مواهبها في التصميم والإنساء
لا تقلُ عن الرسم والغناء، فقامت في البداية ووحدها بتخطيط شكل
المكعب، ولمّا واحدة على صورة قصائد متعاقبة ونوتات موسيقية
متوالّة، وفي مقدورها إجراء تغييرات فجائية من الداخل، وغير متوقّعة،
فيعادل العيش فيه بطريقٍ مغايرة مَنْ يهوى ذلك .. هي تُفضّل الشّخصيّات
الكلاسيكية، هكذا تُطلق عليهم دكتور:

نعم، هؤلاء يملكون خاصيّة لا تتقوّض، وهذا هو الذي أفضّله في
التشطيبات، لكنني، يا أستاذ، سوف أغادر المكان هذا، ربّما لن أعود، لا
أدرى، سأرسل لك التخطيطات والرسومات والأفكار وبعض القياسات،
سأخذ صوراً .. هيّا، لا تُفسِّرْ على الطريق، فأنا كالمكعب، أحتاج إلى
مراجعة وتحسينات .. هها هها .. كانت الأفكار تسُلّل إلينا جميعاً ونحن
نرى تصاميم طرب الخزفية:

سنضع في مدخل المكعب، ونكتب بجوار كل قطعة؛ هذه زخارف
هندسية هدية من صديق، تصمت، ثم تلتفت وتسأل:

ترى مَنْ تتوقّع أن يقوم ويهدّيكَ ما يناسب المكعب بسخرِه؟

بدأت هي وعفاف تُعذّدان أسماء أساتذتها الكبار في الأكاديمية،
كما لو كانتا تعزفان ناياً وكماناً، فأعطت لكل واحد منهم نوتة ولحنًا مغايّراً.

في الخفاء والعلن، كان أصدقائي يتصرّرون أن المكعب نفحة روحانية، سأشفى منها بعد ما أضعها على الورق، لكنني وعدتُ بقطع فنّية ولوحات تشكيلية، صحنون وصناديق من الخشب المحروق، وجداريات وسجّاد عتيق. وكنتُ، ولحسن الحظ، من أصحاب ضرورة العمل الشاقّ، وأنا أشاهد كيف تجتمع الصور والتصاميم، وقد بدأتأت بالتنفيذ بكل الإمكانيات لدى ولدي أصدقائي. تخيلي معي، ياعفاف، وهذا أمر سابق لعهده، لكن، دعني أفعل ذلك. هذا مكعب قيمته في قبوله الانشقاق على كل شيء، وكسر كل شيء، فيرغب كل واحد ممّا في أن يكون مكعبه، ويريد امتلاك البرهان على ذلك، أن لا يخفيه عن أصدقائه، هكذا. أجل سيحضر منْ نحبّهم جميعهم، ويتوافد إليه، وعلى ذلك النحو الذين ينتظرونـه منذ أمد بعيد، على النحو الذي يجعل أشكالنا وملامحنا ومنحوتاتنا ولوحاتنا وأغانينا أفضل من سابق عهـدنا بها، ومن باقي أعضائـنا التي نمتلكـها قبل خمس دقائق، أو ثلاثة آلاف سنة. أجل لا أعرف كيف، وإنما سنرى شخصاً ما نعرفه في المكعب، وبحدرـنا التّعرّف عليه أكثر. أنتـ، يادكتور، فالـمكعب كان قد أنجزـ من "مواد محلّيـة صـرف" في رأسـيـ. كانتـ تناـكـدنـي دائمـاً وهي ترددـ أمـاميـ وورـائيـ:

أنتَ تلعب بالموادَ جميعها كأيِّ فنانٍ لديه نظرية يريد تطبيقها. تزيد عمل فراندات خشبية معلقة فوق دجلة مشابهة لتلك الموجودة في رأسك. تصميمكَ للمكعب ببطوابق ثلاثة. والجدران تريدها أن تحمل منحوتات من أعمال الأصدقاء، الفنانين شاكر حسن آل سعيد، وضياء العرّاوي ورافع الناصري وعلي طالب .. ومن المعماريين، إذا لم تخنِي الذاكرة من الأصدقاء الذين أخبروكَ أنهم سيحضرون مشياً من شارع أبو نواس: إحسان فتحي ها، وغيرهم من الأصحاب الفرنسيين ومهندسي الكهرباء. قال لكَ وليد الجادر سيفديكَ تلك {البستوكة} التي ظللت عينكَ عليها، فعمرها من

عمر جَدِّتكَ لوالدكَ. من المؤكّد ستحضر صديقتنا المهندسة المعمارية
وجдан نعمان ماهر، وبيدها، ربّما، مخطّطات لمشاريع لا تُحصى ولا تُعدّ ..

كانت تُعدّ الأسماء جميعها، وتنسى اسم الدكتور الخرافي القبرصي
فالينتينوس الذي وعدني بقطعة من السيراميك ..

إذاً، ستحضر، دكتور، وسندعلكَ تذوّقَ عرق قازان، وسننشوي
الأسماك، شو عبالك عزيزي، بمقدورنا أن نطبخ لسرية عسكرية، وندع
الموسيقى تُلْعِلُّ، والتَّجلِّي على آخره .. وبغداد، يتيمة، كلا، عمّاء، لا
ترى إلا بغضها وتحفها ... أنا أتحدّث عن زمَّئين وثلاثة وتدخلها معاً،
أقبال المخفي من أعمال المكعب، وعفاف تُحضر أوراقاً غير مرئية في
رأسها، وهي على وشك السفر، وكان ذلك في العام 1979 وأنا أصرخ
في البرّة وأناديها أن توقف: كيف ستهاجر وتترك لقيتها الأثيرة لديها؟
وهي تردد:

أستاذ، أنا مادّة خام موجودة، وأتحرّك ما بين هنا وهناك، الأرض
والسماء. نحن الآن في العام 1973، وفي هذه اللحظة الراهنة وال الحرب
بين العرب والدولة العبرية بدأت، هيا، تفضل، أرجوك، سيتّم الرسم
التخطيطي على موادي الخام كلها، وموادرك التي تستعمل وإلى ما لا
نهاية، وكأننا نحن موادّ الحرب، الحروب جميعاً. لا تشاهد يونس وهو
يحضر من سدة الهندية، وكلّما رأانا معّاً أو منفردّين زادت وحشته عنّي
وعنّا. يرى سالم المكعب على الورق، وكأنه حضر من كوكب آخر، وطرّب
تنزل درجات إلى مسناية النهر، وهي مازالت وسط ذاك الدخان والموت
كلّيّهما تزيد مَنْ يحدّثها عن جمالها وفتنتها حتّى يفقد توازنه .. أليس هذا
غريباً، يا أستاذ؟ طرب تحفة وحدها، وقدر وضعها في صدر المكعب
.. ها ها .. صديقتي نعم، ومن الخير أن تكون بدوني، أن تبقى بدوني.

لا تنسَ، أستاذ معاذ، أن توصي أصحابك بالفخاريات، لكي تبقى المشاهد تعاقب في رأسي ورأسك، وأنا أرى ”فخار طارق إبراهيم وبعد مسافة قريبة منه سيواجهكم تمثال خشبي لخليل الورد، وأخر لمحمد غني حكمت. ومن الجائز يonus سوف يقوم بفتح رأس لطرب، آه، وذلك الذي أتخيل صحكته ^{الثانية}، وأنتم رسمها؛ إسماعيل فتح الترك، دعني أُكمل، فأنا أعرف جل أصدقائك، وهم أساتذتنا. أظنّ سوف تهديك طرب المرأة خارقة الجمال لنهاي الراضي، ومن الجائز أنك أول ما ستدخل المجاز سُبُّصرووجهك في تلك المرأة.. سيحمل صميم ”ركيّة“ تفلعت من متصرفها، وظهرت بطنها الحمراء الشهية جداً، وأنت، يا عزيزي الدكتور كارل، تضع قدماك على عتبة المكعب، وكلنا جميعاً بانتظارك، ستري ”الركيّة“، وأنا أهمس لك بصوت خفيض:

هذه الفاكهة ^{تُسمى} في فرنسا بطيخاً أحمر، وما إن تبدأ بتسمم، وقبل أن أُكمل أسمع صوت عفاف، نعم، هكذا، وهو يتوزع علينا جميعاً: تذوق هذا الطعم جيداً. فمهما بحثت عن مثيل له، فلن تتعثر عليه أبداً.

تراكيب الجمال

من الجائز أن يكون خطابي إليك بعده طوابق، هيّا، ابتسم كما أتصور، وهناك الحديقة الداخلية .. ليس لدينا أنا وعفاف ما نستقرّ عليه في الوقت الحاضر. هل هو شذرات من مشتقات الحبّ والبارود بسبب الحرب؟ أم من وجيب القلب المجنون وطاعة المحبوب؟ هل هو المكان الذي حلمنا به نحن الثلاثة: طرب وعفاف وصميم، لكي يكون عاصمة التشكيل والفنّ والمحبّين والعمارة والفنانين والمجانين وشبة المجانين، الشعراة الذين يكددون ويعترضون ويبيرون في الظلّ ويمشون وحدهم، فنجلب إليهم وإلينا العنبر والتبن التمر والخمرة واللغة المحكية البيضاء وحبر الرسّامين العراقيّين وحملة الليل الطويل، وصيفاً من تراكيب النحل والطيور والأطفال وخلاصات الموتى .. قلتُ لعفاف في أحد الأيام:

صميم يريد بناء يشبه طرباً. نحن نتشابه أنت وأنا، فلا نستسيغ مرجعيات العشاق في الأندلس أو الهند أو الصين أو بغداد في عصورها الذّهبية .. اسمعي، لا تظنين أن المرأة تتلذّذ بأعباء الصيد ومهامه أكثر من الرجل؟ تسعد بالملحقة وبشيء من التعذيب، لكنها لا تفضل إراقة الدماء مثله؛ فنحن لا نزال نلاحق الضواري كالوحوش.

أنتَ حكيم، لم تَ طرب، فهي تمتلك جمل الاسترخاء جميعها في اللغات العالمية. استرخاء الدماء ومطواعية اللحم الذي يفصح كما تشاء، فيلحق بها صميم، ولا يرتوي. منحوتاتها الجدارية جميعها مغوية، وهي

شاحصة على جدار، فتضع فيها مقاطع من نشيد الأشاد، ونوتة من نوتاب ابن حزم، وبعض أبيات من ديك الجن وأبى نواس، فتطلق العنان لمخيلتها العنيفة. أول ما شاهدت يونس، فكّرت، أنه سيغفر بها في أحد الأيام، والمفترض أنه أُغفر بعفاف، أو العكس. لم نعرف. ولا ندري هل أخبرتك عنه؟ فنحن نظنّ أنه مات في وقت مبكر، أعني الحبّ، كذلك ياسيـن .. أنا أعتقد أن الرجال الذين تعرّفت وأغرمت بهم حاولوا تحطيم إرادتها بالدرجة الأولى، وتخصّصوا، ربما بعلمهم أو دونه في أدبيـاـها، وبالتالي في اهتزاز شخصيتها.

أين عفاف، دكتور؟ الآن، الوقت صار قليلاً ونحن جميعاً أسوأ حالاً من ذي قبل، فندعوك ونعرف أن الوقت يفرّ من الموت هو الآخر، وليس في أيديـنا إلا ذلك المكعب الذي ندعوك إليه، لكي تجوب معنا الشوارع بحثاً عنها، فربما عادت دون علمـنا وعلـمـكـ. عادـت لـكي تستقبلـكـ معـناـ، وـتـكونـ مـلـزـمةـ باـسـتـقـبـالـكـ كـواـجـبـ الصـيـافـةـ، هـيـ وـمـنـ بـقـيـ منـ أـفـرـادـ عـائـلـهـاـ.. لـمـ نـفـكـرـ بـهـذـاـ الـاحـتمـالـ، دـكتـورـ، فـصـمـتـهـاـ رـبـماـ هـوـ الإـيـغالـ فـيـ وجـودـهـاـ، وـأـنـ هـذـاـ التـوـارـيـ يـنـاسـبـهـاـ .. مـاـ رـأـيـكـ؟ نـحـنـ نـتـأـكـلـ يـوـمـيـاـ بـالـبـحـثـ عـنـهـاـ، وـلـاـ جـوـابـ مـنـ طـرـفـكـ .. وـأـنـ أـرـيدـ إـغـرـاءـكـ بـالـبـنـاءـ الـعـجـيبـ الـذـيـ أـسـقـطـ الـمـفـاهـيمـ الـمـسـلـمـ بـهـاـ، مـثـلاـ، عـنـ: الـحـجـرـاتـ الـمـنـزـلـيةـ، الـأـسـكـالـ الـوـطـنـيـةـ لـبـيـوـتـ الـعـائـلـةـ وـبـيـتـ الزـوـجـيـةـ {ـالـكـلـيـشـيـةـ}ـ الـذـيـ كـانـ يـذـكـرـنـاـ بـرـبـ الـعـائـلـةـ وـقـدـ فـرـقـ شـعـرـهـ مـنـ النـصـفـ ... عـلـيـكـ أـنـ تـصـوـرـ مـاـذـاـ حدـثـ، دـكتـورـ؟ فـعـضـ أـقـطـابـ الـحـزـبـ الـحـاـكـمـ فـيـ تـلـكـ الـأـعـوـامـ، مـنـتـصـفـ السـبـعينـيـاتـ، قـالـ وـبـدـونـ مـوـارـيـةـ وـبـالـحـرـفـ:

إـمـاـ أـنـ تـبـنـيـ لـنـاـ وـاحـدـاـ مـثـلـهـ، أـوـ تـدـعـهـ لـنـاـ.

لـمـ نـكـ نـرـىـ الدـمـ وـالـعـنـفـ، هـلـ هـوـ أـمـرـ بـهـ بـعـضـ الـعـزـاءـ لـلـبـعـضـ؟ أـمـ

كان به شبه من الإهمال، وفي بعض الأحيان، الاحتقار أفضل من التهديد الذي كان يواجهنا في الكثير من مظاهر الحياة الثقافية والفنية في نوعيات من التراكيب تُدخلنا في المهانة .. سُنُدون لك عن كل فرد من هذه العائلة، وفي الطريق، ها نحن نستخدم أنفسنا في الإفصاح عن ذلك الخصوص السابق واللاحق، فعفاف أفضل منا .. لا أحسدها، دكتور، إنما تلك الأجهزة، ومن الأنواع جميعها لم تتصر عليها، ولا على مَنْ بقي من عائلتها. في تلك السنين، بدءاً من نهاية 1973 وإلى ساعة الظهيرة، وأنا أكتب لك، واليوم يصادف الأول من أكتوبر للعام 2011 وهي عندكم. أنت ضغْ ماكينة الحساب في حاسوبك، سيدي واحسب كم عدد الأعوام، أنا لم أقوَ على ذلك، ولا واحد منا جرؤ على فعل ذلك. كانت الرياضيات التي شغفنا بها في كلية الهندسة، وفي قياسات الخرائط قد تحولت إلى جثث وقبور ومشيّعين ومُعرّين ومعسّرات من حِداد لم يُفْضِ حتى الساعة. بقيت تسأل عن مراحل البناء حين يكون المزاج رائقاً، فتقول لطرب في الهاتف:

من الجائز أن الأستاذ معاذ يريد أمراً، لا يُنجز، فإما أن يُكمل بناءه، وإنما فهو يلعب. تماماً، هذا المعماري موت على اللعب واللعب وتدمير الطُّرز التي لا تعجبه من عمارة هذه المدينة، مدینتكم التي لا توافق أمزجة مرجعيات الكثرين، وربما مراجنا أنا وأنت أيضاً، فَمَنْ يدري؟ قولي له هذا لكي نغيظه .. أو مارأيك أن تقوم بتحطيمه حال الانتهاء من البناء؟ .. كانت تُطلق ضحكاً هستيرياً، وهي تقوم بإغلاق الهاتف قبل أن تجيبها طرب ..

كما ترى، دكتور، عفاف حاضرة بينما أكثر من الذين نخاطبهم يومياً، ويدورون حولنا، ولا ندرى مَنْ بمقدوره أن يمسك بروحها المعدّبة غيرك .. فهل أصغيت إليها مثلنا وهي تأفّف بطريقة مريرة:

”الذى يسعده ويشبه الاستماع لموزارت، لا يستطيع الاستماع بالأذن نفسها للحِمَاقَاتِ التي تُعْنِي في الإِذَاعَاتِ، والذى يتمتّع حَقّاً بلوحة لِتِيرِنر أو دوستال لا يتوقف أمام أشكال شائهة تحمل الوباء، الذي يحبّ هذه النماذج التي ذكرُتها، ويجد مفهومه الجمالي متعة فيها، يشكل حياته بأكملها بشكل مختلف تمام الاختلاف عن الشكل السائد. أستاذ معاذ، ألا تذكر مقوله أرسطيو في الفن الذي يرى أنه يشبه الجسم الإنساني، فلا هيكل عظمي وحده، ولا شرائين وحدها، وإنما يجب أن يكون جاماً كل شيء، ويدلّ على كماله الخاص المتفرد، كما أعمال ديستوفيسكي وشكسبير، وغيرها .. هو سر الإقناع بشكّ هاملت، وغيره عظيل وقتله امرأته، كما سيقتل في أحد الأيام صميم امرأته طرب”. لم تفارق كلمات عفاف رأسي، دكتور، ولا فارقتها كتب الفلسفة القديمة قبل سقراط وبعده، وحين كانت ترى يونس أمامها، ونحن نقف أو تتمشّي في تلك الأرض المنويّ البناء فوقها، يكون مهندماً ونظيفاً، فتبدأ تضحك، ثمّ تسكت كأنها تكلّم ميتاً:

”لا نستحمّ في نهر مَرَبَّين“

وتواصل نكدها، فهي ساخرة من طراز مزعج:

أجل، وأنتَ كم مرّة تستحمّ، يا يونس؟ في الشهر أو العام، وأنتَ الذي قلتَ لي في أحد الأيام: إن قَدَرَكَ هو الماء. يعني أنتَ مثلِي تماماً. كلام رائحتك: ”فالكائن الذي قَدَرَه الماء كائن دائم، فهو يموت كل لحظة، ومن دون توقف، يسيل شيء ما من مادته. إنَّ موت الماء أكثر حلمية من موت التراب، لأنهائي هو عذاب الماء، فأصحابه يcabدون اكتئاباً خاصاً كلون رامة في غابة رطبة. اكتئاب من دون ضيق، حالم، بطيء، هادي“.

عفاف، دكتور، كانت لا تبحث عن طالعها في يقين العقارب والحيتان والسرطانات، في ظني كانت تشجه نحو جماليات الماء في حالاته جميعها. فقدّم جدّتها، بببي فاطمة كائنة مائة طلعت من الماء جنّية، وسوف تنتهي إليه في أحد الأيام، هكذا، كانت تراودها بعض الأفكار، ثمّ تنكمش، وهي تتوصّل إليها بخوف، فحدسها كان مخيّفاً.

ابتكارات خصوصية

قلتُ لها في أحد الأيام، وقد صار سفرها يقف فوق رؤوسنا:

سأبني مكاناً يشبهكِ، يشبه النساء جميعهنّ، ونعيش فيه ولو عاماً واحداً، أو عقداً أو ساعة. دعيه يتبلور ويتحمّر في رؤوسنا معاً، كما نشتته جميعاً .. ها، ما رأيكِ؟ لماذا السفر بهذه السرعة؟ انتظري قليلاً.

آه، صحيح، دكتور، كما يصفني صاحبِي صميم، إنني أشغف بالنساء وحركات اليسار العالمي. ربما، المرأة لا تتحقق السعادة، لكنها تتذكر طرقاً شتّى في الوصول إليها، وأنا في حالة مرض، ليس بالمعنى العيادي، دكتور، وهي ترجعني رجّاً، فيقطع صوتي، فأعود إلى خرائط المكعب، ويفسيقني ويزعجني صميم صراحة، وأنا أراه متروكاً ومهجوراً أمامي، وأمام طرب، وقد تحول إلى فحمة. فالحب في تلك البقعة من الصليخ الجوانبي. يتناغم مع عقوق وشطط النساء اللاتي لا نزال نجهل منطق أجسادهنّ وعواطفهنّ، وأجسادنا ومشاعرنا بالدرجة الأولى. عفاف لا تظهر إعجابها بضميم علانية. يُستحسن هنا أن لا نُسيء الظنّ كثيراً. من الجائز أنْ صميمًا يُجسد لها ضمير الغائب الذي تقدر أن تشير إليه ببعض الألفاظ، وتكرر العبارات التي يُفضلُها، فهي تُلم بمعجمها، وهي تجلس أمامه، ونحن نلعب الكونكان، ولا تُفسد عليه شروط اللعبة، واللعب بصورة عامة. عفاف مولعة بالمبالفة، ولا تنتظر موافقتك، لكي تبدأ بالأسئلة، تُشمر عن كُمْ كرتها الصوفية أو القطنية، وترفعها إلى أعلى، ولا تنظر في الورق الذي أمامها. ترى صميم

الذى يعرف تماماً ما تفّكر به، فهو يهجس بما يجول في رأسها، يرمي ورقة في وسط الطاولة، ويسأّل:

تهاجمكِ الفكرة ذاتها، يا عزيزتي، أليس كذلك؟

تدفع بجسمها إلى وراء، وتُنسد ظهرها بالمقعد، وتُنفت دخان سيجارتها إلى أعلى:

ما العمل، يا صميم؟ ها، يموت المرء وهو لم يفعل شيئاً يُذكر .. وأتمن جميعاً أصحابي وأهلي بأسرارنا الصغيرة جميعها، والنسمة بيني وطرب عنّا وعنكم، و.. هل يُعقل أن يكون الأمر صحيحًا؟ عال، أين سأذهب بعد ذلك؟ والعالم لن يوجد أبداً ..

صمتت فجأة، ورفعت كأس ال威士كي، وأفرغته تمامًا، بقي بيدها وهي تنظر إلى قاعه، وتتردد بصوت بعيد:

”أستاذ معاذ، ما أبشع الذي يحيا ولا يسكنه هاجس الموت دائمًا.

رفعت رأسها، ونظرت إلينا جميعاً، ثم أطلقت ضحكة هستيرية: هناك بالتأكيد من يسخر منا .. كلا .. كلا .. أنا لا أوفق على هذا التعبير المتعجرف .. لنقل هناك من يتعمّد المزاح معنا .. يجب أن تكون ظفراً، نحن أيضاً.

قامت من أمامنا وبيدها القدح، وضعته جانبًا، وصار ظهرها لنا:

”من يدرى؟ لعلّ الأمر هو كما يقول الشاعر الصينيّ {الفراشة/الإنسان} عبارة عن حُلم آخر“ .. كانت تمشي بهدوء صوب الباب في طريقها إلى بيتها.

صميم كان يفهم جيداً مناجاتها روحها، فهما، في كثير من الأحيان، يتقابلان في حوارات فلسفية وفكرة لا تنتهي، وما إن يصل إلى عنوان سياسي حتى تفرغ وتزدّ عليه:

السياسة تفتح قبوراً و..

وما إن تختفي عن أنظارنا، فنرى وجه طرب وقد اكفهّر، وهي ترفع رأسها بعد أن تضع أوراق اللعب جانباً، وتنهّد:

كأنها تُفضل الموت، كي لا يعاودها الصداع الشديد والنوم القليل. لا .. كانت تقول، هي لا تسام إلا نادراً.

كان صميم يضيف وهو ينفث دخاناً كثيفاً:

على علمنا، تناولت الأقراص المنومة وهي صبية، خالتها فتحية أخبرتني. وكان طبيب العائلة الكائن في رأس الحواش "زكي أمين" يكتب لها نوعاً من الحبوب ذات النسبة القليلة من المخدرات، وهي ما زالت في الثانوية حتى تركتنا.

تدخلت طرب وهي تضيف:

في السنة الأولى في ثانوية الحريري كانت تُفضل لو تختفي، تقول، الحبوب يجعلها تبدو أقل وأضأل من قبل. فتصير شبه متوجّحة لا تعرف المجاملات، ونفوره. تبدأ وبالتدريج تنفر من المحادثة مع الغير، الطالبات الجديdas والمعلمات اللاتي يمتدحن ذكاءها، لكنها لا تهتم. ثم صارت تقطع الحديث عند منتصفه، ولا تُكلمه، وتتجاهل آداب المحادثة، وتتواري. لا تعود تهتم بالادلاء بأية إيضاحات نافعة أو مرتقبة عنها أو أسرتها أو دروسها، إلى أن قدمت أنا، وتسجلت في الثانوية، وتحولنا إلى صديقات.

عزيزي الدكتور،

سامحني من هلوساتي أنا أيضاً، فقد توصلت في أحد الأيام وهي ما زالت طالبة في كلية الهندسة، ربما، لن تصدق ما أقوله، لكنني سأعيد ما شعرت به وهي طالبة متفوقة، بأن هذه الشابة الجذابة كانت تريد أن تفرغ من شبابها ويسرعاً، فلعل النوم يعاودُها فيما إذا فقدت سنين من حياتها. ما هذا الجنون، دكتور؟ كان صميم يُخبرني فيما إذا ذكر اسم المكعب أمامها، أن ساحتها تفكّك، وعُقد جبينها وبين عينيها تحمل، وبعد أن تهدأ تقول:

هيّا، اتصل بالأستاذ، أنا حاضرة للذهاب والتحقق من الأرض المختارة التي وقع عليها الاختيار.

أجل، دكتور، في البداية، كانت تفزع أن يكون المكعب مجرد مساحة ذهنية من الخيال، وما نحن، المعمار والرسام والتحات والكاتب إلا فريق مراقبة. تقوم بمسح الأفق واختراع علامات جديدة انطلاقاً من الشراكة بيننا وبين المدينة. كانت بقعة الأرض حقيقة، وأنا أذهب يومياً لزيارتها وتأملها، وأحاول الانتقال إلى الجهة الصحيحة مما يدور في رؤوس عفاف وصميم وطرب وباقى أصدقائي. كل بقعة في هذا الحي أو الشارع أو المدينة كانت لها طبيعة جذرية، وهي تطرح علينا ألواناً من الأسئلة: فالعمارة "باعتبارها حدّاً - وهذا ما كان يشغلني حقّاً - أن يكون ذلك بالوقوف دائمًا على هذه الحافة الغامضة للمعرفة أو اللامعرفة. أظنّ هذه هي حقّاً مغامرة العمارة". اللعنة على عفاف في كل لحظة. هي الوحيدة التي تقوم بضيّ الزيت في حلقي وأليافي المتهدورة بالتأملات في غياب صميم بالدرجة الأولى وطرب، فلها قدرة على برمجة ما يدور في رأسي بصورة خفية، فتنطلق الأفكار، وتعارضني، هذا صحيح، وتشاجر أكثر مما كانت تشاجر مع صميم،

وهي تتحقق عندما تريح طرب في الكونكان نكأة في صميم الدكتور أمام الطاولة. اسم المكعّب، نعم، كان اختراعي الخصوصي، ولمّا أطلقته أمام صميم صالح فرحاً:

آه، هذا سيكون مكاناً يشبه الصندوق الأسود وهو يصلح أن تُخبئ به الأسرار، وربما الجرائم، لم لا؟ .. بدماء غزيرة، أو بدون إراقة قطرة دم واحدة ..

توهّج وجهي، وتورّد خدّاي:

كل شيء يخطر بيالكَ، أيّها الكاتب البوليسي. اتبه، لا أحد يعرف بالمشروع إلا نحن فقط، وهذا هو كما تقول، أول الأسرار:

ستسيل الأفكار والتكتوبات، وينكشف السرّ أماناً. هذه استراتيجية كما يقول أستاذ النحت لانفجار الطبقات من حولنا، أمّا ما نستطيع تحويله أو تراكمه من نقاط لقاء أو الفراق، فسوف نعثر عليه في أثناء بناء المكعّب. هكذا أجبت طرب.

<https://jadidpdf.com>

**الفصل الثالث
استشارات قانونية
العمّ مختار**

<https://jadidpdf.com>

أهو ده اللي صار

كان صميم يردد على مسامعي:

أنت، يا أستاذ مختار، شخصية روائية، وأنا أحب جداً أن أقابلك على الصفحات التي أعمل عليها. أرجوك، لا تغضب مني فيما إذا جعلتُك تُعَرِّرُ بعض النساء والفتيات، وتعمل بعض الأعمال المُخلة بالأداب العامة. أنت رجل مُغرٍ للكتابة. إي نعم. محام، سُكّير، ضجر، مُسْنَ غير هياب من أصحاب اللّحن الصبيان الفاسدين، أبناء حِرَاس البيوت السابقين، وسائلـي سيارات ملّاك القصور والفيلات الفارهة التي تم التلاعـب بها من الجوانب جميعها، فصارت تشبه بيوت الشّحـاذين. ها، ما رأيك؟ .. هل تسمح بذلك؟

هل أسمح، دكتور فالينو، بالتلاعـب بي؟ أم أدع الأمر لك، لكي تتلاعـب بي، فيما إذا حضرت فعلاً، ولبيـت دعوتنا؟ على الخصوص، للإقامة في - مكـعـب - معاذ الألوسي، ربما هو الشـيء الوحـيد، أو المسمـوح لنا باختلاـس النـظر إلـيه قبل أن يصلـه الاحتقار الذي نـزاه في عـيون وـقـسـمات الـوجـوه التـي نـلقـاـها أـمامـنا وـمـنـ حـولـنـا، فيـدـكـ على رـؤـوسـنـا فيـ أحـدـ الـأـيـامـ قـبـلـ أنـ تـزـورـهـ. هوـ الـآنـ محـرـوسـ، وكـفـى .. تـأـكـدـ منـ ذـلـكـ، فلاـ تـكـثـرـ منـ أـسـئـلـتكـ حـولـهـ. دـعـنـاـ نـعـودـ إـلـيـكـ، أـنـاـ دـفـعـتـ دـفـعاـ إـلـيـكـ، ياـ دـكـتوـرـ. نـعـمـ، قـمـتـ بـخـطـوـاتـ لـاستـقـبـالـكـ عـلـىـ أـكـمـلـ صـورـةـ: غـيـرـتـ ثـيـابـيـ، وـتـهـنـدـمـتـ، وـتـعـطـرـتـ بـعـطـرـ قـدـيمـ، مـازـالـ يـحـلـ بـعـضـ الـعـبـقـ الـذـاـبـلـ مـنـذـ سـنـيـنـ سـابـقـةـ. أـعـجـبـنـيـ حـالـيـ

وأنا أنتظرك. أحببْتُ أن يكون أحد هناك، في مكان ما من هذه الكرة العجيبة لا يعرفك أنتَ، لكنه ينتظرك، ومن الجائز تنتظره، فابتنتنا كانت تحت وصايتها ورعايتها، أو حمايتها، أليس هذا ما يقال في أدبياتكم، دكتور؟ أنا لا أفهم لماذا حصل لها وهي هناك؟ دعني أعود وأكمل حفل الاحتفاء باستقبالك. ها، تبسم، ندعك تبسم وتقهقه قليلاً، وأنا أقوم بذلك بالفعل الآن، وأحضر ثيابي، على الخصوص سروالي. تأكّدتُ من الإيزريم أنه يعمل بصورة مضبوطة، لا كما في كل مَرَّة أدعه مفتوحاً، وأنا لألاحظ هلال وعفاف، ونحن على سفرة الطعام وهما يغصان بالضحك المكتوم، ويبعدان رأسَيهما عنّي، والوالدة تخزني قائلة:

أي، شلون ويَاك؟! ... كل يوم تنساه مفتوح، وإيدك تبقى تلعب هناك!... هي والجميع يتصرّرون أَنّي أفعل ذلك عامداً متعمّداً، والحقيقة، أَنّي أنس، ولو كان بيدي، لتركّتُ حالي بالفانيلا ولباسي الداخلي، والكلام بيننا، أنتَ وأنا كرجال، وفي سنّ متقدّمة، لو مشينا عراة في أنحاء البيت، أليس هذا أمراً مريحاً، أشد راحة من لاستيك البيجاما الذي يحرّ على بطني، فيدعني أهرب بطني وخاضرتني، ولا أكتفي بذلك من فوق الثياب، بل أرفع جاكيت البيجاما إلى أعلى، وأبدأ الحَلَّ بأظافري؟ لا تتصوّر تلك اللَّذَّة، دكتور، ألم تجرب ذلك؟ غير معقول، لا أصدق ذلك ... ما علينا. تأكّدتُ واخترتُ السروال النيلي الغامق المصنوع من قماش الكبردين. صحيح هو قديم، وصار كالحَلَّ، لكنه يدعّي أعضائي مستتبّة في مكانها، ومرتاحه جدّاً وهي تتحرّك وتهدأ، فلا يضايقها حرّ الخياطة الحديثة كما أراها في بعض الأحيان في سراويل معاذ وصميم. لا أخفِيك، دكتور، وأنا أزيح الثياب، لكي أسحب هذا السروال، كنتُ أسمع أنيناً يطلع من نسيج الملابس، ومن خشب الخزانة. من الجائز أن الثياب تئنّ مع بعضها، كما نفعل نحن البشر عندما نترك أحداً، أو نفقدنه نهائياً. هل تصدق،

دكتور، كان الآتين يجعلنا سعداء بعض الشيء. لم نكن نقول كفى، وكان تلك الأصوات التي يتناقلها الهواء بين الغرف هي التي تلم شملنا تحت سقف واحد. أظنّ كلنا كنّا تتوجّع، فنحن لا نعرف متى يبدأ الوجع؟ متى بدأ؟ وبدون اتفاق كنّا تتبادل الأدوار. الآن وأنا أكتب إليك أعتقد جازماً، أن الأوجاع كانت تتطلّب من المرء أن يكون ذا صحة جيّدة .. نعم، كنّا أحيا وأصحابه وأمواتاً معاً.

طبعاً لمعتْ حذائي، واخترتُ ذاك الذي يدع ظهري مستقيماً، أو هكذا أتمّي، فعلى مـ الأربع، بدأ الظّهر بالانحناء، بسبب عاملين، الأول طبيعى، والثانى بسبب الذلّ. نعود لقيافتي، فأنا كنتُ رجلاً مترفاً جدّاً، ربماً أخبرتكَ عفاف عن ذلك. وها أنا أريد أن أبدو بصورة مناسبة أمامكَ. كويتْ ياقفة قميصي المكرمشة بعدما اخترتُ ذاك الأزرق الفاهي الذي تفضّله عفاف. ألا ترى كم عدد المـرات التي نجلب اسمها ونضعه في أول لساننا، كما أجلب من أقصى الخزانة الحمالات بلونيها الرصاصيّ والأسود، شغل الإنكليز؟ كنتُ أضعهما بصورة صحيحة، لكنني بسبب اهتزاز يدي اليسرى، كان أحدهما يبقى نازلاً، والآخر مرفوعاً، هلال في بعض الأحيان يقول:

عمّو، هذه الموضة في لندن .. ويبيسم.

أول ما وصلنا شارع التانكي سجله أخي في كلية بغداد، وكان هلال في عامه السابع عشر. أذكر بعد ذلك ما حصل في صيف العام 1968. اقتصى الحال تغطية رؤوس أولئك الفاذرية اليسوعيين بغية إهانتهم. بدأتِ التظاهرات توافد إلى كلية بغداد، تطالب بتعريفها وطرد الآباء، مما سبّب بعض الإرباك للطلبة وأولياء أمورهم حول مستقبل تلك المدرسة العريقة. في نهاية العام الدراسي وفي صيف 1969 صدر قرار بتعريف الكلية، وتم

طرد الأساتذة الأميركيان، والذين سبق أن دُفِنَ أربعة منهم داخل حدائقها؛ مما سبب صدمة لهم، قابلها العديد بالبكاء، ثم الرحيل إلى بيروت لتكلمه البرامج في الجامعة الأمريكية داخل الأتناشيوナル كوليج. كان حزن الطلبة وأولياء أمورهم شديداً. بعد ذلك تم إلحاق كلية بغداد بالجامعة المستنصرية، وجعلها مؤسسة مستقلة.

كل ما لدى، دكتور، قديم. أنا قديم وأنغّنى بشهوانية وجاذبية قدّمي، فها أنا أبصر حالي واقفاً أمام المرأة: رجل حيّ، فريد في نوعه. نعم، كلنا هكذا. هم لم يكفوا عن الطواف حولنا وتهديدنـا. أنا شخصياً توصلت إلى حيلة ساذجة؛ فضّلت أن أكون قديماً، هكذا، باللامبالاة والتجاهل بدلاً من الحسرة، فبدأت بجانب الخمرة أدخن الغليون الذي لم أكن جرّيته من قبل، هكذا، للإثارة والمضايقة. نعم، أنا حيّ أرزق، بسبب أعوامي الكثيرة جداً، لكنني لن أبوح بها أمامكـ. لا معنى للأرقام:

تفاهة .. تفاهة ..

كما كانت تسمعنا إياها، هذه اللازمة، عفاف. ترى هل وصفت بها فلاناً أم فلانة من أفراد عائلتها وأصدقائها؟ هي لم تبغض أحداً، على العكس، هي لم تحبّ نفسها ما فيه الكفاية. لم تتبهج بها، أعني لم تقبلها. أظنّ لم تدقّ أو تعرف ما هي السعادة. صميم قال، اكتب للدكتور .. وهذه مهمة شاقة جداً علىـ، فنحنـ، هي وأناـ، نمتلك موهبة الشقاءـ. نعمـ، دكتورـ، بعد أن سافرتـ وسمعناـ عن حالتهاـ، لم نفهمـ ما بها حتىـ الساعـةـ، خمنـتـ، أن بعضـ البشرـ، أناـ واحدـ منهمـ، وربـماـ هيـ أيضاـ، تفضـلـ البقاءـ فيـ ذلكـ الجانبـ الشـقيـ منـ الحياةـ. فيـ ماـ يـخصـنيـ، لدىـ أسبـابـ كـثـيرـةـ؛ تأـتأـةـ لـسـانـيـ المـزـمنـةـ، وـاهـتزـازـ كـفـيـ الـيسـرىـ، وـحوـلـ عـيـنـيـ الـيـمنـيـ الـذـيـ كانـ يـسـتهـويـ عـفـافـ كـثـيرـاـ، فـهـيـ وـرـثـتـ بـعـضـهـ، وـالـمـقـالـبـ الـتـيـ كـانـ تـدـبـرـهاـ ليـ

هي وهلال .. لكنني أحبُّهما، ولم أغضب يوماً من أيّ واحد منهمما. هذه العوارض جمِيعها جعلتني خجولاً أمام الجميع، بمنْ فيهم بعض أصدقاء الجرداع الذين يقومون برفع الكأس عالياً مرددين:

يلا عضيدنا الورد، كعب أبيض، في صحة منتصف الليل ومنتصف العمر ومنتصف الوطن .. هههههه.

كانت ربيعة العَرق العراقي الثقيل موضوعة في جيبي الخلفي، جلبها لي معاذ من أوربا، حيث يعيش. قطعة فنية من الفضة ذات غطاء مكبوس أسود، يحفظ الخمرة، لكي لا يفسدها الهواء، فكانت تترقق لجيبي بهدوء، فلا تسبّب لي أيّ حرج، وأنا أسير من الجرداع إلى بيتنا الكائن في شارع التانكي، وبالعكس. الطريق لم يعد ذاك الذي كنّا نعرفه من قبل، فقد كنتُ أكرع من فم القنينة، وأهتف بصوت شبه ساخر:

في صحة زوجاتي التافهات وعاهراتي اللطيفات.

كانت صحة شارع التانكي في أدنى حالاتها، وأنا أدوس وأتعثر بعشرات الحفر، وأغوص بال المياه الراكدة في سوادي تننة. قوالب من الكونكريت التي كانت تقطع بيوتاً عن بيوت، وشارعاً عن شارع، فصارت القوالب من السّكّان الأصليّين للحى. كنتُ أتشوّق لو شاهدت عفاف هذا كله لبحث عن اسم مناسب له، فما يطلق عليه لا يفي بالغرض. أين كنتَ، دكتور، حين دخل التازيون باريس؟ هل ظهرتَ أنتَ في إحدى الصور وقتذالك؟ هل كنتَ في المقاومة؟ مَنْ قادتها؟ هل قمتَ بعلاج الجرحى ودفن الموتى؟ هل أطبقتَ أجنان أولئك الذين كانوا على وشك .. أو الناجين ..؟ ترى هل كان هناك ناجون؟ كانت الجثث في تصاوير تبدو في غاية الوداعة، كانوا يموتون بصورة متقدمة، وبينالون وجبات من الرصاص والبشاشة والإذلال

.. الجميع كان يناديني بـ "العم" ، ويدون أن يعرفوا اسمي. السنون تتوالى وأنا أشاهد تفكيك المدينة وانسحاق العائلة، عوائل من الشباب إلى المستين، ونحن هنا، دكتور، نقضي وقتاً طويلاً، أعني عمراً تاماً في الريبة بنا، لكنني لم أهتم كثيراً. فأنا أعرف أنهم لا يفضلون الصور، تصاويرنا، ولا جوهنا، ولا ثيابنا. آه، ولا سكرنا. بالحقيقة، سكري أنا الذي أبرع به بعدهما تضاعف، ومنذ العام 2003 وإلى هذا اليوم، ونحن في العام 2011، وأنا أتبادل النظارات مع العيون والوجوه التي لم نرها من قبل. جاءت واحتلت هذا الشارع. قلتُ لصميم في أحد الأيام ضاحكاً:

ألا ترى، يا عزيزي، أنهم صعبوا الحياة عليهم بالدرجة الأولى. فصرنا الموضوع الدائم لهم، فوقعوا تحت تهديدنا.

الخمرة وأخواتها

صحيح كنّا أحياء وأمواتاً، ولا تقدر أن تفرق بين الحالتين، لكننا كنّا نجد في هذا مساواة لنا، وفيما بيننا، وليس معهم. نعم، العام 2003، لم نعثر له على نعت أو جنس في الخفاء أو العلن. أمّا تلك السنة، فأنا شخصياً نحيتها جانباً، لم أنكرها، ولا أهملتها. ففي مكتب المحامية الذي كنتُ أذهب إليه في الأسبوع مرّتين، كنتُ أحافظ على فضائل بعض الحشيات، وأنا أكتب في الكراسة التي اشتريتها من مكتبة الصباح الكائنة في شارع عمر بن عبد العزيز، ووضعتها تحت إبطي، لكي لا تقع من بين يديّ: أمسك بيدي اليمنى قلم الحبر الأسود مثل عفاف التي كانت تفضل هذا اللون، وأكتب في رأس الصفحة: أنا الرجل الأحول الذي يتأتى ويده مهزولة، والحوّل يجعلني أصل إلى قاع الناس من حولي، فكنّا أنا وسكري لا نبقى في البيت طويلاً، ولا نعمل تحت جنح الظلام، وما إن توقفني إحدى المليشيات التي تظهر بفترة، وأنا عائد لبيتي، حتّى أتلقّى نظراتهم شديدة الخسّة والشراسة، وكلمات: أعود بالله، يعقبها سبابٌ فاجرٌ.

توقفت عن الفزع منذ بدء الاحتلال. كانوا في عمر هلال عندما فرّ في العام 1969، وبعد طرد الآباء اليسيوعيين، كان في السابعة عشرة أو أكثر قليلاً. ملتحون يتطاير من عيونهم أمر رهيب: بعض لا نظير له، ونحن نتلاقى للمرة الأولى. تقدّم أحدهم محاولاً تفتishi، فقلتُ له نكتة عن حنا السكران الذي كان يتبادل النّكت مع الضابط الذي يستجوبه .. فعطف

عليه، وتركه لحال سبile. كان أحدهم ابن حارسنا القديم الذي نسيتُ اسمه. بدت الأسلحة ثقيلة على أكتافهم الهزيلة، فسألته عن أبيه وكيف هي أحواله، فاستنكر الأمر، وبدا عصبياً جداً وعلى غير توقع بدأ بالشتائم البذيئة على:

عفاف وهلال.

بعد ذلك، التفت للجهة الثانية، وبصق على الأرض، ثم أشار لرفاقه بتفيشي، فاستخرجوa ربعة الخمرة، فتم إفراغها أمامنا، والنظر فيها مليئاً:

شرب المنكر بقاني الفضة. لن تراها بعد اليوم. أمسكها بيده، وأشار للباقين بالانصراف وسط السباب واللعنة.

هذه ليست سيرة الصفحة الأولى من هذا السكران، فعموم سكان المدينة سكارى في المعدل الوسطى، قوة الخمرة يجعلك على صواب، على حق، وتضاعف ثقتك بنفسك، وتجرؤ على مناقشة أعقد الأفكار، فتصير أشد لطفاً وإخلاصاً، كلا أكثر حقيقة، فتبدو محملة بجاذبية وقوة أخلاقية، حتى شعور المواطن لا يتخلّ عنك، ولا يسبب لك الخطر، فستستطيع أن تكونشيخاً ورعاً وطفلابريئاً ومتسكنعاً فريداً. فالخمرة وطقوس تناولها تتطلّب الكثير من الفنون والذوق العالي والمزاج الراقي، وبالتأكيد من الخيال، فأعود وأتفاهم مع نفسي، وبالدرجة الأولى، فأستطيع الدخول إلى سريرة هذا الشارع وجميع أرقة وبارات وحارات وملاهي أسواق ونوادي وحانات المدينة السرية والعلنية، وأبدو ريقاً .. آه، هذه الكلمة كنت أبحث عنها وأنا أردد قبل وصولي للبيت بثوانٍ:

أنا الخمرة، والخمرة أنا ..

”أَدْخَلَنِي يَنْتَ خَمِيرٍ أَسِنْدُونِي بِأَقْرَاصٍ مِنَ الرِّيبِ قَوْوُنِي بِالْتَّفَاحِ فَقَدْ أَسْقَمَنِي الْحُبُّ“.

كنتُ أمرَ يومياً على أسوار كُلية بغداد التي تحولت إلى أسمال هندسية، فقد سبق الاحتلال، وعلى مدى سنوات، وأنا ما زلتُ أنقب مع فتحية على من تخرج منها، واستلم دفة الوزارات، وعلى أنواعها من عوائل عراقية معروفة، فوصل مع الغزو، واستلم الإدارات والحقائب، وإلى اليوم .. ما هذا، دكتور؟ كان أرشيف وصور الأتلجنسيا العراقية المصطفاة من المهندسين والمعماريين والفنانين ورؤساء الوزارات السابقين والعلماء .. كلهم سكنوا شارع التانكي وما يجاوره، وصرنا كلنا نصوغ الجمل المركبة، وندعو المصورين وكتاب السيناريو ومنسقي المناظر وفرقاً للإضاءة لتفكيك ذلك كله وهذا، فماذا نستخدم؟ وماذا ندع من فرقاء العمل وجماعات كذا وجمعيات كيت، وتجارب الرواد، ولوحات المتمردين المعاصرين، وجمعيات اجتماعية وثقافية ..؟ فهذا الشارع لم يكن يوماً صغيراً أو متعصباً، ولا استنكر عن قبول أي أحد. ومنذ العام 2006 و2007 كان قرع الطبول قد بدأ، وعمليات التطهير الطائفي لمناطق المدينة، والنهب والسلب. الكهرباء قُطعت عن أحياء كثيرة، ومنها حيُنا، وأنا أحمل ولاعني وأركض في إحدى الليالي حتى وصلتُ بيت صميم، وأنا أشبه الرجل الفار من مستشفى المجانين. رفضتُ الدخول، فظهر أمامي وهو يضع الروب فوق البيجاما:

اسمعْ صميم، لا أعرف إن كنتَ تُحبُّ الشِّعْرَ العربي القديم؟ فأنا لا أردد القصائد على أيوب وأهل الجرداع. أمام فتحية أقول هذا وأنا أمشي، وعلى مسامع عفاف التي لا يستهويها إلا بعض من شِعْرِ الجاهلية. اسمعْ، عيني صميم، بيت الشِّعْرِ ذاك الذي يُسمّى بيت الخذلان الكبير:

”يا ليت جوربني مروان دام لنا .. وليت حكم بنى العباس في النار“

من الجائز أن فريق العمل الجديد المتكوّن من: صميم وطرب ومعاذ سيف عناوين حدثة لهذا المخطوط الذي نشتغل جميعاً عليه. فتحن اليوم في العام 2011، وفي آب / أغسطس 2010 ”سجّلت“ المارينز قوّاتها من العراق، وما حدث في الواقع هو إعادة تصنيف للاحتلال، وأعيدت تسمية الجنود المقاتلين الخمسين ألفاً الباقين قوّات ”تقديم المشورة والمساعدة“، يساعدهم ألوف من المتعاقدين الأمنيين المسلمين الخاصّين“.

والله، لا علم لي، دكتور، بما كتبت؟ هل هو صالح كما يشاء صميم الذي قال لي:

عليك بالمرور على أفراد العائلة جميعهم، على بببي وجهه خاصّ. نعم، هي أميرة البيت المتوجّة، حتّى وأنا أفكّر بها فقط، أشعر أنّ الآلام تبدو بعيدة، كيف؟ لا أعرف ذلك. صميم قال كلاماً عجيباً:

ما دمت ستُدُون عن كل شيء، أعني أهل بيتك والشوارع، فإنك سوف تكتب عن الاحتلال وبطريقتك أنت .. لكنني تعبت، دكتور. أنا أتعب، وعندما أصاب بالتعب، لا أعود أظهر بالمظهر اللائق، فاختار مكاناً وعاماً وشهراً لا يذكّري بالمارينز. بقي صوتي ضعيفاً أمام بببي، وأخي أيّوب في غرفته يتلو آيات من القرآن. صحيح أكملت كُلّية الحقوق بمعجزة، وفي البداية، لم أعمل في المحاماة، وإنما في البريد المركزي الكائن في الباب الشرقيّ. أنا أُفضّل تلك الحارات الضيّقة المتعرّجة، السوافي ذاتها في الوسط، المليئة بالواسخ وبقايا الشاي والطعام البائت،

والتي تأخذني للبيوت المتلاصقة ببعضها البعض، بشبابيكها المفتوحة، والمطلة على الشوارع، فتظهر العمارات والمقاهي وال محلات، والنساء بمناماتها المنزلية، التي تفوح بروائح القلي لأنواع لا أعرف صفاتها وأسماءها في أغلب الأحيان. يخرجن ويفقن، وينشنن بعض المواويل والأغاني التي لم أسمعها من قبل، وما إن أمر بجوارهن، فأشاهد بعضهن، وهن يغمزن لي، أو ربما يخيل لي ذلك بسبب حَوْل عيني، فأقترب أكثر، وأنفرس جيداً بإحداهم، وما إن تراني لصفاً بها حتّى تقوم بسحبـي من ياقـة قميصـي، وتُغلـق الباب ورائي. آه، يا عزيـزي الحـكيم، كبرـت إـضارـتي الجنسـية ولـذائـهي المـرـيبة والعـجـيبة، وأـنا في كـامل صـحتـي. نـعم، فـبعدـها أـستـغـرقـ في نـومـ هـادـئـ وـعـمـيقـ .. المـضـاجـعة الرـضـيـةـ يـتـدـعـهاـ الإـنـسـانـ بـجهـدهـ، فـبعـدهـاـ آـكـلـ بـشـهـيـةـ مـنـقـطـعـةـ النـظـيرـ، كـماـ لوـ كـنـتـ آـكـلـ مـنـ أـطـبـاقـ مـكـيـةـ الـلـذـيـدةـ. لـمـ أـكـنـ أـحـتـاجـ لـلـكـلامـ إـلـاـ نـادـراـ، فـمـاـذاـ أـفـعـلـ بـالـكـلـمـاتـ وـالـحـوارـاتـ ..؟ .. فـقـدـ بـقـيـ الإـجـهـادـ يـصـبـيـنـيـ فيـ آـيـةـ نـوبـةـ مـحـادـثـةـ معـ آـيـ واحدـ منـ أـفـرـادـ العـائـلـةـ أوـ المـوـظـفـينـ، فـلـاـ أـجـلـسـ طـوـيـلـاـ فيـ غـرـفـةـ الـمـعـيـشـةـ، وـلـاـ أـشـاهـدـ التـلـفـزـيونـ، وـعـلـىـ سـفـرـةـ الطـعـامـ، كـنـتـ أـسـبـقـهـمـ لـلـنـهـوـضـ مـتـخـلـصـاـ مـنـ وـرـطةـ الـأـكـلـ أـمـامـهـمـ، أـمـاـ إـذـاـ تـلـاسـنـاـ، أـنـاـ وـبـيـ كـمـاـ هوـ حـاـصـلـ دـائـمـاـ، فـكـنـتـ أـتـعـثـرـ بـأـيـ شـيـءـ أـمـامـيـ، وـأـنـاـ أـحـاـوـلـ الـقـيـامـ مـنـ أـمـامـ الـكـرـسيـ. أـدـخـلـ الـمـطـبـخـ رـبـماـ، وـأـبـدـأـ أـغـسـلـ بـعـضـ الـأـطـبـاقـ، ثـمـ أـرمـيـهاـ عـلـىـ الـأـرـضـ، وـأـمـشـيـ عـلـىـ عـجـلـةـ فـيـ الـمـجـازـ الـمـعـتـمـ الـمـؤـدـيـ إـلـىـ الـحـدـيـقـةـ، وـأـنـاـ أـضـعـ يـدـيـ وـرـاءـ ظـهـرـيـ، فـأـرـىـ فـتـحـيـةـ جـالـسـةـ كـعـادـتـهاـ عـلـىـ كـرـسـيـهـاـ الـخـاصـ، تـسـمـعـ إـذـاعـةـ بـيـ بـيـ سـيـ. أـسـرـعـ فـيـ مـشـيـتـيـ كـثـيرـاـ، وـأـرـيدـ الـاخـتـبـاءـ مـنـهـاـ، نـعـمـ، كـنـتـ أـشـتـهـيـهاـ وـأـنـاـ فـيـ ثـيـابـيـ الـمـهـمـلـةـ الـنـظـيفـةـ، وـشـعـرـيـ الـملـوـنـ بـالـأـيـضـ وـالـرـمـادـيـ، وـمـشـيـتـيـ الـعـجـولـةـ، وـحـذـائـيـ الـذـيـ لـمـ أـرـهـ مـرـبـوـطاـ كـمـاـ

يجب يوماً، فأتغثّر به في بعض الأحيان، وأكاد أقع. أرى حالٍ ضعيفاً، وفي حاجة إلى مساعدة، نعم، هشّاً، وليس مثل أخي أيّوب .. ويوم أذهب إلى مقرّ عملي، وأصعد الحافلة الحمراء ذات الطابقين، يُخَيل إليّ، أن ناجية، آخر زوجاتي، تتعقّبني، كلاً، تجسّد في كل موظفة أراها تتمشّى أو طالعة من أحد القصور أو نازلة من عربة ذات ماركة أجنبية.

لسان بيبي ولسان المدينة

شاهدتُ أكداش الصفحات المبعثرة هنا وهناك، فاستهوّتني هذه الحالة، وأنا أستجيب لكم، فأكتب كلّما ستحت الفرصة لي. طرب تَصلِّ
ولا تُلْحَّ، لكنها تضييف:

ها، ييدو أنكَ ما زلتَ تخفي أموراً، عمّو مختار. هو طبيب، ولن يتّهمنا بشيء. وصميم وصل إلى الجرداع ليلاً، لكنه لم يعثر علىّ، فتلقينا في منتصف الطريق. لم أره يوماً مخموراً مثلّي، لكنه كان يحبّ ثمالتي قائلاً:

تعجبني طريقة سُكّرَكَ، فمُخْكَ يعمل بطريقة حياة تامة، يا بختك بحالك، أستاذ مختار. هل مررت على أفراد العائلة جميعهم، كما وعدتك وصميم؟ ربّما سأخذكَ، دكتور، لبعض الضواحي في المدينة. للتو اكتشفتُ أن كل واحد منّا يشبه جزءاً من المدينة، وبما أننا ستنقل لك وبلغة ثلاثة ما يضيع أولاً وخامساً في أثناء الترجمة، فبقيتُ أردد بصورة جديدة وأناديكَ: أيّها الطبيب العزيز، هل ستقبل دعوتنا بعد كل الذي حصل للمدينة الكبيرة التّارِيخية بغداد، التي كانت تثير الفضول كثيراً، وما نال عائلة أيوب آل من نفي واختفاء واقتلاع واحتطاف.. سيحضرون تباعاً، لكننا لا نقدر القيام بترجمة هذا كله ودفعة واحدة، ولا بمقدورنا اختراع غيرها وغيرهم، وتدوينها بلغة قديمة أو جديدة، ولا نعرف أحداً بعينه، لكي نلقى القبض عليه بجرائم القضاء عليها علينا، فتقدّمه للمحاكم، فَمَنْ سِيُصَادِقُ على مثل هذه أو تلك التفاهة التي أرددّها أمامكَ؟

وأنا، أنا المحامي على مَنْ أرفع قضية، دكتور؟ ضدّك؟ أم ضدّ رذّهات المستشفيات والغرف الانفرادية والحبوب التي جعلت ألف دماغ ابنتنا تأكل؟ أم ضدّ سيران الذي لم تستلطنه عفاف وهو مؤله عندكم؟ فليكن، أم ضدّ أسماء الفتاين الأوريبيّن والتحاين، المجدّدين، المعاصرین الرّواد والقدامى جميعهم ...؟ ظللت تبحث عن الفروق فيما بينهم، كما بحثت عن الفروق بين مكّيّة وفتحية، بين أيّوب وبيني، وبين ذاك الحال الذي اتحرر، وهي ما زالت طفلة وهلال أيضاً، وبين يونس وكبوم .. أنا لا أعرف هذه الأسرار، هل عرفتها أنتَ في أحد الأيام؟ طرب ذكر ذلك خطفاً، لكنها بقيت ترسم بعض الفروقات بين الرجال جميعهم، فتضاعهم بملامح ممحوّة. وبما إنّ المرض لم يتركها على حالها، فظلّ يُلُوح لها، فتضطرّ للوقوف والنظر جيداً في وجوه المرضى، لكي تتقن الرسم، فعملت معارض عدّة من وحي المستشفيات والأدوية والممرّضات والثياب البيضاء وقنادر البلاستيك .. مَنْ نصدق، يا حكيم، الرسم؟ أم ببغي فاطم التي تحبّ أيّوب أكثر من مختار، وأنا أحبّ لقب - ببغي - أكثر من الوالدة؟ فكيف يُخطّف رجل في سنّه، وندفع الفدية؟ نحوّل بعض الواقعيات إلى دولارات .. لكنه لم يعد .. لم تصدق وحدها، ونحن كُنّا نرى نهاية المدينة، كما هي نهاية أيّوب. قالت، وكان الاجتماع يومياً في بيت صميم:

لا. بلكي تزوج على مكّيّة. ها، صميم، ابني، جاويسي، هذا مختار المطيوبر لا يعرف غير درب - الكلجية -. تقول كل شيء أمامي، ولا يرث لها جفن:

خلّي يروح، عيني صميم، لهناك، لا نقول لمكّيّة، شنو غير هي تفلة، بس أيّوب حتّى هذه بعد ما عنده حيلها .. أي زين خطفووه، وين الجثة .. ابني؟ بعد ما أقدر على المشي والعصا هذه لا تنفع .. ها شوف جالسة على الحجار بالشارع وأنظر .. بلكي رب العالمين يرحم بحالنا .. شرطة

الكريعات ما تعرف. زين ولدي إذا راح لدار الحقّ، وبن الجهة؟ بس خبّرني،
صميم ابني، حتّى نصلّي عليها، وندفها .. لا إله إلا الله .. أعود منك،
يا لسانی الزفر ..

دعني أترجم لكَ ما قالته، فقد كان الكثير من المعارف موجوداً في
الوقفيات التي كُتبت بالخطّ الكوفي والجبر الصيني الشixin بكواحد
سميكه، بهتت واصفّر لونها وتمرقّ بعضها، فوضع داخل أكياس من
البلاستيك، لكي تُحفظ من التلف. أخي أيوب يعرف الطرق التي تكتب
بها الوقفيه ودرجة الثقة بمرجعياتها. فتحية أيضاً كانت موضع ثقة أيوب
والجميع. ففي "الوقفيه المؤرخة 23 شوّال 1324 إشارة إلى زقاق الحاج
عثمان من أرقّة محلّة كوكنظر"، وفيها، أن هيبة خاتون بنت صالح أفندي
.. وقفت دارها في الزقاق المذكور على ذرّته. وأشار إلى محلّة كوك نظر،
بوصفها جزءاً من محلّة الميدان. هذه المحلّة كوكنظر، خفّ اسمها من
اسم {كيورك مرتیان} وهو من كبار رجال المدفعية في جيش السلطان
مراد الرابع، تمكّن بما ناله من نفوذ عند السلطان، أن يقوم بإنشاء كنيسة
لأبناء طائفته الأرمن في هذا الجزء من بغداد، فعرفت المنطقة به. ومن
معالم هذه المحلّة مما تشير إليه الوقفيات، السقاية التي بدأتها نافعة
بنت البasha، جَدَّة جَدَّة بِيبي فاطم، هي التي أوقفت السبيلخانة في
محلّة كوكنظر، والتي أنشأتها نافعة لتأمين بذل الماء لأبناء السبيل وإرواء
العطاش "كما أنها أوقفت بستانًا وما يجاوره، حيث أوقفت داراً في شارع
الصليخ الجواني، يحتوي على ثلاث غرف وشاهينشين {شناشيل} واحد،
وطارمة، وثلاثة دكاكين". وحسب ما ذكر أخي أيوب: كانت هناك ثلاثة
منازل متلاصقة وطولة للحصن والحيوانات الداجنة وبعيدة عن الطريق
العامّ كثيراً، أو لا وجود بعد لما يُسمّى بالطريق العامّ. فتحية هي التي
أخبرتني بتفاصيل كثيرة عبر ما تقرأ وتجمّع، فكانت تضييف قائلة: "الطابو

كان يحضر الأملالك بالورثة لذرية ذرتها. أختك الكبرى زهرة راحت لدار حقّها، هي أكبر منك ومن أيوب، ولا أحد يعرفها. وأختك أمونة هي أيضاً لم أرها، لكن، سمعت أنها قضت تقريباً أكثر عمرها بمستشفى العزل. وهذه الوالدة بببي، أوقفت نصف ثروتها لعمل الخير والإحسان.

أنشأت "علوة" تشبه السوق الكبير بسقفية لبيع محاصيل بساتينها والبساتين المجاورة. كما قامت وأوقفت عليك وعلى أيوب بناء مسجد، وإتمام لوازمه في حي راغبة خاتون .. أيوب قال لبببي عند خطبة مكية: يمّه، هذه المنطقة تذكّر مكية وأخواتها بالمرحوم. إيه، ليش نسكن هنا والوقفية بها بيوت كثيرة أحسن بناء من هذا البيت، فهو عتيق، ويشبه الخرابية، ولازم نعيد بناءه من جديد، وهذا يحتاج إلى وقت وفلوس بين أيدينا، ليش تعاندين على السكن هنا؟ فكانت تجيئه بطريقه وكأنها تقرأ في كتاب، ولا أعرف أن لديها هذه المشاعر كلها: ما عرفت، يا أيوب، يا قرة عيني، آني وحداني وقوتي هي الماي. آني أشبه موجات الماي، ابني، البشر موجات صاعدة نازلة. بس رنّك يعرف إذا صعدت وين تروح، وماذا تعمل الناس، وإذا نزلت لا تبقى ولا تذر. مرتك وخواتها ما يكفي حزن على المرحوم. أي صار سنين لا تزوجن وسنية ما كملت الكلية وهي شاطرة .. وأنا وأنت تلحّ، وهنّ عنيدات الله يسلامنهم.

عال دكتور، الآن لدينا كلمتان تعنيان بيتوأ خاصة للدعارة، كانت كونظر كما شرحتها لك قبل قليل، أمّا كلمة ومنطقة الكلجية، فتعني في أصلها ونعرّف بها بهذا الاسم: "كله: رأس، وجبي: أداة نسبة إلى حرفة، ووردت أخبارها في عهد الدولة المغولية الإلخانية في العراق. وعقد الكلجية، بحسب قائمة محلات بغداد لفيلكس جونز، التي أعدّت في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، من عقود محلّة كوك نظر، وبظاهر أنها توسيع في

المدّة اللاحقة حتّى غدت محلّة قائمة بذاتها. وتكشف الوقفيات المتأخرة عن الفئات الاجتماعية العالية التي كانت تسكن في هذه المحلّة في أواخر العصر العثماني، من ذلك خاتون بنت أحمد الساكنة في محلّة الكله جية، وقد وقفت دارها على قراءة القرآن وأعمال برأخرى في وقفيتها التي تعود لأجداد أجداد توقفت أسماؤها عند بعض الأعوام". بببي كانت تُفضل مفردة القحاب، ربما أسهل على اللفظ، وقد تكون مرجعيتها الاجتماعية أدقّ، يعني كما هو حَي سانت دني في باريس الذي كانت تزوره عفاف كثيراً، وترسم نسوانه. بجانب هذا بببي لم تتوافق على شرح طرب التي ظهرت أمامنا بالسروال والكنزة، وبiederها ما أطلقت عليه - آلة فتاح الفال - الموبيل. وهي تشرح لنا بصوت شديد الألم:

بببي، أُزيّلت تلك البيوت والحرارات والتُرُّل منذ عقود، وتبدّلت أمكّتها، وانتقلت إلى أحياط راقية وجديدة من العاصمة، فالى أين سنذهب معك، وخالة فتحية وأنا لا نعرف من أين نبدأ؟

فجأة، وبلا دموع، أراحت عباءتها قليلاً، ووضعت سداره أخي أيوب السوداء في وجوهنا. رفعتها برأس العصا إلى أعلى، فسكتنا جميعاً. هكذا اختزل أخي بخطاء الرأس الذي أضاعه، أو سقط منه في الطريق. كان أخي شخصاً على حدة، لا يتبرّم، ولم يؤتّب أحداً منّا. لم يصب اللعنات على ولديه قطّ، وهو يغيبان عن عيّنته، فيبلغ ريقه ويشرب دوائي الضغط وداء السكري، وينظر إلينا بدون أمل، فتشعر جميعاً أنه محكوم بالأشغال الشّاقة تنفيذاً لقصاص رّباني. المرة الأولى حين فقد توأميه، الثانية بعد هجرة هلال، ومنذ العام 1969، والثالثة بعد أن أخبره صميم: أن لا أخبار قطّ من فرنسا .. وعفاف .. وقبل أن يُكمِّل قال همساً له:

عاد يمكن أحسن لها ولنا أن لا تعود، أي، أن لا تعود أبداً، وليس تعود؟.

طبوغرافيا الأسى

أيوب يعرف كيف يرعى روح بغداد أكثر من الجلوس على المقهى والتأمل في القوانين والتشريعات والحيثيات والسرير والسرير في الجرداع. أنا أرصد ثمالتها وغيابها، وهو يقتفي آثارها في الماضي والحاضر. وهذا نحن، دكتور، تضمنا المخطوطة هذه معاً. وهذا أنا لاأشعر وأنا أكتب إليك هذه الحيثيات جميعها التي لم أتوقع أنني أمتلكها كلها، بأنني لستُ وحيداً، أتحصن بالجميع الغائبين الموتى والمرضى الأحياء. والمدينة هي التي تعثر على المواليد الجدد الذين نراهم يومياً، أبدانهم طائفة فوق دجلة. أيوب لم يتذكر المدينة يوماً كما أكتبها لك الآن، دكتور، فهو ليس لديه سواها. كان يسمع نبضها، ويستيقظ على صمتها، ويحبّ لمسها في الفجر، فيذهب إلى الكورنيش، ويطلّ على النهر، لكي يفتح يومه، ويأخذ حظه منها. يعرف صورها الثابتة والمتغيرة، أوصافها، ومن ألفها، وكيف يتمّ تفكيرها، رأسها وكعبها، وجهها وقفها. ركبها وأفخاذ عوائلها وعشائرها، أنفتها وحشمتها وأسرارها. شبابها ورتب وظائفها واحتضارها الطويل، فتختلط عليه صورهم وصور المدينة، هو وإياها، زمانهما ومشيتها، شبابهما وشيخوختهما، فكان يتقلب بين أحاديثها منذ وصولهم شارع التانكي وملاقاتهم الفاذرية وطربهم الأول في العام 1969 إلى أن حضر الفاذرية الجدد، فوضع وجهه إلى الحائط، ولم يقدر على النظر إلى وجه أيّ أحد في شارع التانكي أو غيره من شوارعها. كانت كواحد القرون المتأخرة وعلى ضوء الوقفيات والحجج الشرعية المحفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف، هي التي يستوعبها ويعيدها

يومياً كنوع من المسلمات، فيُعدّ بلغة عربية سليمة وفصيحة وبليغة، موقع حمامات السوق والمساجد والمدارس والأسوق والخانات والعلاوي والمقاهي والأسوار والمحصون والثكنات والسرىيات والمنشآت العسكرية والبساتين والمرقد المقدسة والقصور وال محلات والقصبات والأبراج والقلاع والخنادق. وكان إذا سُئل عن: حرية الحياة الاجتماعية في هذه المدينة بغداد، يستطيع أن يمسك الفرجال والمسطورة وقلم الكوبيا الذي يضعه وراء ذُنه، ويرسم خرائط وأسماء وأعلام بغداد، ويضع معلومات حقب تجاوز القرون، لكنه كان يتحاشى الظهور بمظاهر الأفندية المتغضسين الشريدين، فبقي يرتدي العباية الوبر بلونها التراكي، وتحتها الصاية واللباس الخام الطويل والجورب الطويل صيفاً وشتاء، فيظهر بكل هيته ووقاره أمامنا جميعاً. لم أعمل منه شخصية روائية، كما يشاء صميم، فهو مركز الشخصيات، دكتور، لكنه كان صموتاً، لا يُفضل الثرثرة، ومتى ما احتجنا إليه كان حاضراً. تقلب بين أحداث عنيفة وإفلات شديدة ومصاعب قل نظيرها، لكنه كان يخرج منها، ويقوم بإعادة ترتيب الوقفيات لعائلة زوجته الآتية من الجنوب. وبعد وفاة والد الآنسات الثلاث: مكية وفتحية وسنينة، انتقلت تلك الذرّة إلى الأعظمية قريباً من خال الأم / الجدة. وعند وفاتها، انتظرنَ الورثة توزيع التركة على الوارثات الثلاث. حكايات شتى لا نستطيع وضعها بدلاً عن هذه. فالسيّد أيوب آل، أخي، الموظف المهدّب الرصين الثلاثيني الأعزب، هو الذي كان جالساً في تلك الغرفة الصغيرة التي تشبه الفن، في دائرة الطابو وراء المقبرة الملكية، والكافنة على شط دجلة. وبين أكdas المجلّدات والوثائق والسجلات والصور الباهتة والكالحة الصفراء، كان السجل مفتوحاً وهو ينادي على الاسم هكذا:

فتحية محمد الفضل وينها؟

نعم، حاضرة، سيد.

مكّية محمد الفضل..؟

لم يتقدّم أحد. فعاد النداء ثانية، فردّت فتحية أيضاً:

أنا حاضرة بدلاً عنها وعن سنية أخي، سيدني.

لا، الجميع يحضر أمامي غداً.

كما توضّحت الأحداث فيما بعد، صارت مكّية من نصيب أيوب، وها هي تحضر وتفرض نفسها كشخصية، أنا أسمّيها حقوقية، ويمكن صميم يسمّيها فنّية أو ما شابه ذلك، فهو يُغنم بطبعها، وهي الآن تجذبنا من فرشنا وأسرتنا ونومنا، فتقدّر أن تهزا جميّعاً كما تشاء، وهي تمسلك بأنواع الطهي جميعها، فتدفع خيالنا إلى الأقصى من القصّة، يا دكتور، بكل أسف لن أقدر على دعوتك إلى بيتنا، لكي تذوق الزاد والنّفّس الطّيّب لمكّية. فقد كانت منذ البدء امرأة بطيئة الحركة، ولا تستطيع الوقوف على قدميها الغليظتين ولحمها المكتنز في الفخذين والبطن والسّاقين. فكانت تسحب نفسها سخياً إلى المطبخ. وما إن تكون في تلك البقعة حتّى يتحول الإلهام بها وبطبعها بطريقة لا تخطر على البال. أيوب صنع لها كرسياً منخفضاً وطاولة باليقاس ذاته، ووضع بجوارها عصا صقيلة للطوارئ. رتبوا لها كل شيء، ليكون في متناول يدها؛ أنواع من الأطابيل في علب من الزجاج المصفوف، وفي حجوم واحدة من القرّافل والرّغفان، الدّارسين والفلفل بأنواعه جميعها الحارّ والبارد، الأبيض والأسود والأحمر، الكركم والكمون المطحون حديثاً، والذي تعطّ رائحته في أرجاء الممرّات وصولاً إلى الطارمة حالما نصل البيت، فنببدأ بالعطاس ما إن نمرّ عليها. هذه السيدة كانت تخيل أطباقاً لا مثيل لها، ولم يطلبها أحد، ومن الجائز أشخاص ملوك، أو قادة يحضرون بعربات تجرّها الخيول، وتقف بالباب، هي تدور حول ما

تتوى من طهي تقوم على إعداده، ونحن ندور وراءها وحولها، فتضيع تلك الأطباق أمامنا في أحد الأيام على الطاولة، وبأسماء من اختراعها. هل تريد الصدق، دكتور؟ كنتُ أتمنى لو كان بمقدوسي مجرد لمس جلدها البعض، أعني ملمس كفها ذات الطيّات، وفي أصابعها أنواع من الخواتم، وفي زندتها أساور وحلي وأفاع برؤوس مغروسة بالأحجار الكريمة، ومن داخل أظافرها، كانت تستقر بعض البهارات، فتبعد صفراء على حمراء، فكان هذا يثيرني جداً.. كنتُ أتمنى لو كان بمقدوسي حضنها، كما تفعل عفاف وهلال، لكي أتشمم ريحتها الغارقة بالأزرق الأصفر والأحمر، أو البرغل بالشّعرة التي كانت تدفع الجميع بعيداً عن الطناجر، وأنا واقف في حلق المطبخ وهي تصدّنا بلطف مازحة:

كل شيء يُطَبَّخ على نار هادئة، لا نشعّ منه. ها عيني، شوية صبر. كانت صبوره وهادئه وراضيه وهي تحبس الشكوى من نكدي بيبي فاطم، أمي التي تحبّها، وتحبّ الجميع، لكن، تلك كانت طباعها العصبية. كانت غددي تنتمل وأنا أشقّ طرقي للمطبخ عندما أعود ظهراً، أو حين أودّ الخروج عصراً، فيلحفنا هواء طهيها وهي تقوم بتعديل أهرامات التوابيل التي يجلبها أيوب، لكي تسدّ نواقص العلب التي فرغت، وعندما لا يكون الطعام جاهزاً بعد، أتوجّه خارجاً إلى الحديقة. أمشي واضعاً يَدَيْ وراء ظهري، فيترالكم الجوع والكلام والنظر وأنا أبصر فتحية في الغرفة الرّجاجية وهي تُصغي لإذاعة بي بي سي. لا أخاطبها ولا أطيل النظر إليها، ولا أرى ما حولي جيداً، أودّ الخروج حالاً، وكأن أحداً يقوم بمناداتي، فأسرع في مشيتي، فما على إلّا أن أُلْبِي النداء.

أهو دي اللي صار

حضرت عفاف، دكتور، وأنا في طريقي للجرداغ، وصوتها يهبط عليّ
في تلك البرّية ما بين البيت والطريق للجرداغ. هل يعقل، ولفرط الشوق
لها، كانت ترکني التأتّة ولو لثوانٍ وأنا أردد وراءها صوت سيد درويش:

”أهو دي اللي صار. وادي اللي كان

مالكيش حق تلوم عليّ

• تلوم عليّ إزاي، يا سيدنا

وخير بلادنا موش بإيدنا

قلّي عن أشياء تفينا

وبعدها تلوم عليّ“

صفقتُ كفّا بكتّ وأنا أسمع صوتي، وأعيد المقطع مرّة وراء مرّة، وأصبح:

آه، يا مختار أفندي، لو تسمعك عفاف خاتون لضمّتك لفرقتها وتحتها،
فمن يدرى؟ أقول، قد تفضل أن ندعوك إلى زيارة الجرداغ، دكتور، فهو
يعادل الشاليه عندكم. كان موجوداً وموزعاً على صفاف دجلة في حيّ
السفينة أكثر من كعب شارع التانكي وكورنيش الصليخ، ربما لأنّه هناك كان
مسؤولاً بأشجار كثيفة قبل الوصول إليه، وهنا تصله في الحال، فالأرض من
حوله ما زالت خالية. نعم، هو عموماً، مخصص للرجال، لسخر الأطابيب

والخمرة، العرق العراقي بالذات، واللحوم المشوية والممازات على أنواعها، ولحاشية من الغجريات المتقدّات بالفتنة، وفي آخر الليل، يبدأ الرقص والغناء. آه، هو مكان ملجاً يصله البعض من العسكريّين والمخبرين والوزراء السابقين، من الشرطة ورؤساء المؤسّسات العامة، على الخصوص حين يكون القمر بدرًا. وهو مكانٌ شبه الوحيد الذي أعيش فيه من أجل ليلي، فأبدوا مرفوع الرأس وأنا أسكر، ونحن جمِيعاً، أصدقاء الليل والوحدة، فيطلقون أصواتهم بالغناء والصرخ، فبعضنا أصحاب صوت نشار، والبعض يقول: لو كان يندي أن أشاهد صوتي، أسحبه من جوفي، وأطلق هتافاً، وليس غناء .. نعم، دكتور، كلنا نمدّ أيدينا وألسنتنا للسياسة، ونريد الخوض بها، على الخصوص في تلك الأماكن البعيدة عن الأنطارات، وكلنا ننتهي بالشجار والشتائم من العيار الثقيل، ولا ندري على من؟ ولم؟ نلتقي يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وفي الأيام العاديَّة، يظلّ خالياً ومغلاقاً، فيقوم على نظافته وحراسته الحراس الأمين، الذي سبق أن قام ابنه الملتحي بتفتيشي قبل فترة. هندسيّاً نقوم بتشييده "من حصير البردي والقصب أسوة ببناء الأهوار العراقيَّة، مع هيكل من جذوع {القوغ} مسقوف. وكُنّا نشاهد بجواره مساحات واسعة من نبات الليف سريع النَّمُو، والذي يكون على شكل الحرف الإنكليزي.U، وهو بناء مفتوح على الشَّطْ فقط كنوع من الحشمة، ويشبه اعتمادياً قد شيد {لللفستوكيات}، بالتأكيد سوف تبسم، دكتور، وأنت تقرأ الكلمة الأخيرة، فلا تترجمة لها، فتصوّرها سومرية أو بابلية من بلاد ما بين النهرين، فأولئك القوم كانوا يشرفون على الدنيا من بابي الحرب والحب .. وهما أنا أنطق الكلمة إياها، فهي تحمل شحنة من الفسق والفتازيا .. ولمّا ذكرتها أمام صميم، ضحكنا طويلاً، على الخصوص ونحن نتذكّر الوالدة وهي تجري ورائي، تعيرني وتوبخني على ذهابي للجرداغ. يومها ذكر عرضاً صميم اسم افتخار. لم ينجُ

أحد من الإسلام والتلذذ بما تمثله لنا جميـعاً، للنساء والرجال معاً. أنا شخصياً لم أرها، فلها رجال من الحرس، وإضاءة خانسة في مدخل قصرها في آخر شارع التانكي، في البقعة التي ليس وراءها أيّ بناء. فلا نعرف منْ كان ينتظر دوره، ومنْ يوّفر لها النفوذ والمجوهرات. وفي إحدى الليالي تسرّبت للشارع والحيّ ولباقي القصور قصص انتشرت بصورة صاعقة، أنها قُتلت، أو تزوجت، أو انتقلت إلى حيّ آخر .. أو .. أو .. كانت هناك بعض أعمال من العنف والاضطرابات .. أنا لم أرأي شيء .. الشائعات تعزّز الشهية كثيراً، ودكتور، هذه مجرد حكايات من شارع التانكي، أنا فعلت ما طلبه مني معاذ وصيم وطرب، كم هي القصص قديمة، وتستطيع أن تصمد أمامك! أو هي ركيكة! فغيري سوف يعاود المحاولة .. فأنا على استعداد أن أردّ اسم عفاف أمامك، وأظلّ أسألك:

دكتور، أين اختفت عفاف؟

متى ستعود عفاف؟

هل هناك أيّ أمل بعودتها؟

فتحية، جزاها الله خيراً، هي التي كانت تنقل لي أخبار الحرب، فسألتها أيّ حرب، فكانت تصمت، ولا تجيب. لستُ أدرِي كيف تدبّر الحرب أمرها عندنا؟ ولا أعلم ما إذا كان الله قد اعتبرها أمراً لائقاً بنا؟ أعني، قد تكون هي الأمر الوحيد الذي يلائمنا من دون باقي المهن. فالأرض منبسطة جداً، والغارات والراجمات تصل مثل التأوهات التي كنّا نطلقها نحن أصحاب البيت. أنا، يا عزيزي الدكتور، وصلتُ تقرباً لختام هذا الخطاب، وما زلتُ مصرّاً، إنني أخاف من الكلام والمحادثة، فالحديث يسبّب ضيقاً في التنفس. أُمّي وحدها تعرف كيف تغذّي ضعفي وهشاشتي. أي صحيح،

لأنه لا يستطيع التواصل مع النساء، على الخصوص. وصحيح أشتاهي النساء جميعهنّ، فتحية ومكية وسنّية والنساء في الحافلات والشوارع، مفرّعات أو يلبسن العباءات. فتحية أكثر امرأة أشتاهيتها، لكنها كانت أقوى مني، لا أعرف كيف، ربما هي ليست في حاجة إلىّ، فتركّتها، وتابعت طرفي. سنّية عاشت تجارب مستعصية وسرّية، بعضنا يسمّيها شرّاً محظوراً في القضاء والقانون .. قصّتها يعرفها صميم أفضل مني وأخي أيوب. ترى الصدق، دكتور؟ أنا أحبّ العاهرات، فهنّ لا يبحّن بالأسرار، ولا يحرّمني أي شيء، ولسنّ ذوات مزاج متقلّب .. في أيّ وقت تجلبهنّ يديننّ متساهلات، فلا يتبدّلنّ الكلام، ولا يُسبّبنّ الصداع، فأراهنّ على شاكلي، بل أحسن مني، فأنا أونون وأشتكي وأئنّ وأنوّجع .. لأنني أخاف .. معاذ يرانى أكرع الكأس بسرعة، وهذا صحيح، هكذا أريد أن يخلص القدر، لكي أبدأ بالثاني والرابع، لكي تخلص الساعة واليوم والأسبوع والعام .. دكتور، لماذا تخافي عفاف وأيوب؟ هنا، لا أحد يجيئني .. هل فكروا بالبطولة مثلاً؟ أنا لا أحبّ الأبطال، دكتور، فهم يموتون بسرعة .. هل تعتقد وحسب رأيك أن أخي أيوب اختطف، فصار بطلًا؟ وعفاف غيابها لا يعجبني .. وأنا تعبتُ من الكتابة إليك، فهذا الأمر يدفع بي إلى الغلط، أو اخلاق أشياء لا وجود لها .. هذه كلها أمور تافهة، نكرّها مراراً، وبدون أيّ تسلسل في المشاهد والأمكنة، فقد يكمن هنا سحر الدماغ البشري، دكتور، جلب الأزمنة جميعها، وتشابك المستقبل بالماضي وغموض الحاضر برمته. ما هذه التفاهة التي أتخبّط بها؟ سأقول لك الحقّ، أنا في التفاهة أقابل نفسي، وأضعها أمامي على الطاولة، فأراها الأكثر دسماً، فهي تُغنى عن وجبات كثيرة، وفي الأصل، وجدت التفاهة لفتح الشهية في المقام الأول على كل ما يتمّنّه المرء لنفسه. خذْ عندك مثلاً، أستطيع أن أُميّز رائحة التافه من على مسافة سنة، فأختاره بغيريّة الصياد التافه. إن ما يُسمّى بالأمد الطويل

يُرعبُنِي، دكتور، ومثل هذه العلاقات تكون مُفرَّغة، ولا تُشكّل خطراً، ولسنا في حاجة ماسّة لأحد يُرِّيت على أكتافنا. عفاف، من الجائز لم تاتفاق على علاجكم، ليس أنت، فكما أخبرتني طرب وصميم أنت الوحيد الذي كانت تبته أسرارها الحميمة. كانت ترفض تذكّرنا جميعاً، نحن والبلد والتفاهة كلها، فبقيت كما هلال تُقلّب شفتيهَا في تلك الحركة التي لا أعرف نعثاً لها. وهذا أنا أدندن ببعض الأغانى المفضّلة لها، وأفتح غرفتي إلى آخرها، فلا أسمع سعالاً، لا من مكّية ولا فتحية، فكل واحدة منها لم تعد تتودّد، ليس لي، ولكن، للأخرى. كيف تخفي اللغة، فلا نميل للاعتراض على أيّ واحد منّا إلا بالتجاهل الهدى الذي يرسخ فكرة انتفاء المبادرات كشركاء في مكان واحد؟ لم أدرك إلا للتوّ، أن المحادثة نوع من الحبّ، أو الوقوع في الحبّ، حتى المشاجرات بيني وبين يبّي كانت أعلى مراحل المحبّة بين اثنين، وإذا ما توقف الكلام بيننا كبالغين ومسنّين جدّاً، فهذا هو الدافع الوحيد للموت. وأنا، يا عزيزي الدكتور، لا أريد أن أموت، فالامر مختلف لي من حيث المبدأ، فوجودي وحده هو انتقامي الضعيف من المارينز، وهذا أمر مضحك، لكنه حقيقي، علينا البقاء كما نحن، وفي الأماكن ذاتها في المقام الأوّل، وهذا يكفي. نعود للخمرة التي أراها الأثنى الوحيدة التي بقىت تقدّم لي غنجها المختلط بدعة مبيّنة للبقاء على قيد الحياة، فهي السائل الذي يشبعني عندما توقفت خصوبتي، فبدأت بنشر سوائل على حبال لا تُرى بالعين، وأنا أقوم بارتداء ثياب مضحكه وطريفة، ولا تليق بعمرى. تُرى، ما هو الشيء الملهّم الذي يليق بأعمارنا، دكتور، ونحن نعيش في ... طرز بالرّقم الذي لولاي لصار صفرأً، فمن يتذكّر ستّي وسنّ غيري؟ وعليه، غيرتُ رأيي، وسوف أترك سحّاب سروالي مفتوحاً، كما في الأيام الخوالي. اليوم عن عمد وتصميم .. هكذا، فلديّ الوقت والأسباب، لكي يغادر عضوي المكرمش مصنّعه الفارغ، كما غادرتنا عفاف وهلال، كما

غادر أَيُوب وباقِي الأَهْل والأَوْلَاد والبَنَات والجِيرَان والمُدْنُون وباقِ السَّكَان، والمحفَّزات الجنسية كلها التي توقفت عن شغلها معي. غريب، يادكتور، وأحمد الله أَنَّكَ رجلاً، ولست الطبيبة المغربية مليكة إِدريس، لكنَّ تأثُّرَ أمَامِها كثِيرًا. فلماذا لا يغادرني عضوي، وهو لم يلتقي بامرأة تحبه وترعايه وتذابعه كما يجب، فما علىِّ والحالَة هذه إلا أن أقوم بالشُغُل بدلًا عنهنَّ. أَقْسَمْ أَمامَكَ، يا دكتور، نحن نحتاج وأعضاُونا كذلك، مَنْ يُرِيُّنَا جِيدًا، أي نعم، صَمِيمٌ وَمَعَاذُ ويُونُس .. هل ذكرتُ أَمامَكَ اسمه؟ المُشكَّلة أَنَّه لِيس تافهاً، ولذلك لم تتفاهم جِيدًا. بالطبع صَمِيمٌ، لدِيهِ بعض التفاهة في مَكَانِ ما، ربِّما، لا أَعْرِفُ بالضبط .. غافلت الجميع، دكتور، وزرت المكَعْبَ، لكي أَشَاهِدْ مَدِي التحضيرات الالْزَمَة لاستقبالَكَ. بالطبع، قام الفاذريَّة الجدد بالواجب. هذا اللقب الجديد للماريِّنْز، أحْبَبَه طربَ كثِيرًا، فصارت تقول هذا من اخْتِرَاعِي، أَلم تَرَ مبلغ التفاهة التي وصلنا إِليها؟ قام هؤلاء بسلب العَدِيد من اللوحات، وتخرِيب الـ - البَقْحَة - التي كانت مزهراً بأنواع لا نظير لها من الزهور، فتحولت إلى حطام. نعم، دكتور، كانت الحياة الجديدة تفتح الستارة عليهم وعَنَّا، وعلى الأرجح، الأستاذ معاذ الألوسي، كتابه التالي عن طبُوغرافيا الليل والنهر التي مرَّت على المكَعْبَ هو قيد الطباعة أو النشر، لا أَعْلَم .. وهذا لا نقول عنه حسن الختام .. فالحيثيات موجودة فقط في القَيْنَة التي لم يبقَ منها إلا بضع قطرات .. وأَنَا تعْبُثُ كثِيرًا .. والله، أَسْتَحِي منكَ، دكتور، فلم يبقَ في القَيْنَة إلا بضع قطرات، فلا يجوز أن أُشرِبَها إِلَّا في نخب بغداد الفاسقة التي لم تجفْ خمرتها منذ بني مروان حتَّى بني العَبَّاس ..

<https://jadidpdf.com>

الفصل الرابع

هلال أيوب آل

<https://jadidpdf.com>

ماكيت الغائب

قبل بدء الكتابة إليك، دكتور، أود التبليغ عن غائبين اثنين، لا أستطيع إلّا البدء به قبل أخيتي عفاف. خالي سامي، الغائب الأكبر. وضعته تحت عنوان : ماكيت الغائب - ففي "الإسباع الذي يحسّ به المرء وهو يتأنّى" جثّة ميت شيء مهدّئ وممتع. فالحَيُّ الذي يشاهد ميتاً يحسّ بأنه متفوّق، وهذا صحيح، لأنّه فعلًا متفوّق". كلّما أنسح حالٍ بتغيير هذا الترتيب سرديًّا، كأنّ أبدأ بعزيزني الدكتور فاللينو، كما تقتضي الشياكة الفرنسية أعود إلى الحكاية وأواصل، فعلىّ أن أشارك في موكب العزاء والتأنّى بالقصّة لعشرات من السنين، هل كان ذاك الذي حصل هو القتل؟ أم الاتّهار؟ فذلك الغائب كان أكثر رسوخًا وإقامة في ذلك البيت، وفي عقول أصحابه من النساء، وتحديداً، هو الأكثر حياة ممّا ومنهن مجتمعات، فلا أنا ولا عفاف نعرف سيرته الذاتية، كما يقال، وبالتأكيد هو أكثر أهميّة ممّي ومن أخي، بل أكثر استمرارية من مواطني هذا الحيّ، بل هو دائم، أو خالد مثل ذلك النهر وهو يتجلّى لنا ولا يتلاشى، ولنساء البيت، كان يشكّل واقعهنّ، أو يكمّل حياتهنّ معه، ومن دون أيّة غضاضة، على أن لا تضطرّ إحداهنّ التّفوه بالقصّة أمامنا أنا وعفاف. بعثة كثّا نرى الدموع بعد الضحك المكتوم تُبلّل خدّ وعنق إحداهنّ، وهنّ في مواجهة بعضهنّ بعضاً، بدون كلام. فنستغرب ونضحك، أو ندخل معهنّ في نوبة بكاء عمومي، لا نعرف أسبابه، فالسرور يبعدي، وعكسه أيضاً. بدت لي دموعنا الصامتة نوعاً من الرفعـة، ربما، ثمة هناك مرض على مبعدة نصف متر من الطفولة،

ومستمرٌ إلى الشباب، وهذا هو يتعرّف علينا بطريقة أو أخرى، وبالوكالة عن الميتين جميعهم، فتصبح ارتباطاته هي الأقوى. هكذا أعددتُ نفسي لتقبلُ فكرة ذلك الرجل وهو محاط بأولئك النسوة كلهنَّ، فهنَّ في الغالب لا يُنكرنَ اسمه، فهو يملك أسماء الغائبين والحاضرين، فيرددن دائمًا:

أي هو .. ويسكنَ.

وللأمانة، هم لا يتهربون من بقية الأجزاء من القصة، لكنهم لا يجيبون بلا أو نعم. وهذا الأمر بلا شك يدع الذهن شارداً، ولا يتوقف عن التفكير المضطرب. مَنْ هو؟ أريد أن أراه الآن، اليوم، هذه الساعة. أحسد أنه موجود وهو يجلس في غرف الخاليَّين وبين خصلات شعورهنَّ، ويتجوّل ليلاً في أرجاء البيت وصولاً إلى غرفة الوالدين، لكي يطلُّ على وجه أمي. هنَّ الثلاثة يلقينَ عليه نظرات شديدة الدقة، ويتواصلنَ معه، كأنه غاب البارحة، على أن لا يقع أيُّ أحد غريب في هواه بعد اليوم. فقد سخر مناً بعدهما أنجز عمله على أتمِ وجه.

لا يعرّفَ به ولا يضفَنَ كلمة خالي. بدون اتفاق، ومن أهل البيت جميعهم: بببي فاطم، وفي بعض الأوقات، ينشط معها عمٌي مختار، وبدون ضجة، ينقلون القصص عنه بسلامة نِية، وهم يرددون صدى الأصوات التي تسمع كل يوم في المنام والاستيقاظ، فتسيل الدموع بصمت عجيب، وأنا الشاطر في الرياضيات مثل عفاف لم تستطع التأكُّد من حساب أعدادها من كل عين. فلا تتهرب أية واحدة من سُكَّان البيت عن ذلك أبداً. تُقفل عليه الأبواب، أو يترك بعضها موارباً، أو تقدم له السيجارة الأولى، أو كأس خمرة، فيمتلىء جوًّا البيت برائحة المستكى. كنتُ أرى الجميع سكارى وخالي تحول إلى شخصية يصرفون عليها المبالغ الكبيرة، فيتصرّف بالوقت والمال معًا، وتبدأ الغاز شخصيته تزداد خطراً وحبكات روايته تتضاعف

إثارة، وبقي السؤال على الأقل بالنسبة إلى: لماذا يعملن لحساب ذلك الغائب، ويمكّن طويلاً عنده، فيطول الصمت في حشمة وأنفقة، ولا يقدرون على تبادل الحديث. حتى يبيث الثراثة كانت تُدمِّم وتعوفنا وحدنا، وتفرّ إلى الحديقة الجوّانية. نساء البيت كلّ واحدة منها تتبرّك طريقة في إخفاء شكل الحال. اللحم والمعظام، التقطيع والسحنة، الطول والارتفاع. هل هو جميل كخالي سنية؟ أم جذاب كفتحية؟ هل كان غليظاً مثل أمي مكيّة؟ أم نحيلأ مثلّي؟ أم كان يتراجّح على الميزان مثل عفاف؟ عندما ندخل فجأة أنا أو عفاف على إحدى الحالتين الحظ أن هناك من تقوم بإزاحته بعيداً عنّي وعن عفاف، لكي لا نقاسمهنّ الحبّ، أو ربّما لكي لا تشغلهنّ عنه، كأنني أقطع عليهنّ الحديث، فيعدن بالرغم منها إلى هذا البيت والغرف والشوارع والكورنيش والشرافش والثياب والأخبار والساخافات والتبغ والخمرة، ولكن، بصورة طائشة. من هنا، وكل واحدة تروي قصة الحال، وتريد سحبها من بلعومها، لكي تستطيع التنفس الصحيح. الصوت يأتي من جنبات وحديقة كُلّيتي، كُلّية بغداد إياها .. فكنتُ أصطدم بوجه وجسد وتصّرفات خالي عندما أشاهد ملامحي وتصّرفاتي وطول قامتي، حتى لو لم يتركوا لنا صورة شمسية واحدة له. كنّا نحدّس أنا وعفاف ونحن الذين عشنا زمناً طويلاً مع الغائب: لا يجوز أن نُفسد ملامحه وهو يمرّ بين أهداب وعيون خالي وأمي، فكل واحدة منها كانت تسوقه إليها، وتقتفيها إلى عنقه. أظلّ عفاف كانت أسرعنا إليه وهي تنفذ التعليمات بطرقها الخاصة، فتجمع قواها، وتقوم برسم قسمات وجهه الذي لا تعرفه، ولا تندّركه قطّ مثلّي، فقد قامت بتخزين عيّنات من العيون والأنوف والحواجب والشفاه والأدان. وكدّست حفنة من الابتسamas والكّابات والضجر والأس. عفاف تملك الوسائل جميعها أفضل منها جمِيعاً، فقد ظلّت تخطّيه وتحدّق في عيّنتها، وتندفع في عنقه، وتضغط على ضلوعه وثيابه الخفيفة؛

الفنيلا واللباس القطني اللذين وصل بهما إلينا، وهو محمول على الأكف. كانت تضع شاربًا خفيفاً على مُحيّاه، لكي يجعل سنه أكبر قليلاً. وكانت تخاطبه مَرَّة بضمير المخاطب، وأكثر الأحيان بـ الغائب، وهذا كان الأشدّ إيلاماً علىٰ وعليها معاً، فكل واحد منا كان يردد ونحن نرى التصاوير: إن لديه إضافة ما في المظهر أو لون البشرة أو شكل العين، لكن أبي قال كلمة صاعقة، لم تتوّقّعها شخصياً، بعدما شاهد بعض اللوحات بالمصادفة:

كانت عيناه زرقاويّن، كما عيني جدّتك لأمك. لم تأخذ أية واحدة من الحالات ولا الوالدة ذلك اللون. وعندما ولد التوأم، كانت عيناهما زرقاء وعسلية.

كان خالي يبسّط جناحّيه علينا جميّعاً، وكان الحبّ يتبعنا واحداً بعد الآخر. أمّا الموت، فلم يُغيّر عاداته. في إحدى المرّات، زلّ لسان فتحية، ونحن في شارع التانكي، فقالت:

أي عيني، هو قَدَرْ غاشم، حصل منذ سنين، كأنه وقع بالأمس.

كانت عفاف أثثنا تعباً ظاهراً من غيابه، فتقوم بدفعه في عبّها، فأرى صدرها يتضخم وهي تضع يدها عليه، لكي تغطيه دافعة بموته عميقاً، لكي لا يزعج الناظرين إليها، فصارت تقول: أنا هو؛ إن المحبّة بحاجة إلى موت". كتّا جميّعاً لدينا حواجز في تعريف القدر الغاشم، فلا نعرف هل سنقدر على كسر حاجز القدر ذاك، إذا قلنا كلاماً عريضاً فصيحاً؟ أم إذا ذكرته بببي بالعامّية؟ وبهذه الصورة كان شديد الدّقة:

إي، الله وأكبر، أي شلون شنق نفسه وهو بعده جلد على عظم. مَنْ شدّ الحبل؟ ومنْ دفعه في الهواء؟ زين من أين جلب الحبل؟ وشلون صعد للنخلة العالية؟ يارب العالمين. ولد بعد شواربه، يا دوب خطت

على شفته، والله، ما أدرى كمل السبع عشر سنة، لو أفلّ. شلون صخى
بروحه؟ اللهم لا اعتراض على حكمك، يا أرحم الراحمين ..

حملته عربة الشرطة من كُلّيَّة بغداد إلى حيث نسكن في الطرف الآخر
من الأعظمية، وكانت المسافة بعيدة بين الموقعين. ظهر أمامنا، دكتور،
محمولاً على الأكتاف من قبل رجال أشدّاء، يرتدون ثياب البوليس والبعض
يرتدى الدشاديش، وهم يقولون بصوت واحد:

خالة، وين نخلّي ابنكم؟

لم يعرفه أيّ واحد في البيت. اعتقاد الجميع أنه أحد المارة بلا مأوى،
فشاهدوا باب حوشنا مفتوحاً، فدخل الجميع وهو معهم. وضع على الأريكة
الموجودة في صدر غرفة المعيشة. مدّوه، ووضعوا الذّراعين بجنبه. كانت
الغرفة التي نقضى فيها جميع الأمسّيات حارّة، فالوقت كان تشرين الأول
والشّبابيك مفتوحة إلى آخرها، فالهواء في تلك الأوقات كان يصلنا من النهر،
ويحرّك الستائر، توقف. لم نعثر على ذرة واحدة منه في الحجرة. أخذ النائم
أمامنا الهواء دوننا، فبدأت خصلات شعره الكستنائي الناعم تتحرّك. خالتى
فتحية صارت فوق رأسه، وهي تحضره للقدوم إلينا. لا أعرف لم شعرت أن
ذلك كان ممكناً، فقد بدا لي أنه يتسم، كلاً، أنه يضحك. وفتحية تتلّاكاً في
إطباقي جفنيّه. كانت أهدابه شديدة الكثافة، فبدأت تمسّد على جبينه،
تصوّرت، والحق معها، أنه موجود في الرأس. وهو نائم بهدوء، لا يشبه الغلام
ولا الرجل، لا يشبه أحداً آخر، لكنه يُدعى سامي.

ونحن لم ننظر إلى الساعة، فقد كان الوقت يُتعبنا. عادت خالتى،
ونزلت إلى أصبع قدميّه. كانت تلمسها وتطويها إلى أعلى وأسفل، وحين
قارتها سنية، بدأت من الذّراعين، فهبطت عليه، وعانته. كانت تشممّه

من رقبته، وتوّقف عند تفاحة آدم المزرقة التي غلظت كثيراً، وتبدّل لونها إلى بنفسجي ضارب إلى نيلي. كان يرتدي سروالاً قصيراً خاصاً بطبلة كُلّية بغداد. وأنا أقف بجوار أمي، أجرّ ثوبها، أجرّه إلى أسفل، ولا أنكلّم، فأسمع قطرات من البول تساقط من لباسي على فخذني نازلة إلى ساقي، ثم هابطة حرّة إلى بلاط الغرفة، فنبأ السير إلى أمام. دكتور، لو كنت كاتب روايات مثل الأستاذ صميم، لتصوّرت تلك اللحظة ذروة الجواب الفلسفي عما يحصل وحاصل لنا، أمّا الدموع، فقد بدت مجرّد بهرجة بعد تلك السنين. أمي مكّية لم تقدر على الانحناء والبدء بعنقه براحة تامة، فإذا فعلت ذلك، فلن تقوى القيام ثانية من سمنتها الشديدة، ارتفع وعلا، فصار نحيباً عالياً. أنا بركت بجوار سنية والبول حولي، فلمست اليد الممدودة وأنا أنظر إليها طويلاً. نزلت برأسى وبدأت أبوس وأنظر إليه بصورة لا رجعة فيها، للخدّين الخاسفين والفهم المسدود والشفاه الناشفة. وأمواج دجلة على الأغلب تسمع بصورة جيدة ما كان يدور بين أفراد هذا البيت في تلك الليلة وهم لا يتبدّلون النظارات ولا يتمخّطون، فيزداد الاقتراب من النائم. هناك في تلك المدينة تصوّرت اتحاره مجرّد ميّة تنكريّة، إنه مقتول، يا سيّدي الدكتور، قتل فأفقرت أهله في التسابق على النكran. أبي في عمله، وعمي مختار لا نعرف متى يعود، وتطبيقات عفاف التي كتُبَ أراها في يدها، ورأسها لا صوت له، فكان الجميع يستأنف السكوت، ولا يقاطع الموت، وهو يشاهدونه أمامهم. لم يتأخر في زيارة ذلك البيت، أوّل بيت يُزيّن اللوحات بزينة كثيف وغامق، فالأعضاء تخشّبت، والبلعلوم تيّس، لكن، لا أحد من الأهل فقد عقله، فلا جروح ولا حروق ولا نزيف في المسجن. ينظرون ولا يخفضون أبصارهم عنه. لوقت طويل، بقي الحال على ما عليه حتّى دخلت أم ياسين وهي تُولّول وتلطم على شباب سامي المكرود.

الأبطال يتواحدون

لم نر وجهه ياسين في تلك الليلة، ونحن بُلّل وجهنا بالدموع. وكانت فتحية تحاول أن تكفل بالجميع، فسنية ظلت تمرّغ وجهها بقمash الأريكة، وبقميصه، ثم تتبه لوجه سامي، فتقوم بنصف قامتها، وتشير بأصبعها إلى بلعومها وفمها، وهي تُخرج لسانها أمامنا، دون أن تبس بكلمة واحدة. لم ينشغلوا بها، ولا بصوتها الذي بقي مختفيًا في جوفها لأسابيع عدّة، فكانت تتوّجه إلينا بالإشارات. وأمّي من جانبها كانت تستحي، إذا اضطربت لأمر ما، وارتفع صوتها، فاجتهدت هي الثانية لطمّس صوتها بعيدًا، ربما، هذا أعطى الاثنين معنى وقيمة ما، فترك لفتحية في النهاية القدرة على إدارة أحزان هؤلاء النساء، فكانت المواجهة، ولم تسمح للذهول أن يتملّكها. صحيح بقيت تنتصب بدون خطأً واحد، وأقسم اليوم أمامك دكتور، كنّ ينشطرن إلى شخصيات عدّة، لم تلتقي بها من قبل. أبي، الحزن كان ينهش عظامه، فانحنى على النائم، وقبل جبينه، ومسدّد على رأسه، ثم أمسك بي بطريقه تقاد تكسر عظامي، وتخفيوني في عبّه، عانقني فترة طويلة، ولاحظ أن ثيابي رطبة. عمّي مختار حين عاد على غير عادته، توقف وسطنا، واقترب من النائم، وبرك بجواره. مرّت ساعات على الموت. وكان مختار صامتًا لا يعرف من يخاطب:

كان ابني الذي لم ألدّه من صلبي .. يا صغيري .. يا حبيبي .. وبدا بالاتّحاد البطيء.

سقطت عوناته الطّيّبة السميكة على الأرض بجوار البول. بدأ يمسح الوجه والرأس والشعر والعيين نازلاً إلى الرقبة، فتحسّس بيده مكان الجبل. لم يكن يرى تماماً، ولا كان يريد أن يشاهد المكان. كان يقيس المساحة بين الحنك والرقبة، وكانت هذه الأخيرة رفيعة جداً. ووجه سامي، ووضعية نومه كانت مستقيمة، وفي وضع مرتاح، والعيون والآذان كلها تتجه نحو صوت أم ياسين وهي تتجه إلينا مُولولة، وتبدأ بالصرخ بصوت مسموع، فتفتح باب الحوش على مصراعيه، لدخول النسوة من الجيران. كانت أصواتهن شديدة الوقع على الجميع، وبسرعة خارقة، أزاحوا الجميع من حوله، ورفعوه من على الأريكة في طريقهم إلى الحمام. كان أكبر من ياسين وهلال، في الثامنة عشرة. أنا كنتُ في السادسة وعفاف في الرابعة.

Don't believe yesterday

دائماً شاهدت عدواية الأمس، حتى كلمة الماضي لا أستخدمه، أعبره بعثة إلى الحاضر، فهل ندخل عفاف في أرشيف ذلك الأمس البغيض؟ أم الغد المريض، ها، ما رأيك، دكتور؟

والقوم هناك في دولة البارحة، يكتبون لي قائلين: هيّا، تعال معنا، هؤلاء أصدقاؤها الأساتذة. لا أفضل أن ترفع الكلفة في ما بيننا، فليبيّن اسمى هلاّلاً، ولتبق لهم الألقاب جميعها. تطور اسمها كما تعلم، أوّلاً من اسم التدليل: عقوّة - إلى اسم عفاف. ثمّ جرى التساؤل عمّا ينبغي عمله بالأسماء فيما إذا تقدّمت بنا الأعوام، وظلت الأسماء ذاتها واقفة في خانات الأرشيف، ولدى مديرية البوليس، وإدارة المطارات والجامعات والمصحّات والمستشفيات والسجون. تبقى تلك الأسماء كاملة غير منقوصة، تبقى دون جدوّي.

معاذ الألوسي، صميم، الذي لم نتعرّف على بقية لقبه حتّى اليوم، المصادف العاشر من ديسمبر / كانون الأوّل من العام 2011. وأنا في لندن، والسيّدة طرب الفيصل زوجته وصديقة عفاف. من هؤلاء وصلتني ملفات مرتبة منسّقة معنونة ومرقّمة، كل واحد منهم يملك اسمه وعنوانه، إلخ، وكأنها الفصول الأربع، متظرين بأنّ أوّلّ لهم فصلي الجديد. هو خطاب رجاء، بإعادة قراءة الملفّات أو الفصول، ليس لكي أصحّحها، على العكس، مهمّتي وضع قَدْمَيِّ، إن أمكن، أفضل من قَدَمَ واحدة، والتّورّط بتداشين

الفصل الذي لا أعرف ترتيبه، وبعد من سيكون، قبل من سيضعنني، كمن يُقدم على إعادة تعلم لغته من جديد، فعربيتي لا تمتلك أقمة وسراويل وجاكيتات حديثة، لغتي، لم يبق منها، ومنذ عقود إلا فانيلا ممزقة، ولباس داخلي خبائثه في جانب ما من الخزانة، بسبب لونه المتصفر في كل نسيجه. كنت أتصيد بعض الجمل العربية كما هي، كما لو كانت نشازاً أو مرخمة بموسيقى تعلو وتختفiate، أو صرحاً هستيرياً أشتهرت به توجهيه للقتّاصين المارينز،وها أنا أدور بلا هواة، وبكل ما يقتضيه الإتيكيت والذوق، حتى لو كان الأمر يخالف قرار ابتعادي وصمتني، وأوافق من حيث المبدأ على إعادة النظر بتلك الفصول. هم لم يشيروا لأسباب، الأخوة الموجعة بين الأشقاء على سبيل المثال. فما زلت أراها تلهمت، وريقها ناشف وشفتها يا بستان، وهي تحاول أن تحرّك النار من حولها. صرخت للتو باسمها عالياً، وأنا أجادل في شروط وكتابة هذا الفصل، في درجة الحب الذي يهطل على الرأس والوجه، فيجعل من تلك الفتاة، وكأنها تمسك بالسوط، وتضرب كل واحد منّا، من هؤلاء، وأولئك، لتلك العائلة، ومن تعرف في تلك المدينة. فوجوه شارع تانكي الماء، وصور الآباء اليسوعيين، لا تستخلصها كاملة وصحيحة، فكل شيء لا يلبث يعلو في شارعنا ذاك، الذي لا أعرف ترجمته إليك، سامحني، دكتور، لم أبدأ بالديباجة: بعزيزني الدكتور فالينو، فأنا مستشار جداً، وعفاف هي التي تقودني من ذراعها. هل راقبت تلك الذراع؟ كانت تعمل كأفضل ما تكون أذرع الفنانين والنحاتين والموسيقيين، والآباء المعلمين. تلك الذراع كانت وثيقتها الأولى للقفز عالياً، لكي تبقى هناك بين ذراعي فتاني العالم جميعهم. فتلتقط أصواتاً بعيدة، وتغنى لها، ثم تحوّلها إلى أثر فنيٍّ. هي الذراع ذاتها، ذراعها وذراعي ونحن نصل أول شارع تانكي، فنحضر بصدورنا الضعيفة النحيلة والصغيرة وأذرعنا الهشة محيط التانكي المعدني، ولا نصل إلى ضلع واحد من أضلاعه.

كان لونه فضيّاً مُغبراً ورابضاً في آخر الشارع كمركبة فضائية، انطلقت بالفعل في إحدى السنين الصّوئية من نقطة في السماء، فحملت لكل واحد من سكانه ما لم يكن بانتظاره. فحالتي فتحية كالشيخة الصوفية المتعالية، دائماً حزينة، وفي صوتها مرارة، فلم نرها يوماً في ثياب ملونة أبداً. إذا ابسمت سرعان ما تزمّسْ قفتها وتُسوّي شعرها الكث دافعة به وراء أذنيها. كان يبدو أن هناك شيئاً مقيماً يحاصرها ويطاردها، وعندما تدخّن كانت تمضغ التبغ بين أسنانها. بببي فاطمة لا تقدر أن تن ked علىها، كما علينا، فأطلقنا عليها لقب مديرية للإعلام والمخابرات وحياة الأسرار الخاصة والعامة وال تصاوير الحارقة التي تخاف عليها سرعة الزوال، فتعيد وتكرر وتنسى ما أخبرتنا عنه قبل ساعة على سبيل المثال .. لكنها، والحق يقال، كتومة. نضع في حجرها سرّنا، فتصونه إلى يوم الدين. بقيت تجمع الأدلة حال وصولنا إلى شارع التانكي عن موقع وأخذ وعلاقات وأسماء وصلات القرى والجيرون، وعوائل وطلاب كلية بغداد أصحاب الحسب والنسب، للزواجات التركيات، الإيرانيات، واللبنانيات أو البريطانيات. تربّي الخرائط، وتضع الألوان الأحمر أو الأخضر وهي تعدد الألقاب لا الأسماء ذاتها، لأن تقول: ابن الجلي، ابن الألوسي، ابن مكّية، ابن بنية، ابن ثنيان، ابن الزهاوي، ابن الخصيري. ولما تأكّد من حالة وفاة أو فرار أو اغتيال، أو عمل فضيحة ما، تضع علامات كل واحدة بلون، وحسب الحالة، ثم تلجم للراديو الموجود دائماً بجوارها، تفتحه على صوت المقرئ عبد الفتاح الشعاعي، تعود من الشيطان وتردد:

الموت ثقيل على القلب.

فيُمحى فلان، ويُوثق علان على القائمة المستحدثة بقدومه إلى الشارع. أرشيفها الآخر تقلبها من إذاعة بي بي سي، وهي جالسة على

كرسيّها الذي ينجد كل فترة، ويحدث قطنه وقماشه الخارجي من بعض الثقوب، بفعل شرار يتطاير من سجاير البلايرز التي تدخّنها، وما أن ترى أختي أمامها، أو تسمع مجرّد وقع قدَمِها، حتّى تناجي عليها. تستمتع بالمناداة، وتمسك بالحروف جيّداً خوفاً من فرار أيّ واحد منها. فتتمطّ لسانها على هذه الصورة:

عفُووووووووووووووووو

تشدّ على حروف اسمى أيضاً بيظء:

هلوولللل ..

تضع عفاف في حضنها وهي تسمع الأخبار، وتبدأ بتمسيد شعرها الكثيف والغزير. تضع أصابعها بين خصلاتها، ثمّ تسحبه، وكأنّها تريد أن تضع تاجاً فوق رأسها. فتفقول لها:

أنت ملِكتي، وأنا أنصبّك ملكة على عرش قلبي وهذا الشارع والبيت.

كان صوتها يختلج، فتبدأ بلسمها من بين حنكها ورقبتها. تصير الخالة على وشك التلاشي. خالتi لا تتوّقف حتّى تزهق عفاف من هذا السلوك، فتجري بعيداً عنها. أنا كنتُ أشبك يديّ على صدرِي، وأبدأ بتردد هذا القول:

لماذا خالتi على وشك الموت وهي تُقبل كل واحد منا؟

نعم، أنا أيضاً حين كنتُ في سنتها. فأنا أكبر منها بعامين، وخالتi على وشك أن تكسر عظام صدرِي، وبما أن شعرِي كان قصيراً جدّاً، فكانت تردد وهي تحضن رأسي:

هذا الرأس العنيد، أنت، يا بهجة حياتي.

ثم تدخل في الصمت الطويل، وتشيح النظر بعد قليل عنّي. تعود إلى حالها الأولى. فأحدق فيها طويلاً، وأصمت، وأبتعد حتى وقت العشاء حينما يتناهى لسمعنا أنا وعفاف أصوات خالتي سنية وفتحية، وأمي تدخل هذه المرأة. أصواتهن لا تُسمع، فما إن يتنهيَّ من العشاء، بيقينَ بعض الوقت حول الطاولة. يتقاربنَ جدّاً، فتقوم بيبي وتبتعد بحركة عجيبة من بدنها النحيل، وهي تعوّذ من الشيطان الريجم:

أوي قلبي خلص من القهر. راح يفتحون ويعيدون القصّة نفسها. إي عجب، ما تعبتوا؟! الغايب صارت عظامه مكاحل. كافي عاد.

الغياب

أتمنى، دكتور، لو أستطيع أن أجذبكَ لموضوع هذا الفصل، أعني - الماكينة .. فأنا أراها جريمة، وهذا ليس تقريراً عن تفاصيل تلك الجريمة، فأنا فكّرتُ فيها منذ غادرت المدينة في العام 1969. أله١ت حوله أغاني، وعرفتُ له الموسيقى، وشاهدتُ القاع، قاعي دكتور. هي الجريمة التي بلغت حدود حياتي أنا شخصياً، ولم توقف نارها بعد، ولم أعمل أيّ شعائر لها حتى الآن، فربما هذا الفصل هو الذي بمستطاعي اللقاء بالغائبين، وبالتدريج. أنا مسوق، وبعد تلك السنين كلها، وبعد الضرر كله الذي أحق بي، فها نحن هنا، وقد التقينا ثانية، وبفضلكَ أنتَ. نعم، فرض علىي هذا الخيار، كما فرض علىي خيار الاختفاء من الشارع والمدينة والبلد بأسره، رضيتُ أم كرهتُ. وصلت الأمور بنا، أنا وعفاف كعائلة وجوهر، أن نبدو بلا مسميات. أن تبقى تلك الأسماء في القاع، هلامية، وتسير بمفردتها، لكنها ما زالت تطلق لها. وهذا أنا ذا أستخرج من أعماقي السحiqueة خالي في البداية، فأنا معطوب مثله، فتفتجر البراكين على غير توقع لمرأى التدمير. حسناً، ما هم، مَنْ سيحضر بعدي؟ مَنْ بقي، يا ترى، دكتور؟ أنتَ على سبيل الحصر، هل تم الرجاء منك للإدلاء بشهادتك؟ إذًا، واجهنا بالاتهامات .. الطمنا بما تملك من أدلة، ولا توقف .. على أيّ حال، الأثقال جسام فوق أكتافنا جميعاً، فلنطرحها عنّا، وأمامكَ، فنحن نضع استفهامات، فابق معنا، أرجوكَ:

هل بقي لدينا كثير من الوقت؟ كلا، كم بقي لنا من الوقت، لكي نبدأ
بالبحث عنها مجددًا؟

هل شاهدتها في الفترة الأخيرة، أو سمعت أي خبر عنها؟ أعني متى
كان ذلك؟ وأين؟

يُستحسن أن لا تطمس علينا الأشياء كلها، نقبل بعضها. يُستحسن لو
تجيبني بالدرجة الأولى؛ هل عفاف ما زالت موجودة؟ هل اختفت وسوف
نعثر عليها بعد تلك السنين كلها؟ لا نعرف بالضبط ما هو الأمر الحسن
وعكسه في مثل هذه الأحوال؟ ما زلت على يقين أنك سمعت شيئاً عن
أمرها، خبراً ما مثلاً، أي شيء؛ فهذا يسمح لنا بطلب التحقيق في شأنها.
نعم، أسرفنا في الابتعاد والإهمال، وتقدر أن تقول وتضيف ما شاء لك من
نعوت، وجميعها صحيحة، لكنني لا أبالي وأنا أكتب لك، فأحدس كأيّ
شرقي، أنها موجودة في مكان ما، وهناك من سيمهد الطريق لظهورها
ثانية، وهذا أمر معقول. علمتُ من الأستاذ صميم بالخطابات الرسمية
التي وصلتهم من المستشفيات التي ظلت نزيلة بعضها لسنين، وبعضاً
لشهور. الخطابات كانت مبتسرة ومحابدة، فبدت غير حقيقة. كان الأهل
يبحثون خلف المفردات الطبيعية والتعابير العلمية، ولا أحد يعرف ترجمتها
حرفيًا.. كما علمتُ أن بعض الرسائل لم تصل بسبب البريد الذي أغلق،
وربما بسبب الألغاط في لفظ الأسماء وكتابة حروفها متقاربة، مَرَّةً قلتُ
لحالي، ربما، بسبب أيام الجمعة والسبت والأحد، فتلك الأيام كانت تنام،
لم يخطر ببال أيّ واحد مِنْ أن لا تصل بسبب الحروب، فإلى أين كانت
تذهب خطاباتك، دكتور؟

سيدي دكتور فالينو،

بقيت أنتَ الزائر المنفرد الوحيد الذي ننتظره جميعاً. ونحن، وبدون مبالغة، هدية من السماء، نحن أفراد هذه العائلة، فالذي غاب، نحن سنخوض عميقاً، ونجلب لكَ أسراره، ومنْ بقي أنا الكفيل بالرّد على ما تشاء من الاستجوابات. وهذه فرصة ثمينة لختام سجلّك المهني والعلمي والإنساني. ومنْ غيرك ستفتح أمامه خزائن العقول؟ قرأت في أحد الأعوام: "إن المرض عادة لا يكونون سعداء، وتبين أن درجة السعادة لم يكن لها أي تأثير على احتمالات الوفاة. صحيح المرض يجعلكَ غير سعيد، لكن الحزن لا يجعلكَ تمرض.".

فهل يتوجّب عليّ الحضور بنفسي وأنا أحمل بيدي وكالة ممّن بقي من أفراد العائلة؟ وهذا يعني ما يعني هو الذهاب إلى هناك، وأنا منذ لوحّتُ بيدي في ليلة ينيرها القمر من ذلك العام القديم جدّاً، من القرن الماضي، بقيتُ أرى كل شيء كالبرّك الموحّلة هناك قري، ولم تغادرني، لكنني أنا غادرتها نهائياً، حتى وصل المارينز. حفظتُ صوراً كثيرة، ومرّقتُ كلاماً به بلاغة تافهة، ونسّيتُ كلاماً جديراً بالنقل فعلاً، إلا تلك الواقعـة التي نقلت في لقطة واحدة، ولم تكرر قطّ: "نشرت في فيلم يصوّر، ما يشبه معركة، تضمّ كائنات بشرية. جنّ جنون المراقبين العسكريـين الأميركيـان عندما سمح أحد القادة الميدانيـين للمراـسلين بـ مشاهـدة فيـديـو رـشاشـ إحدـى طـائرـاتـ الأـباـشـيـ، وـقد سـجـلـ سـرـاـ فيـ إـحدـى القرـىـ العـراـقـيـةـ، وـكانـ علىـ ماـ أـذـكـرـ فيـ نـهاـيـةـ 2003ـ. وـبـداـ فيـ الشـرـيطـ مـراـهـقـونـ -ـ كـانـواـ بـعـمـريـ يومـ تـرـكـتـ الـبلـدـ -ـ وـهـمـ يـهـرـبـونـ فيـ كـلـ الـاتـجـاهـاتـ وـقـدـ اـسـتـبـدـ بـهـمـ الرـعـبـ،ـ فـيـماـ تـشـطـرـ رـصـاصـاتـ الـهـيـلـيـكـوبـترـ،ـ التـيـ لـاـ تـمـكـنـهـمـ رـؤـيـتهاـ،ـ كـلـ جـسـدـ منـ أـجـسـادـهـمـ نـصـفـيـنـ".

بِيَّبِي فَاطِم، أَلِيسْ كَذَلِك؟

ما زلت تلوك الدولة العظمى؟ ونحن، بذلنا ما في وسعنا لمساعدتها، وكنت نردد عليها بالإيجاب في جميع ما طلبت. ما زلت بمَنْ بقي فيها، أو غادرها، أو أضرم النار في جمجمته، وأحرق ما بقي من تصاوير، وقصص تضلّله، نعم، تضلّلنا جميعاً؟

نعم، وأنت عزيزى الدكتور، ستلبى النداء، وسوف تتطرق، برغم الكهولة والشيخوخة إلى المواضيع الطريفة، ونخرج قليلاً على الروايات الجديّة، أليس كذلك؟

إذاً ما عدنا للخال الغائب. سيدي، هل ما حصل هو القتل؟ أم الاتحاح؟ لم نعرف سيرة الغائب الذاتية كما يقال. عفاف قامت بتشكيله، وأنا أُلْفِتُ الأغانى في حبه، فأنسدّها لوحدي مع الkitar الذي تعلّمت العزف عليه. نعم، هو الأكثر أهمية مني. عندما غادرت فكرت بالشّخصيّات التي مررت علىّ، وأنت هل تذكري، دكتور، كم شخصية عالجتها، أو جنتتها؟ أو قضت بسبب أدويتك؟ نعم: المقتولين، المُنتحررين، المختفين، المهجّرين دائمًا نراهم ونزيد تتبعهم في عدّة خطوات أو أعوام أو صفحات .. آه، وبالطبع، لا يقبض على القاتل، هل سمعت في السنين الأخيرة، أنه قبض على قاتل، أي قاتل؟ حسناً، أخبرني الآن من هو القاتل؟ إننا نقبض على القاتلة في الأعمال الروائية، وهذه التي بين يديك مازالت مخطوطه عاديه، قد تُرفض من دور النشر كما أخبرني معاذ، بسبب الأمريكان والخمرة، وهو

يُفهّم عالياً، وأنا لا أفهم العالم العربي، فقد تحرّرت منه.. وهكذا، أعددتُ نفسي لتقبّل فكرة الرجل / خالي، وهو محاط بالنساء مثل عمّي مختار، في الغالب، هنّ لا يذكّر اسمه، لكنه يمتلك أسماء الغائبين جميعاً.

هل هنّ القاتلة، دكتور، خالاتي وأمي وأبي؟ أم نحن؟ أم أنتم؟ ولمَ لا؟

هنّ متعدّدات المظاهر والصور. خالي سنية، أتعثّر وأكبّو وأنا أنا دلي علىها، وهذا أنا أستيق الأحداث، وهي فظيعة، ونحن نتمّرغ فوقها وتحتها، وللأمانة، هنّ النساء وأنا بمجرّد ما أذكر عبارة:

.. نساء ..

حتّى أدفع الباب قليلاً، فأسمع الرعب يلتهمني، ولكن الفكاهة تلتحقني أيضاً. هل أستدعي لكَ العمّ مختار أوّلاً؟ أم بببي فاطم وبافي الربع؟ منْ ت يريد أن تكون النزهة بصحبته بعدما مررت على الغائب الأوّل وجنته لرأسك؟ لن أنسى ما عشتُ زفير وشهيق عمّي مختار وهو خارج من الحمام والمنشفة مشدودة بصورة مضحكة على خصره، وقطرات المياه تتطلّل تتضاعف وهو يمشي، وبببي تكفّ في تلك اللحظات أن تكون الوالدة. تلتحقه وتمشي وراءه قائلة:

أي صاروا مئة وعشرين قطرة ماء. الله وأكبير عليك وعلى بطني التي نفختك. كل يوم نعيد الأسطوانة. نشّف روحك زين قبل ما تطلع من المهجوم الحمام. بس شنو نفع الكلام. اللهم أعوذ منك، يا لسانى الزفر.

هذا الرجل الوحيد القادر على تفتيت قلب بببي، تموت وتقوم وهي تعليّ من شأن النظافة. طويل القامة مستقيم الجسد، وكل شيء فيه مشدود بدءاً من الأعصاب إلى حزام المنشفة. يستمتع بأية حركة تشغله

عن أمر اهتزاز يده اليسرى، ففكّرت خالتى فتحية بحياكة كفٌ من الصوف شتاءً، تربطه على الرُّسْغ، لكي تقلل بعض الاهتزازات، وفي الصيف، خاطت له من الكتان الأسمى عدّة كفوف، يستطيع تغييرها كلما لزم الأمر. تضائق في البداية وكاد يبكي وهو يدخل غرفته عندما شاهد البقة الساتان الضغيرة مفتوحة بطريقة أنيقة، وموضوعة فوق سريره. عفاف تقول، هو خاف كأن يده سوف ترك جسده، وتبدأ تطارده، وهو نائم وهو مستيقظ، وأن تلك اليد لن تعود إليه. لكن عمّي وبعد أسبوعٍ فتن بذلك الاكتشاف، فصار يسابق الفصول لارتدائه. يضع الكف في جيبيه عندما يكون في الباص في طريقه للعمل، يتآفف وهو يدفع بإحداهم قائلاً:

هيّا، ابتعدوا شوية، سأنزل هنا.

لكنه لا ينزل.

وبibi هي هكذا، منذ وعيها، وهي تمشي وراءنا فرداً فرداً، ونحن نبتعد عن مرمي لسانها. بقي العم بالرغم من عبوسه والونونة العدوانية في صوته والاستعداد الدائم للشجار معها، فلا يهتمّ وهو يؤدي حالات الترك جميعها: ترك الزوجة الأولى السيدة ناهدة ابنة الحسب والنسب التي كانت تزعجها فجاجة وفظاظة بيبي، فطلبت الطلاق. ترك الزوجة الثانية فضيلة مدمرة متوسطة النعمان، ذات الشخصية القوية. لقد تمّ الاتفاق على العيش في بيتها ومع والدتها، وافق في بادئ الأمر، وبعد أسبوع، حصل الفرار والطلاق. الثالثة ناجية، ذات الأصول العثمانية، والرائحة الزكية، فمنذ أن تدخل الطارمة الخارجية مروراً بالحدائق تستقبلك الرائحة، مثل حليب الأطفال، وهي تشبههم في تقاطيعها وتصرّفاتها، لكن والدتها أرادت تعظيم شأنها وستّها، فجعلتها تشبه السفينة الحرية في ثيابها الغربية ذات القصات المعقدة بالشرائط النازلة للذيل، وهذا مَحْشو بالكريش،

فليّما يدعها أقلّ نحافة ممّا عليه. وما أن تبدأ بالجلوس وأمّها في صدر الصالون، حتّى نسمع أصوات الخشخše من عقود الذهب التي تحرك على صدرها، فما إن ترفع يدها لكي تشرب الشاي حتّى يوشك صوت المعادن على ضرب رأس وأدُن عَمِي الذي يقوم من أمام الجميع كالبرق عائداً إلى غرفته، بعدما يغلق الباب وراءه بشيء من العصبية.

فتشير علىّ بببي بالقيام ودعوته لاحتساء الشاي وأكل الكيك. أطرق الباب، وأسمع الزفير والشهيق واللھاث العنيف ذواتهم، فأمدّ رأسي فقط، فأراه واقفاً وآثار الاستمناء بين يديه. ترتجح تلك الصبية، لكنها لم تنج من لسان وأعمال بببي، فتتمرض بمرض جلدي يشع بسبب المطهرات التي كانت تضعها في مياه الشطف وغسيل الشرافش والوسائل. تقرّحت بعض أجزاء من جسدها، وبدت بشرتها الجميلة الصافية مليئة بالثبور، فاعتبرت ذلك هي وعائلتها الجليلة أمراً شديد المهانة وطالعاً سيناً.

بببي لها وظيفة، هكذا تردد خالتى فتحية:

أن لا تدع أيّ أحد، أو أيّ شيء يهدّد حياة مختار، فهو هشّ ومريض في نظرها. يعني الرجال في هذا البيت من حصّتها، وإذا ما فقدت سلطتها على أيّ واحد، ستتبّعه مخاوف ومصاعب لا تُحمد عاقبتها.

كنتُ الوحيد الذي تسمح لي أن أداعبها من خصرها، فتركتض ورائي في الحديقة، وبيدها خرطوم الماء، فتبّداً برشّي كما تشاء كما ترثّ بعض المارّين فجراً في الشارع وهي تصفعك ولا تعذر. أظنّ أن بببي كانت تريد أحداً يلاعبيها، فلم تفعل أية زوجة من أولئك الزوجات ما كانت ترغب فيه؛ بقاء العُمّ في مجال بصرها ووحدها. جدّتِي امرأة حرّة بالمعنى الفعلي للكلمة، فلا تعرف كيف تخفي الغضب، ولا تقوم بمحجّب الأكاذيب، ورغم

الشجارات الفجّة، لكننا نحبّها كثيراً، وهي قادرة على صنع الاحتفالات الشّعبية حتّى لو استغرقت بضع دقائق، فنداعبها أنا وعفاف، أنا أراقصها على وقع الأغاني الأجنبية، فتفرّ من بين يدي، فاللّحق متسلّلاً بها وبالبستان على لمّ التمر والخلال المتساقط من أجل عمل الخل الأصلي، فنقوم باستفزازها، ونحن نجري وراءها قائلين بصوت وضحك عالٍين:

بيبي، الله يخلّيك، يا ريت تساعدين عمّي على تقطير كل هذا التمر
صنع الخمرة العراقية المضبوطة .. ها، وفي صوت يضعف ويتعذّر قليلاً:

ومن أجلك بيبي، وأجلنا.

تركض وراءنا وهي تشتّم أبي وعمّي والأولين والأقدمين .. عفاف كانت تمسكها من كتفيهَا، وتبدأ بعنقها قائلة:

بيبي الله يخلّيك، خلّينا نفتح صناديق عرسك وثيابك العتيقة، إيه،
ونشوّف صور الزفاف والفنادر. هل كانت مرتفعة عن الأرض كما في أيامنا،
وكم كان علوّها؟ والبابوج القطيفة الأسود أبو الفرو في وجهه قياس خمسة
وثلاثين، ها بيبي بعده يميل على جهة اليمين أكثر من اليسار؟

خالتى تقول، الفرو طار، والكعب انكسر ...

في كثير من الأحيان وأنا عائد من كُلية بغداد عصراً أراها كعادتها في غرفتها وبابها موارب. لم تغلق بابها يوماً. تعرف حركة أقدامنا، فتنادي على كل واحد باسمه، كانت واقفة أمام زجاج النافذة اللامع، تمشّط شعرها الخفيف، وتُحدّث نفسها:

إي البنات راحوا للقبولات والزيارات وأني بقيت وحدي. فتحية تقول:
أنتِ تسوين فضائح. يمكن صحيح. بس شنو فضائح. آني تعبانة وما بقى

عندى حوصلة، وأريد مختار يصير عنده ولد وأشيلهم. بس هو عينه على الكحاب. يمكن هذوله النسوان يرتاح ويأهـن أكثر.. زين، وآني هناك والناس والشـاي ونحن نأكل الكـيك، بـس أـنـذـكـرـ مـختارـ وـولـدـ مـختارـ، أـصـيـحـ وـالـعـابـيـةـ تصـيـرـ عـلـىـ رـأـسـيـ. أـبـقـىـ أـصـيـحـ اـسـمـهـ كـلـ الطـرـيقـ ..

لكـنـ، ماـ إـنـ تـلـمـحـ عـمـيـ وـهـوـ قـادـمـ، فـتـبـدـأـ صـفـارـاتـ إـنـذـارـهاـ فـيـ وجـهـهـ وـهـوـ بـكـاملـ قـيـافـتـهـ. كـانـتـ الـأـرـضـ نـظـيفـةـ وـنـاـشـفـةـ، وـمـاـ إـنـ يـمـرـ بـجـوارـهاـ حتـىـ تصـيـحـ:

ريحة المستكي طالعة من هدولك، والله قمسانك من أعلقها على الحبل تفوح منها ربيحة العرقـ. شـنـوـ هـذـاـ؟ اللهـ هـمـ ماـ يـقـبـلـ عـلـىـ كـلـ هـذـاـ السـكـرـ. أـقـولـ لـيـشـ مـاـ تـزـوـجـ مـنـ جـدـيدـ؟ـ إـيـ، بـسـ مـنـوـ تـرـضـىـ بـواـحـدـ سـكـرـجيـ مـثـلـكـ؟ـ

لاـ أـعـرـفـ هـلـ يـنـبـغـيـ أـفـكـرـ فـيـ الـخـالـ الغـائـبـ فـقـطـ؟ـ أـمـ فـيـ هـلـالـ الذـيـ لمـ تـبـقـ رـيشـةـ فـيـ بـدـنـهـ لـمـ تـنـفـ؟ـ أـمـ فـيـ تـلـكـ التـيـ لـمـ تـأـبـهـ بـنـاـ وـلـاـ بـحـيـاتـهـ؟ـ وـلـكـنـ مـنـ هـوـ ذـلـكـ الرـجـلـ الغـائـبـ؟ـ فـجـمـيعـ الـأـسـئـلـةـ صـالـحةـ عـنـاـ فـرـداـ فـرـداـ دـكـتـورـ. فـلـيـسـ السـؤـالـ:

لـمـاـ اـخـتـفـتـ عـفـافـ؟ـ

مـتـىـ سـتـعـودـ؟ـ

اليـومـ أـقـولـ أـمـامـكـ، كـانـتـ أـخـتـيـ مـحـظـوظـةـ، وـذـاتـ بـأـسـ أـكـثـرـ مـنـّـيـ حـينـ واـصـلـتـ المـرـضـ، فـمـنـ يـتـعـاـفـ وـيـتـشـاـوـفـ بـعـاـفـيـتـهـ الـيـوـمـ، دـكـتـورـ؟ـ أـنتـ، أـوـ أـنـاـ، أـوـ مـنـ؟ـ أـخـبـرـنـيـ، أـرجـوكـ. أـظـنـ الـيـوـمـ، دـكـتـورـ، أـنـ عـفـافـ وـمـنـذـ حـادـثـةـ خـالـيـ سـامـيـ، لـمـ تـعـدـ يـدـهـاـ تـلـكـ إـلـاـ لـرـسـمـ الـجـرـيمـةـ. كـانـ مـشـرـوـعـهـاـ أـنـ تـهـنـديـ لـلـقـاتـلـ، فـتـحـسـبـ فـيـ كـلـ لـوـحـةـ أـنـجـرـتـهـاـ أـنـهـاـ عـثـرـتـ عـلـيـهـ، فـتـقـصـلـ إـلـىـ ذـلـكـ

التميّز والإلحاح على التّوهج في كل معرض من معارضها، لكنها تبهر وتخفق همّتها بعد قليل، هكذا كان يُخبرني الأستاذ صميم. لكنها، وبعد عدّة معارض، كان المحققون يتناقصون، وال مجرمون يتضاعفون.

دهاء الموت

لا أدرى، هكذا شعرتُ وأنا أُبصرها ونحن أطفال. كانت والمدينة والسكان والهواء والماء والياسة، والنوم والحُلم، كلها تتناوب عليها، فيتكاثر المرض، وتجمّع الكآبات. كثاً وحدنا نظر للنائم.

أول مَرَّةٍ نُصر موتاً. ونشاهد ميتاً.

كثاً نسمع به، وهو يتكون من مقطع واحد. نحن جميعاً مجتمعون، وهو وحيد، ويريد مَنْ يمدّ إليه يداً مصافحاً، ومتمنياً له ليلة هائمة. بعد ذلك دخلت خالي سنية منذ تلك الواقعة، وتدرّبت معه وقتذاك على تنظيفي وتغيير ثيابي. ذكرت لي عفاف في أحد الأيام بعدهما انتقلنا لشارع التانكي كلاماً عن خالي:

فتحية:

قالت لي ومنذ تلك الحادثة، بأن عيني أصابها الحَوْل. ربّما، كانت تواسيني وأنا لا أفهم، بس مخالف، يا نور عيني، هذه تُسمّى حُولة حسن.

يومها، هي وأنا، كثاً نرى خالي الوسيم، ونحن في تلك السنّ، وبقينا نُبصره ونحن في العشرين والأربعين والخمسين .. ولم ينهض من مكانه ويغتسل، لكي يقاسمنا المرض .. وها أنا أقاسمه في كل شيء، ونروي لك بعض التفاصيل، لكي ينتشر الخبر، ونببدأ بالتحقيق، ويتحتم على فيما بعد،

طلبك للشهادة، دكتور، أنت أيضاً، ولمَ لا؟ كل فرد مسّ واحداً منّا نطلبه للشهادة، وهذا الخطاب لم ينته بعد، لكن تقريرنا، أنت وأنا، لندعه ليس مضمجاً، وحين ينادون عليك، سنرى الغائبين خلف عينيك. ستقول، لا شأن لك بأيّ واحد منهمما، وأخشى أن أجيبك، أن لك شائناً بكل واحد منّا، نحن أفراد هذه العائلة. فأنا بقيتُ الفتى الصموم أحياناً والمشاكس جداً. أختفي في غرفتي وأنا أحفظ أغاني جماعة "وود ستوك" وأترجم قصائد لبوب ديلان ويتيم هاردين. كنتُ أفكّر بإقامة خيمة داخل فضاء منطقة الكريعات ذات المساحة المضاءة، الشاسعة والممتلئة بأشجار منوعة عمرّة ومتباudeة كالنخيل، وأبنية ما زالت قليلة. نعم، دكتور، كانت لدينا في تلك المرحلة أحالم "الكومونة المؤقتة" التي تسمح لنا بما نشاء من ترديد الأغاني الأجنبية، وأولئك الشعراء الصعاليك الأحرار الذين نستلهم منهم الحرية، يعيشون في الجانب الآخر من العالم: الولايات المتحدة وبريطانيا. كان ذلك في العام 1969، وكانت تلك الأغاني في لهجتها البسيطة الواضحة والمحرّضة ضدّ المظالم، هي التي نتعرض بها وباسمها على كل شيء، في البيت والشارع والكلية. كان عمري من عمر خالي سامي عندما حصل القدر الغاشم. ها أنت ترى، وأنا أقوم، وبعد تلك السنين كلها، وأمامك وأقف مثل المحققين، فنعيid هذا الشخص إلى منزله في شارع التانكي، حيث هناك الوالدان والخالات والأخت، وهناك بيبي فاطم التي يقيم لها المقالب، فيجري وراءه العمّ مختار، ويفرّ منه ذاهباً إلى الشطّ .. نعم، دكتور، أتحدّث باسم هلال كفررين، ولو لفترة قصيرة، كما في السينما، وهذه الفصول تداخل فيها اللقطات القرية والبعيدة كأننا موتي، فمرة يتحول هلال لضمير الغائب، فهو غائب عن الجميع، ويعيش في بريطانيا، وطوراً يعود عبر الأوراق من أجل عفاف وسامي، ومن أجلني أنا أيضاً .. فلندعه في ضمير الغائب، ولو لدقائق، ونشرح العلاقة بينه وخالته

سننية. كانت شديدة الصعوبة والخطورة. هذا كان في الربع الأول من عمره. فلا أحد لاحظ سريره إلا هي، ولا أبصر فراشه المبعق بالسائل الأصفر ذي الرائحة الكريهة كما هي. فكانت تزيحه بسرعة، وتبدأ بتغيير ثيابه، فيقف أمامها عارياً، وهي تشغله عليه، تدخله الحمام، وتبدأ مرحلة الاستحمام. فكان يتمنى، لكي تشرف عليه سننية. بدأ يكبر ويشتت عوده، ولم تسمح سننية لأيّ فرد من العائلة التدخل بشؤون هلال. بقي في عهدها، فتندى على عفاف، لكي تقوم برسمه والغناء له، أمّا هلال، فقد بدا كالطيف وهو يمشي في الطريق العام. تهذّل كتفاه، وصار يتضيق من الذهاب لكتيبة بغداد إلا تحت ضغط الوالد. صار مهزوماً، وعلى وشك الانكسار أمام الجميع، إلا سننية بقيت تمده بالعزيمة. عافت روحه الأغاني الأجنبية، وفي بعض الليالي، كان يسمع صوت الانتخاب من غرفتين متجاورتين.

هذا ليس اعترافي كلّه، دكتور، ولكن، هل تعتقد أن تبولي الليلي الذي استمرّ منذ القدر الغاشم وإلى مرحلة البلوغ، هو تفصيل أساسي ومهم للتحقيق في تشريح ظروف هذا الكائن الذي يرى، أن البول الآدمي، وهو يتساقط من أعضاء الأطفال والشباب والرجال دون إرادتهم، فما علينا إلا التوقف أمام هؤلاء الغرقى كأحد الشهود لما جرى عليهم من أهوال وصعوبات.

البول العراقي

نحتاج إلى أمر آخر بجانب التبَوّل اللَّيْلِي الذي لا أُدُونُهُ لكَ من باب الفرجة والفكاهة، وقد بدأ لي، أنا هلال أيوب وفيما بعد، وأنا أشاهد حمولة الراجمات والصواريخ الأمريكية، أرى وأقرأ وأترجم ما أسقط في الحرب الأولى علينا التي استمرت 42 يوماً ”أُلقيت، 500، 88“، طناً من الذخائر، ما يعادل سبع قنابل ذرّية من حجم هيروشيمَا، أي ما يعادل قبلة ذرّية في كل أسبوع”. كان الهوان يتجمّع وينتَاثر ويلتئم في اليقظة، فيصير الجبين لا يهتدِي لمكانه، فلا أرفع رأسي، ولا يطلع صوتي، ولا يقبل أحد بالنظر إلىّ، فيضحك البول علىّ أول ما يبدأ الليل، وعندما تكون الأشياء عارية، والشرائف وحيدة مكرمشة على جنب واحد. كانوا يُسمّونه تدمير العراق، قالوا محوه، لكي لا يهتدِي إليه أي أحد من أبنائه، ويراهم العميان. كانت أموري تستقيم في البول الذي يقاربني من سنّ بلدي، فأشتري أنواعاً من مزيل الرائحة، لكن الأمر لا يستقيم فيما بيننا. في بريطانيا الوجوه نصرة، بعضها بالطبع، لكننا كالنوارات خرجنا في التظاهرات، وكبّتُ ووُنّقتُ ذلك في يومياتي وأرشيفي: ”ليس ما يوازيها في تاريخ الحروب. فالدملار الذي أُنزل بالعراق - سُمِّيَناه“ إبادة المجتمع“ أو تدمير طريقة حياة بكمالها“. عال، دكتور، فأذنت لطريقة بولي أن تتكلّم، وتصير طريقة حياة، حتى لا أفقن وحدي معكم، ومع ملابسي الدّاخليّة ... ذلك الذي لم يمض بعيداً أيضاً، ولم يربح نومي ومعطفني ووسادتي كما حصل معي في العام 1969 أيضاً .. عندما يتندع مخبرو الحزب الحاكم والرفاق الأشداء خارج كُلّية بغداد،

وهم يلتحقونا وبأسماء شئ، وتحت طائلة التهديد والوعيد، وكلها ممكنة ومعقولة، عبر مانشيتات الصحف، وعلى الصورة التالية كنوع من المزحة:

إِنْسِبُوا إِلَى الْحَزْبِ، تَصْحُّوا.

من الجائز، دكتور، وفي مثل هذه الحالات، إما أن تسفك الدماء، أو يقتصر الأمر أن نبول على أنفسنا، فهذا الأمر لا نندم عليه، وهو يجعلنا سعداء في تلك المدينة. فاللباس الداخلي يجعله يعيش في عتمته، والعام الدراسي طويل، وحقدنا على البول يغلق أفواهنا. أرجوك، لا تقاطعني، دكتور. فأنا بقيت أدور بالدراجة الهوائية، أو مشياً على الأقدام مئات الدقائق، تحت حرارة الشمس، ولا أملك في الكلية، ولا أعود إلى البيت. كنت أرى المهانة منذ الصباح إلى المساء. هادئ الآن بلا شك، أعيد الاعتبار للبول، وأجعله عملاً سذرياً، وأنترك له عنواناً معقولاً. فالبول العراقي ومنذ اللحظات الأولى، وهذا كلام بلا تاريخ، وإلى يوم بلا تاريخ أيضاً، هو الذي يسترد مكانته الشاهقة، كما لو كنا نروي ملادات النفط الآمنة مثلاً، فالاثنان لا يرويان العطش، والاثنان لا ينتشلانني من الغرق.

في تلك الساعات المتأخرة كثيراً، شاهدت بمحض المصادفة السيد الوالد. نعم، أيوب آل. آه، هنا صارت القصة معقولة ربما. فجميع ما قلتُه من قبل كان به شيء من الحيرة والكثير من الوحشة، إلا هذا السيد، وهو يتلفف بالعبارة الوبر القهوجية الغالية التي كانت بيبي فاطمة تمازحه حين يرتديها:

ما هذا، يا أيوب؟ أول مرّة وأنت تلبسها، كأنك تخبئ فرخاً لو فرخين تحتها.

من مزايا جدتي القوية، لا أحد يقاومها، وهي تقدم منه، وكأنها تريد

الإِبْصَار تحت العباءة. ما هذه السَّيِّدة العجيبة؟ لم أقابل مثلها طوال حياتي.

لم تسمع، دكتور، بهذا من قبل كما أظنّ، أعني به اسم الفrex، أو الفروخ. كلا، هي عندنا مثل الطعام والشراب والمحادثة. فحالما تحضر ريحها، تقف على باب الاضطراب. تستطيع أن تسمع زنين إيقاعها بين الحانات والشوارع الضّيقة، والملاهي الرخيصة، وفي الفنادق الراقية، والقصور المُسْوَّبة بالأسلاك الشائكة وداخل الثكنات العسكرية. وتسبق ألقاب بعض العائلات العراقية العريقة. تعرف، دكتور، نعمت المفردة هذه وهي تنهض من نومها في هذا الوقت، وكأنها تمزح معنا، أعني مع بعضنا. فهي تحمل جلبة ما من الخزي الذي يظلّ ملتصقاً ببعضنا وبنا، فنبني صامتين أو خرساً تماماً أمامها، عندما يغمغم فلان عن فلان قائلاً: هذا فrex سري لفلان صاحب الوجاهة والمركز والسعادة، إلخ ..

لم يكن أبي يجرؤ على الرّدّ، ولا كان يعرف هل هذا سؤال؟ أم ماذا؟

هل كان لوالدي فrex ما؟ هل صار هو الفrex؟ وهذا أنا أراه يواصل حياته سرّاً قريباً من البساتين على شكل حرامي.

كان واقفاً يتحادث بهمس أمام باب السَّيِّدة افتخار. خالتى فتحية تقول عنها:

أيّ هى مو زينة، مو راحة شوية.

بيبي فاطم تفجّ الرأس كلماتها وهي تقول كما لو تعلن عن اسم فاكهة: أيّ هى قحبة. اللّهم الستّر.

العمّ مختار كان من زوارها، ولا يخفي ذلك.

لكن أبي كيف؟ كيف؟ ونحن، وأمي ..؟

كانت تُعرف بعاهرة الحيّ الراقي هذا، والشوارع الخلفية والجرداء. الوحيد أنا كنتُ أراها تجتاز القصص كلها، وتسكن قصر الجنرال الذي كان يعبر إليها ليلاً مجتازاً للبساتين والكلاب، ومعه أحد المرافقين. ترى هل هي شقراء؟ أم سمراء؟ عمّي لا يحب الشقراوات .. ونحن لم نكن نُبصرها حقيقة، لكن وجودها يشيع فينا نوعاً من أخيلة لم نعهد لها من قبل. تتجلّ في رؤوسنا، ولا أحد يستطيع الإمساك بها.وها أنا أتذكرها.اليوم، فيتنمّل جسمي. الوحيد الذي أخشى أن يعرض نفسه للهوان هو عمّي، بسبب الحَوْل في عينه، فكناً تهامس أنا وعفاف ونحن نضحك. فمن الجائز، بدلاً من أن يطرق عليها بابها الأصلي، يغلط ويذهب رأساً لفيلاً الجنرال، يسأل عنها، فتجبيه زوجته التركية.

الضوء الخانس والعباءة الورير والرأس المشدود ببغطاء، لم يظهر منه إلا نصف وجهه، وهو يودّعها في ساعة متأخرة من الليل قبل أن يكشفه هلال ابنه أو أحد سكّان الشارع والحيّ. نباح كلاب الكلية كان بطل تلك الليلة، دكتور .. فلا أحد يتحاشى ظهور الأبطال. من الجائز، كان منظر السيد أيوب قد أخافهم، فاستجابت كلاب البيوت والشوارع الفرعية والقصور والفيلات لهذا الحيّ، والأحياء المجاورة وبصورة لا تُطاق، فتحولت الحالة إلى نوع من الرعب، وأحدثت اضطراباً مما جعل سكّان البيوت ينيرون الشبابيك والطارات، والطوابق العليا كلها، بعترفها كلها وصولاً حتّى للحدائق الجوانية، فخرج بعضهم وبأيديهم كشاشات للضوء بأحجام مختلفة. وعلى مرّ الدقائق، تحول النّباح إلى نوع من العُواء الذليل والمريض، كأنه وباء يتقدم ويمشي في الطريق العامّ من شارع التانكي إلى .. باقي الفروع ..

فهذا الحَيِّ مكان يجمع شخصيات ومسؤولين وعسكريين وأطباء ومهندسين وقادة من الحزب وزراء، وفاذرية ما زال مقر سكنهم في كُلّية بغداد، والوالد خاتل بين أشجار الفيلات النازلة أغصانها للشارع العام، لكي لا يتعرّف عليه هذا الحشد من البشر الذين خرجوا من بيوتهم. كنتُ أرى بمفردي كل شيء، وكنتُ إذا ما مددتْ يدي إلى سروالي، حسبي أن أسمع قطرات البول بادئني، فتساهم في راحتني الأكيدة. ظهر بضعة أفراد من جهاز الأمن العام، وربما من الجيش. لاحظتُ بعض التنجوم البراققة فوق أكتاف ثلاثة من أفراده، أو ربما، تراءى لي. كانوا يتکاثرون، ويطلقون الرصاص، ويصطادون تلك الأجساد الضامرة النحيلة المريضة والخائفة مثلـي، فأبلوا بلاءً حسناً حتى توقف البُلـاح نهائياً مع توقف القطرة الأخيرة من إفراـغ مثانتي. شاهدتُ افتخار وهي تلف أول مَرَّة العباءة على رأسها، وتوقف بباب فيلتـها.. عفواً، دكتور، لم أستطع تعداد الجثث التي أعدمت، كـنـا نقف في صفوف كما هي صفوف الدموع التي كانت تتلاـأـ في عتمة الليل. في تلك الليلة، لم يعد ذلك الهلال إلى البيت، ولم أشاهد أحداً من سـكـان الشارع والمدينة والمدرسة. بقي صديقي وزميلي في الصـفـ سمير، الوحـيد الذي رغبتُ أن أخاطـبه قبل رحـيلي، لكنـي عجزـتـ عن ذلك، مررتـ بـجـوارـ بيـتهـ، ورفعتـ رأسـيـ إلى غـرفـتهـ وقلـتـ:

أسعدـتـ مـسـاءـ، يا صـديـقـيـ الـوحـيدـ.

بعد شهور طويلة جداً، بعثـتـ له بـطاـقةـ بـريـديةـ منـ المـملـكةـ الـمـتـحدـةـ التي فـرـتـ إـلـيـهاـ بـعـونـ منـ الأـسـتـاذـ صـمـيمـ، جـزـاهـ اللهـ خـيرـاـ، وـتـلـكـ قـصـةـ أخرىـ. وـمـنـ دونـ ذـكـرـ اـسـمـ، ولاـ عنـوانـ، وبالـلغـةـ الإـنـكـلـيـزـيةـ، وـعـلـيـهاـ صـورـ لـكـلـابـ تـلـاعـبـ جـرـاءـهـاـ، وهـيـ خـارـجـ جـلـودـهـاـ الـجـلـدـيـةـ وـالـمـعـدـنـيـةـ، وـأـقـافـاصـهاـ الـحـدـيـدـيـةـ. نـعـمـ، دـكـتورـ، لـاـ تـفـاجـأـ فـيـماـ لـوـ عـرـفـتـ، أـنـ لـدـيـ سـبـبـاـ مـقـنـعاـ، وـأـنـاـ

أعرف أن موضع الشّرّ لم يكن هو البول ولا إعدام الكلاب. كان قد حصل معي أمر مُسلٌّ وصل حدوداً أن جعلني لا أرفع رأسي وأنا في إنكلترا، هو:

زوجي من سيدّة شبه خرفة وثيرة، أجمع لها كلابها الأربع للقيام بنزهتها يومياً، وصون حياتها، والعناية بصحتها، واستحمامها اليومي، وتنظيفها من البول اليابس، ورفع غائطها من الشوارع، على شرط أن لا يُسمع لي صوت.

الفصل الخامس

نعم، المرض موجود، لأنّه ضروري

<https://jadidpdf.com>

الدكتور كارل فالينو

ابدئي من أول السطر من فضلك. يا آنسة، التاريخ مهم، تاريخ الميلاد. تاريخ بدء تعارفكِ بكيوم، إذا شئتِ، يونس، وياسين وطرب، وباقٍ أفراد عائلتكِ. أليس هؤلاء الرجال والنساء هم الذين يفلتون من لسانكِ، ويتحركون بيننا، فتحضر بعض الأسماء من حين لآخر؟

هكذا، أيها الأساتذة، يطيب لي الردّ على بعض الاستفسارات التي وُجّهت إليّ من طرفكم، بعضها يظلّ عالقاً في ذهني. إجرائياً، لستُ مخولاً أو ملزماً برفع تقريري الطبي مع إدارة المستشفى التي كان لي فيها عيادة ومقدّع ومدرس، فأعيده إليكم. أمسك يدي الآن، وأشرع في كتابة شيء مختلف. نعم، نعم، أتذكّر الآنسة إبّاها جيداً؛ عفاف أيوب آل، والكلمة الأخيرة لم أفهمها. حاولت شرحها لي، فتضاعفت غموضاً. أجل، موافقتي جاهزة للزيارة، لكنني اليوم رجل عجوز، أمسك العصا في يدي اليمني بدلاً من القلم، مساعدتي القديمة التي كانت عشيقي، وهي اليوم زوجتي، أقول هذا، فالسيّد صميم تعرّف عليها من قبل .. اليوم هي التي تقوم برعايتها، وقد صارت مُسنّة أيضاً، لكنها أكثر حيوية مني. عليكم بدعوتها لطفاً، فلن يكون بمقدوري الحضور دونها.

أنا منحاز لتلك الآنسة، منحاز لمرضها حتّى. عليّ أن أشرح الأمر قليلاً؛ نحن نُضيّع الكثير من الوقت في تحديد سياج العقل وحدوده، ولا نستسيغ ما يُطلق عليه حالات الهوس والهستيريا والاكتئاب والفصام، ففي أحد

المؤتمرات التي أقيمت في لوزان في منتصف التّسعينيّات كانت لدى ورقة صغيرة، عليها بعض السطور منها: (إن ما يحصل لنا لا غنى لنا عنه)، ولكن، قد لا يستلطف الآخر طريقتنا في استخدامنا لذواتنا، إن الجنون في أدنى حالاته، ولنقل ذلك منذ البدء، موجود لدى كل امرئ، متکور في بقعة في ألياف الجمجمة، وعلى غير موعد يتسلل، ينحسر ويكشف عن مكانه. الآنسة عفاف كانت لديها كلمة مخيفة، لم أصدقها في بادئ الأمر، لأنها علمية جدًا، ولا أعرف من أين توصلت إليها، هل قرأتها في بحث، وهذا غير معقول، فالبحوث من هذا الوزن لم تُترجم وتُنشر في الصحافة، أم أن حالتها النفسيّة جعلتها توصل إلى فيها، عندما قالت لي في إحدى الجلسات، وبصوت هادئ، وربما طفولي:

الجنون موجود، دكتور، لأنّه ضروري كالعقل.

ظللت تضحك بطريقة عقرية، فلم أصادف مخلوقاً توصل إلى هذا الحدّ من اليأس الهادئ، كما وصلته عفاف في تلك الجلسات. فجعلتني أسئلة بدوري وأنا أقوم بفحص أفراد عائلتي جميعهم في رأسي: والدّي وزوجتي الأولى وهذه العشيقـة التي ما زالت كما هي، فلم تنزوج إلا مؤخرًا. أصدقاء وصديقات المهنة، الجيران وصاحب المكتبة والخبازة .. و.. فهل هناك أمراض ترثّص بنا، فنقع في حبائـلها، ونكون موضع شفقة؟ وهناك أمراض ذات مواصفات نوعية، وليس بمقدور الجميع الإصابة بها، فما عليك، والحالـة هذه، إلا تقديم الحجـة: بأنّها مفصلـة عليك، بلا زيادة أو نقصان ..

وعفاف من أيّ فريق؟

أعتقد جازماً، وأنا لم أصب بأيّ نوع من أنواع الخرف، يا سادتي

المحترمين، أن الآنسة، لم تحتاج إلى أيّ أحد آخر. لم تحتاج أيّ شيء من أيّ فرد في العائلة، من أيّ رجل أغمضت به، أيّ شيء من بلدتها. كانت فقط تحتاج أن تكون نفسها، فكان عليها ربما، أن تنتظر، لكي تصاب بنوع نادر من الفُصام، فتكون نفسها الأولى أو الثانية أو .. أو ..

كانت أكثر المرضى العرب دقةً، بالرغم من التيه الذي تدخله وتطلع منه، فهي صاحبة لسان ساخر وفكاهي، فتقوم بالتهكم المحبب، وعلى صور شتى. فأنا لا أعرف معنى اسمها - عفاف - فقالت لي في أحد الأيام شارحة إياته:

لماذا يكون لازماً عليّ، دكتور، بقاء اسمي عفيفاً نظيفاً، ويلمع كالحذاء الجديد، فيُصدر صريراً كلما اقترب رجل متى، وأنا ألتقي به في أيام العيد والمناسبات؟! .. ها .. لماذا يتعرض الاسم للتهريج، فيعدو كالحذاء يضيق أو يتسع على القدم وصاحبها وحسب المناسبات الوطنية والغرامية؟! ..
هييهه ..

كنا نصغي للتحليلات، وفيما بعد، كان الطّبّ الحديث يؤكّد لها، وهي تُجاهر بها، وعلى صور شتى للفكاهة فقط:

لا تُصدّقني، دكتور، إنّ أخبرتُكَ أنّ قدمي تكبر كل خمس دقائق، فكنتُ أتمّن رضاها عنّي، فأصير على قياس القندرة الجديدة .. ها ها ههههه..

كانت تضايقها فوق التّصور كلمات مثل:

هل أنت مهاجرة؟ أم لاجئة؟ أم منفيّة؟

فُطلق قهقهة ساخرة، وهي تجيب الدكتورة مليكة إدريس قائلة:

أرى نفسي في الحالات الثلاث وأكثر، مربوطة اليَدَيْنِ من الخلف،
ووجهِي نحو الحائط، والجدار ممتدٌ بثقوب من الرصاص، لكي أُسِيرُ في
شوارع مدینتكم الجميلة التي تُشعرني دائمًا أنها في صدد تقويمِ وتصحیحِ
شيءٍ ما في وجهي، أو رأسِي أو ملامحي أو لساني، دائمًا تُذکرني، أنتي
نسیتْ شيئاً ما هنا، فأنكِسْ رأسِي، وأبصِر قَدَمَيِّ، وأنَا أحبَّهما جدًا جدًا
.. فعندما ترك بلدنا، يا تُرى، هل تبقى أقدامنا هناك، ونحضر بعڭازين
لطيفيَّن يُشيران الشفقة في نظراتكم إلينا .. ربِّما، نحضر بقدَم واحد فقط،
وضدًا لإرادتنا، ونترك الثانية هناك، وأيضاً ضدَّ إرادتنا. انظر جيدًا لمشيةِ
أيّ عربٍ مهاجر أو مَنْفي، دكتور، له طريقة في المشي تدفع به للحائط،
فلا يستطيع أن يكون في الوسط ..

كانت تضحك بصوت مسموع، وتواصل: أُستطيع أن أفرز العشرات
والمئات والألوف من العرب والجنسيات الأخرى أيضًا من وسط الملايين
بواسطة مشيتها الخائفة المتهدلة كثيابهم؟ غطُوا رؤوس الغالبية،
فأقوم بالعمل على أكمل صورة.

بِينلوب وعوليis

لم تكن سعيدة في المنفى، ولم تحنق على بلدتها، فكانت وحيدة في المكائن، وهذا ما استغرق أعواماً طويلة، جُلّ حياتها. نعم، هي فنانة من طراز خاصّ، متميّز. فكانت تنمو بجوار فروع الشجرة الكبيرة للفن العظيم الذي عثرت عليه في متحف باريس. لم توافق على قول:

ها، ألا ترين نفسك محظوظة؟

فتجيب بصوت خفيض وبعيد:

هذه المدينة لا تمنح رُبعاً أو جُزءاً من الحظّ حتّى. هي مدينة مستبدّة، تدوس على أصابع اليَدَيْنِ، وأحياناً القَدَمَيْنِ، فيما إذا تهاوناً مع النفس.وها أنا أرى نفسي مريضة، وكأنني أستحقّ ما أنا عليه عقاباً على نباhti، ربما.

بغثة ترفع رأسها، وتنتظر في عيني:

غريب أمركم، دكتور، أعني أجدادكم الإغريق، عندما كان يتم التركيز الشديد لتطويل فترة الحنين عبر عائلة عوليis وزوجته المستسلمة وطفله تيليماخوس، فيتم تصعيد احتياجات المحارب للتعويض عن الأوقات السيئة والخسائر المتواتلة في الحروب، فغدت إيشاكا، شخصية سرديّة مُهلكة لمن يتنظر الوصول إليها. فنرى عوليis يحرج قَدَمَيْه "كصياد مرتحل"، وهو لا يملك ما يعارض به القدر، والمدينة على بُعد إصبع

منه، فلا يصلها. يتجمّع في فمه ما لا يقال، فلا يتفوه بكلمة .. فهل تغيرت الطريق إليها؟ أم غادرت إيشاكا، وارتحلت؟

فحسب خطاب هومير، الوقت يفلت من بين ذراعيه، والزوجة لا تغادر خرسها، العابر للخرساوات المكتبات المنتظرات جميعهن دونما غفوة ولا نوم، وعلى طول سرديّة التاريخ، ألم تشاهد يدها يوماً، دكتور، وهي تفك كبة الخيوط تلك، وتعيدها؟ فبماذا تذكّر؟ كلاً، ليس بالحكمة والصبر؛ بالتسوّل وبالعوز رسمت يدها، وهي تسّوّل ظلاً لعليس، وهو ينهض مبتهجاً من بين أحضان "كاليسيو". ما الذي نراه فيها؟ اليد، والذراع، الأصابع والكفّ والرُسْغ. يدان هاريتان، ويُغمى عليهم دائماً، فتقرع الأجراس، لكي لا تتوقّف عن تلك التعasse.

في إحدى المرّات، يا عزيزي أستاذ صميم، وصلتنا عفاف في عربة الإسعاف، وفي ساعة متأخرة من الليل. أُعطيت مُنّوماً حتى حضور الأخصائي. لم تكن تحت إشرافي، لكن المستشفى حولها إلىّ. رفضت زيارتي في البداية، فقمت بالمرور ومراقبتها وهي نائمة. كنت أزور باريس في العطل والإجازات، وهذا هي أمامي تلك الآنسة الغربية والجذابة، التي توّقّفت زيارتها لعيادي الخاصّة في شارع جاسمان، بعدما، تأكّدنا، هي وأنا، أنها في طريقها للشفاء .. فماذا حصل بعد سفرني وغيابي؟ كان التقرير المكتوب عنها مؤذياً وقايسياً. وضعوا في كيس بلاستكي خصلاً طويلة من شعرها وقد قطعته لا على التعين، من أمام، وجنب، ومن الخلف. وكانت بشرتها ما زالت تحمل ندوياً غائرة، بعضها تُرك للهواء لكي تجفّ، ووضع فوقه مسحوق أبيض، والبعض كان خفيفاً على مستوى سطح الخدين. رموشها، على وجه التقريب، كانت في الحد الأدنى، فهي غير موجودة. لقد وقفت في الفراندة بعد أن حاولت أن تقذف بنفسها إلى الشارع

العام من الطابق الرابع. كان الحدث قد بدأ، وهي تظهر يومياً في الفراندة، وتقوم بالغناء أغاني عربية، وبصوت عالي، وفي ساعات متأخرة من الليل، ثمّ يتحول الغناء إلى أصوات هستيرية، ونداءات وصرخ، ثمّ تعود للغناء .. وتببدأ بضرب رأسها في الحائط، فتصل حد الإغماء، فيصعد رجال الإطفائية مادين سلماً من الخارج، فيجدونها مدمّة ومغميّ عليها. وما إن تفيق قليلاً، فتصرخ باسم:

كيوم .. كيوم.

هل سبق لكم، أو لأيٍ واحد منكم أن سمع بهذا الاسم؟

تأكّدتُ من شفائها من السّيّد ياسين على سبيل المثال، والذي سنأتي على ذِكره، والسيّد يونس كانت تود الاحتفاظ به إلى أوقات غائرة، لكي يبقى في مكانه الذي لا تعرف هي أيضاً، هل يظلّ بمفرده؟ أم ذهب إلى غيرها؟ فكان يرد اسمه وهي تتلقّى فيه العلاج، فتقوم بتصفح أعوامها في الأكاديمية بطريقة اللغة اللطافة، وبها شيء من التعاطف والحنان، فتقول:

لو بقيتُ في تلك المدينة، لمددتْ يدي له، وبحثتُ عن روحه، وفيه جانب صغير يُشبهني: الشقاء الذي يحمله كعبه، وليس مثلـي كمزية.

أستاذ صميم، سنتقى بالسيّد يونس أم لا، ونحن ندخل هذا المشهد من جانبه الفنّ؟ هل سأراه؟ وأخمن أنه سوف يسألني:

هل تعرّفت على الآنسة عفاف أمّاكم؟ هل قامت بشتمي مثلاً، دكتور، كما كانت تفعل هنا حين نتمشّى ما بين الجسر الحديدي والكورنيش..؟

أريد أن أرى السيّد يونس فيما إذا حضرت. أتمنّ أن أبقى حيّاً ومتعاوِفاً، لكي أصلكم وأنا على ما يرام.

لأعرف ما هي خططكم جمِيعاً، لكنني كنتُ أعرف خططها:

أن لا يقوم أيّ أحد بإسعافها مما هي عليه، فتجلب مَنْ تشاء إِليها، وتصرف أيامها كلها في المشفى، وهي تمكث أمام مسند الرسم. نعم، جلبوا لها هذا، وبعض الأدوات غير الجارحة، وعندما تقوم بالتحطيط، وتطلق روحها في اللوحات، كانت تخلد للنوم بطريقة مريحة، ودون الاستعانة بالدواء. ذهبت للإغريق وحربهم كثيراً، فكانت تصاحك بصوت لطيف، ونحن من وراء الإفريز نحاول أن نصغي وننظر إليها، على الخصوص، عندما أكون أنا في زيارتي الخاصة للاستشارات المصادف يوم الأربعاء، تحسّنت كثيراً، وعرضت عليها الزيارة في العيادة الخاصة، إذا شاءت.

كانت تتدفع في وضع الأشكال والجحوم، وهي تبعث الضحكات لمرأى كائنات اللوحة، فتضيع بينلوب في الكادر الأسفل من اللوحة، وتخاطبها وهي تحفر على خصلات شعرها، فتدفعه يصل إلى أخمص القدمين، فتكلّمها بصوت هادئ، وكأنها صديقة قديمة لها:

اعتقدت أن تبقى ساكتة كالموتى، وأنتِ على قيد الحياة، هل يعقل أن لا تتفوهِي بكلمة عبر الملاحِم والكتب والحروب كلها التي مررت بها، أيّتها السيدة المضجرة الحزينة، المسهدة والمريضة مثلِي. والسيد عوليس، ينتابه دوار البحر وغشيان وقيءٍ وضيقَ نفسٍ، فيُنهك جسده، ويُتعب بصره، فلا يبلغ بيته، ولا بطن امرأته .. ولا يلبث أن ينصرف في كل مَرَّة لزيارة تلك الحسناء.

ما هذا، أيّتها السيدة التي لم تقف بجانبها إلا كَبَّة خيوط رقيقة، وتجهل متى بمقدورهم أن يُوثِّقوا بها يَدِيهَا وساقيها ولسانها؟

يغتم صوتها، وما إن نحاول مشاهدة اللوحة، فنرى: لحية عوليس طائرة في الهواء كأنه مدرب في سيرك، وأمامه رجل عصري، يرتدي الشورت وهي شيرت، من الجائز، أنه كيوم، وهو شديد الهزال، وما إن يبدأ بالقيام، فتخرج من قوائمه بعض الأشياء التي لا نعرف ما هي ...

كانت تبتعد قليلاً، لكي ترى اللوحة. وفي الأسبوع الذي يليه، تبدو هادئة. تأخذ قدح الماء الذي أمامها، وتبُلّ ريقها وهي تقول، كأنها تواصل كلاماً انقطع، فلا تعرف من يكون الواقف قبالتها:

هدأت بعد ذلك عفاف، ولوقت طويل أستاذ صميم، عندما أكملت معرضها، وهي في المستشفى. قدمت متواالية من حكايات الشرف والواجب والنصر التي دفعت هومير لتدوين الإليةادة والأوديسة. طلبت أن يكون الافتتاح في ساعة متأخرة من الليل، وفي رَدْهَة، أفرغت من المصاطب الطويلة الخاصة بالمرضى، قامت بتغطية اللوحات جميعها بشراسف بيضاء. بقيت جانيت والدكتورة مليكة والبستانى، هؤلاء كلهم مَنْ قام باللازم في رفع اللوحات ذات الحجوم المرئية الكبيرة نوعاً، ووضعها على الجدران. وما إن بدأت بسحب الشراسف، وبالتدريج حتى خرسنا عن النطق. كانت أشكال بينلوب شديدة الشهوانية والخلاعة. وضعت في حجرها مجموعة من الأعضاء الأنثوية محفوظة في زجاجات مليئة بالأفاغي ويد ما، تقوم بالعبث بها، فبدت متهتكة، نظرات عينيها جاحظة، وهي تقوم بالبحث عن أسيرها. كانت، تقرباً وحدها، والسيّد عوليس، أمامنا كالهيكل الفارغ، مجرّد عضلة على صدر فارغ، وعلى جِلدِه وبر، وشقوق تملأ ذراعيه. وهناك شخص آخر، صعلوك، متشرّد يتقدّم خطوة واحدة على عوليس، لكنه مطاًطِر الرأس، كيوم، كأنها تأمره بالتقدّم وعدم التراجع .. فكان الاثنان يمثلان لأوامرها، لكنهما لا يصلان إلى آية واحدة منهُنَّ.

نعم، أيها الأصدقاء، كان المعرض فريداً وغريباً ووقداً حَقّاً، فقد تدرّرت على تفكيك الأساطير، فسمحنا لها طبّياً وعلمياً بالخروج. فوقفت أمامنا وهي تنقل المعرض إلى كاليري - سفن / 7 -. فتّانة مقتدة، تدرك ما كان يدور فيما بيننا من نقاش، وهي توافقني قائلة:

”عملية الإبداع“ أبعد من السماء، دكتور، وكل شرفه أصلها تضاء،

فأحسب أنني نجوت، أو وصلت إلى الجواب الأول، لكن الأطياف تبعني،
والكآبة تنهض مثل ظلي، فأعاود من جديد، من أول الطريق.

واجهت باريس الخطيرة بمعجم عوليس وكيم .. ويوم دعوت أحد أهم
وأشهر نقّاد الفنّ لزيارة المعرض، كتب في دفتر الزوار كلمة واحدة، تحفة:

.Chef'd'oeuvre

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدمفون
<https://jadidpdf.com>

عفاف الشخص الوحيد الذي أنتظره

ملحق خاص لـ الدكتور كارل فالينو خطاب رقم 2

سندع الأمر محتمل الواقع، وهو: كنتم تشغلوتنا بكم، وأكثر الأحيان تُزعجوننا في العابكم. كنتم بالفعل نزلاء معنا، تمشوون في دم وألياف عفاف، ودائرة حياتها، فكانت تقضي أسراركم كلّما ستحت الفرصة. فنلمح أطيافكم واحداً بعد الآخر، ونكتشف رويداً رويداً خطوط الملامح، ولهجة المعارضة التي توجّهها لكل واحد منكم. فهي تعارض بدون انقطاع. لماذا أعود وأدّون قسماً آخر، عزيزي الأستاذ صميم، فقد حضرت بعض الواقع دون إرادتي، فبدا الأمر لي ولزوجتي، كأننا جميعاً في حالة من انقطاع الأنفاس. في أحد الأيام، كتبت لطرب، وبعد زيارتكما معاً لعيادي في شارع جسمان في الحي السادس عشر. لم تزل هي كما كانت، ولكن سكنها ابن زميل لي طبيب شاب ... وكان ذلك في العام 1987. كانت لغتها الفرنسية بدأت تحسّن كثيراً، فتكتسب بضعة فراسخ أمامي، ونحن نتحاور في الفنون. هذا الأمر دائماً كان يشغلها، فتندفع من معرض لآخر، وتعرّض على خلاصة ما كتبته لطرب قائلة:

”أخبرتها، دكتور بعد إذنك، إنك على دراية تامة بإشكالية الإبداع أكثر من أستاذها فايق حسن في أكاديمية الفنون الجميلة في بلدي. سوف أشرح قائلة قبل أن تقول عنّي، إنني عاقة مع أساتذتي. فأنا أرى الأمر، أن

هناك رساماً موهوباً مثله مثل الطباخ الذي يجيد طبخة واحدة، ويعيد ما يراه إليها. وهناك طباخون، يُحولون كل شيء إلى طعام لذذيد. لكن، هناك طباخون لا يجيدون إلا طهي طبخة واحدة بحد ذاتها. أستاذي فايق حسن، درس في البوزار، قرأ اسمه في الأرشيف، وشعرت بشيء من الزهو. يا دكتور، أستاذي لا يجيد إلا طهي صحن واحد لا غير، أعني هو حRFي فقط. وهناك مبدعون فوق الحرفة، كما هو الحال مع بيكانسو ومشاهير الفنانين".

كَنَّا نشعر في المشفى أن هناك صراعات خفية بينها وبين طرب وعملنا، أنا لا أعرف بالضبط لمن أُوجِّه هذه الهوامش والتفاصيل، إليك؟ أم ستطالعها طرب زوجتك أيضاً؟ فأنا أكتب ما أشاء، كما لو كانت هي اللقطات الأخيرة المطلوبة من المخرج، وضعها قبل إسدال الستارة. بقيت تتناقل لي، أو يكتب عنها في التقارير، وعن أحوالها، في الحواشي أو توضع في ملحوظ على حدة: ظلت السيدة طرب تخاطبها بالهاتف في الأعوام الأولى من دخولها إلى المستشفى، وكان ذلك بعد سفره ببعضه أعوام، ربما إلى منتصف التسعينيات. هكذا حصلت على معظم أرشيفها. كان ينادى عليها وهي في غرفتها الانفرادية. في البداية وضعت هكذا، فهذا أسلم لها بالدرجة الأولى وللجميع. كانت الممرضة جانيت بارعة في تهدئتها، فقد بقيت قادرة على الكلام والصراخ والغناء. نعم، كان مسماً لها بالخروج من غرفتها، تمشي بهدوء، وتصل إلى الهاتف، وترى السّمّاعة على جانب من الطاولة بانتظارها، لكنها ترفض المحادثة. في طريق العودة إلى غرفتها، تبقى تردد كلاماً، كَنَّا نشعر أنها تحولت إلى لازمة ساكنة تحت لسانها، واستطعنا ترجمتها فيما بعد إلى:

تفاهمه.. كل هؤلاء تفهه، ما عدا طببى مسيو فالينو .. أين الدكتور كارل؟ سأغلق أمامكم الدائرة علىّ، فنصير أنا وعقرب الساعة

نمسي ونقف حسبما نشاء نحن، لا كما يشاء هؤلاء، فلا أسمح إلا للدكتور فالينو بإنقاذني.

ظلّوا يُسجّلون ذلك كنوع من الأدلة، وهذا هو حال كل مريض، وما إن أزور باريس والمشفى في الإجازات، فتلتقي أنا وهي .. لم تنس أحداً ونحن نراهم يتوافدون، فتقذفهم جميعاً، إماً كقصة في موقع تزيد أن تتحقق من وجود أشخاصه . في حركتي ذهاب وإياب في تجلياتها العقلية، أو هلوساتها، وإنما، أنها في الأصل تزيد أن تكيد لبعضهم لسبب من الأسباب سيتوّضّح على طول ساعات الجلسات مثل ياسين وطرب، حتى هلال شقيقها بقية، لا تزيد ذكره، ولا تزيد أن تدلّ عليه، أن لها أخاً واحداً. كانت تخشى من عبوده الشحيح في حياتها، فأطلقت على علاقتها به، تلك التي بترت لأسباب خارجة عن إرادة الجميع:

أي هلال بمعنى الأخوة، علىّ أن أقطع لك بعض المشاهد، فأجعل منها ملحاً تقدر أن تقدمه للعلاج النفسي. كنا نتجنب أن نقع معاً فريسة للألام المتوحدة، لسقّام يصيب الأخوة والأخوات، وتحوك حوله عشرات القصص والعلامات، وأنا أمامك الآن، دكتور، جالسة ورأسي منكس، ولا أفهم تلك العمليات التي تجري في دماغي؟ كنا نذهب أنا وهلال وخالتى سنية في رحلات مرتجلة، وندور في ضواحي الشواطئ الفرعية من شارع التانكي حتى يظهر الشاطئ الآخر ووحده أمامنا عارياً أملس. فكان هلال يدندن أغاني البيتلز، وأنا يشقّ صوتي بلعومي ويرتفع بمقطع تهواه سنية، لامٌ كلثوم. هل سمعت بهذا الاسم، دكتور؟

تبدأ تدندن أمامي، وأنا لا أفهم إلا أن صوتها جنوني في فتنه وقوته:

”ده أنا لو نسيت اللي كان“

وهان على الهوان
أقدر أجيبي العمر منين
وأرجع العهد الماضي
أيام ما كننا احنا الاثنين
أنت ظالمني وأنا راضي”

فريق العمل

لم أر أحداً منكم إلا وهو واقع في شباكها. الجميع في موقع وعلى درجات، وما علينا، أنا في البداية، ثم تولى الأمور غيري، وهم كثُر. أعرف بعض المسارات والخطوات، فالبدايات، إذا جاز لي القول، كانت مثالية؛ بمعنى، عفاف مريضة، طبعاً بالمعنى العيادي، لكنني أستطيع أن أضع عناوين فرعية؛ ما بين السهل والجبل والوادي، وبعض الفصول تسلم لغيري. إذا، فلنقل إنها مريضة تحمل أفعالاً مبتكرة، درامية، فقد انفجرت في أحد الأيام، وبدأت تعزف بلسانها ألحان الإسباني الشغوفة به، مانويل دي فايا، أو تقوم فجأة، فتؤدي بعض الحركات الخارقة ببدنها وذراعيها، وهي ترفعهما إلى أعلى، فتصدح ببعض المقاطع لماريا كالاس، ثم تجلس وتسأل:

ماذا نفعل، دكتور؟ أنا أريد الالتفات إلى وراء، وليس لديكم إلا هذا العناد في جعلي ألتفت، فلا تستغرب مما أرى وأعيده أمامك، فنحن النساء أصعب منكم، ولهذا السبب نحن، ربما غير جديرات بالثقة. إننا أصعب في العلاقات مع بعضنا أكثر من علاقات الرجال مع بعضهم الآخر.

فتبدأ بسرد بعض الواقع مع طرب:

أجل، دكتور، هي مهووسة بصورتها، أو رمزية تلك الصورة أمام الآخرين.

المكياج، الثياب، الجواهر، الأحذية المرتفعة، التنانير القصيرة جدًّا، الاستعراض الذي لا يحرّف النظر عنها، وهي تعيش المغامرات في الرأس والحلُّم، وليس الواقع، بمعنى إضافي، دكتور، طرب تعيش خارج ذاتها.

في أحد الأيام، قالت لي طرب كلامًا، فقهت بعده طوبيلًا، يا دكتور:

هل تصدّقيني، يا عفاف، إذا أخبرتك بأنني أغارت منك، ومن درجة الانقضاض التي تقومين بها على نفسك، لكي تفوري بها، فتسخرين من الأصحاء الأغياء جميعها، ونحن ما زلنا بعد في المرحلة الثانية من أكاديمية الفنون الجميلة. دعني أقول لك أمراً، ما زلت لا أعرف تفسيراً له:

هل تحايلين على متابعيك الروحية والنفسية بالغناء والرسم والتصميمات التي تقدّمينها للأستاذ معاذ الألوسي؟ فنقومين بنقل وجوه وشخصيات أبطال الكُتب والروايات والملاحم، فتوثرين الحياة بجوارهم ومعهم أكثر مما تعيشين معنا؟ هل تطمسين رغباتك الخفية، وجروحك من ياسين ويونس، وحتى مع الأستاذ معاذ، بهذه البوتيهات والتحليلات النقدية والفنية الصارمة والدقيقة جميعها لأعمالنا جميعاً، وأنت ما زلت طالبة، فبتنا نحسدك كلنا، وبدون استثناء.

فيما بعد، بعد ذلك بأعوام، وضعت إشارة رفض للقاء بطرب، فيما إذا حضرت لزياراتها في باريس. كان هذا كما تعلم في أواخر التّسعينيات على ما أذكر، وأنا أراجع التقارير. كانت تحسّنت كثيراً، وتسرّب الرجال الأوائل منها، انطلقوا في مواعيد متفاوتة. أنقام بعضهم نشار، وبعضهم خافت، وبالتالي عالي النبرة. هل كانت قصص الحبّ حقيقة؟ فالسّيد ياسين وضعناه في مقدمة المسّرّات القاتلة، ولكن، أين كانت تتمّ تلك

اللذائذ؟ في غرفته في الطابق العلوى والنهر دائمًا يؤلمها، وهي تجلبه إلى لسانها، كأنه خدعها مثل ياسين. فكانت تراه من مبدأً؛ أن المياه تصلح دائمًا أن تكون مرجعًا للموت، أو مفهومًا فنيًّا ونفسياً، ولكن، لا تملك أدلة إلا غرفة ياسين الذي كان يجعل الرغبة لديها توسيع، كما كانت ترى اتساع مجرى النهر بدءًا من مسام البشرة وهي ترفع كُم قميصها، وتبدأ بعصر جلدها أمامي حتى يكاد الدم ينفر منه، فتقول:

ياسين كان يدخل من المسام، وينتفخ في الشفتين، ثم يصل إلى وجهي. هو لا يرانى، دكتور، ولا يمسك خصلة من شعرى، ولا ينفع الهواء في وجهي حتى، فأشمّ بخاره ونفسه. رسمته بالدشداشة المقلمة القصيرة على بنيته الطويلة، فكنت أرى شعر ساقيه، فأبرزه في اللوحة، وأنا المسه، وأكاد أجزه، فيكاد يصرخ أمامي، ويطلق علىي ألقاب الطفلة الوقحة المزعجة التي تُفسد الأمور بالغناء والرسم، وهي لا تفهم أي شيء. كان شيوعيًا، دكتور، كما يقول عمّي مختار بدوام كامل، وهو يصف نفسه لا ياسين. فتذكري ذلك الوصف، فلم أر أدق منه على ياسين، فهو لا يطلع من النظيرات والكتب والمنشورات، وأنا أقوم بالتخطيط له ولغرفته في أجزاءها كلها، المكتبة والثياب والخزانة والستائر والسرير الذي كانت تقوح منه رائحة لم أشمّها من قبل إلا في سرير عمّي مختار، فيما بعد عرفت أنه الاستمناء. فقررت بعد ذلك أن أرسم هؤلاء الناس الذين هم بالفعل عائلته الخاصة، فكلهم يعيشون في روسيا .. فماذا سأفعل إذا ذهب وراءهم، وعا Vaughni. فبدأت أسأل خالتى فتحية عنهم، فكان حديثها في البداية بدعة، أن الأمور لن أفهمها في ستي الصغيرة، فقد كنت في الرابعة عشرة وهو في الثامنة عشرة .. إلخ.

بعض التخطيطات جلبتها معها، هكذا كان نوع من القصاص لأوهام،

كان موضوعها الأول، ليس ياسين فقط. كانت الماركسية والشيوعية وما لفّ لفّهما، فوضعت ذلك كله في تخطيطيات كنوع من الوثائق الفنية، ربما أكثر دلالة من الشعارات التي ترفع في بلدتها. عفاف جعلتني وبدون مبالغة، أيتها السادة والأصدقاء، وقبل صياغة تقاريري الطبية والعلاجية، أن أذهب إلى بلدتها وبلدكم. نعم، أتحقق به من حين لآخر، فأرى: أن ياسين كان أول سوط ضربت به في كل مكان من الجسد والقلب، تماماً، ربما من هناك استلهمت تلك اللازمة:

تفاهاه في مقابل ياسين، الفتى العشريني الشيوعي الذي سخر منها، وسقّه موهبتها، ومرّ ما كان يترك من تخطيطات موزعة في أرجاء غرفته إلى نتف تطابير بوجهها ما إن تعود في اليوم التالي، لترى آثار ذلك، فقالت كلمة بلية في إحدى الجلسات العادية، وكانت لم تزل في حالة جيدة حقاً:

ترى، دكتور، أية هاوية نجوت منها؟ ياسين، وأيّ عناد حظيت به فعلاً، وأنا أقوم باستداد نفسي.

لم تجلب اسمه أمامي بعدما انتقلت من بيت السفينة إلى شارع التانكي. أمّا الأمر الذي لم تكتمه، وكان يجعلها شديدة الانفعال، وبقيت ترددّه بعبارات شديدة الفظاظة في وجوه الطلبة أو من يقابلها، فكان:

مماسح للنظام. منافقون، وُشاة ومخبرون ..

لا توقف لا أمامي ولا أمامهم وهي تصفهم:

أقسم أمامك، دكتور، كانت حواجب البعض متوفّة على عجل، وأعمارهم تقارب أعمارنا ما بين العشرين والخامسة والعشرين أو ربما

أكثر قليلاً. فكانت لهجتها تتغير ما بين السخرية والرثاء، وفجأة وقفت أمامي في إحدى الجلسات وهي تقول:

كنت قررت أن أضعهم في لوحات بالأسود والرصاص، والوقوف أمامهم وسؤالهم .. نعم، دكتور، فعلت ذلك. كنت أريد صناعة معرض منا ومنهم، ينسب إلى إلينا وإليهم، إلى أعمارنا وأعمارهم، أشكالنا وأشكالهم، ثيابهم الغربية وثيابنا الأغرب.

أصابني الضيق من هذه الأسئلة كلها، وهي تضعها في مواجهتي ومواجهتها، لكن الأمر تجاوزها إلى شبه تبيخ لأنشئه كثيرة، نظم تلك الدول، قصص وأسرار البيوت تلك التي كانت تروي بعضها بطريقة مأساوية وعجيبة. أذكره اليوم حتى لو دخلنا في شجار نظري بين العلوم البحتة والبحصص التي يمتلكها المخلوق البشري من الذكاء. عفاف كانت تباغتني كما قالت في أحد الأيام، مع الأسف ليس لي، وإنما أمّام الدكتورة مليكة إدريس. وحين اطلعت عليه أصبحت بنوع من الفزع والدهشة. سجلت الدكتورة إدريس ما يلى من أقوالها:

أحب في بعض الأحيان لو تقوم هيئتي بانحراف ما في الميل، في شكل جسدي، استدارة حوضي ونحافة ردفعي ورشاقة ذراعي، لكي تستجيب ملامحي للأخذ والرد، وربما لما هو أسوأ، مما كان يحصل أمامنا وعلىينا من قبل أولئك الذين كنا نلتقي بهم في الأكاديمية من المخبرين. فالأمر لم يتوقف على هناك فقط، فأنت والممرضات جميعاً، والأطباء كلهم، وسكان العمارات، والوجوه في الشارع، وأصحاب محلات، والناس في المترو ومحطات القطارات، أنتم جميعاً تراقبونني، بدءاً من حركة يدي ولسانى، ذبذبات جسدي والتوازن قدامي وأنا أخلع الحذاء في أثناء الجلسات الطويلة السيئة، وما يربط بينها وبين لغة عقلي. هل

أبدو كائناً قدّيًّا عارياً أمامكم، وقد حدد موقعه للفحص والتكرار؟ هل أنا على وشك الجنون، دكتورة؟ هل شكري وهيتني يناديان بالضبط والإحضار؟ نعم، بدأت أؤمن أن لي جسدين، واحداً لكم، والآخر بالكلاد أن يتفرّغ لي. - جسدكم - الذي سحبتموه منّي كما أظنّ هو الحقيقى، وجسمى الذى ما زلت أتلذّذ بغرائزه لم يعد يطينعني مثل السابق. نعم، أشعر أنّي ما زلت سيدته، أعرفه وأقترب منه، وأتودّ إليه. من الجائز كيوم غادرنى، لأنّي لم أكن أقيم في جسمى في الأوقات جميعها، فأنا أتنقل مني إليكم وبالعكس، فأطرد جسمى، أهمله، فأدعه يرتحل إلى ذاك الرجل، كيوم، هو الرجل المستحيل. آه، أنتم أقویاء، وكیوم قوي مثلکم، وأنا مطمورة بضعفی.

أول مرّة يرد أمامي اسم هذا الرجل الأولي. هل هو فرنسي؟ أم ماذا؟ هذا سؤال موجّه إليكم، بالذات إلى طرب التي يفترض أنها وضعت اسمها في البداية كشخص وحيد، ولا غيرها للقيام بالزيارات، والمسؤوله عنها وعن أعمالها، وكل شيء، وأي شيء. ثمّ غيرت رأيها. هنا تتدخل المعلومات ما بينها وزوجها السيد صميم، ولهذا روايات عدّة وتفاصيل، قد يكون فصح بعضها في غير صالح الاثنين، عفاف وطرب، فهذه الأخيرة ذكرت للدكتورة مليكة والممرضة جانيت في إحدى الزيارات، وبعد أن علمت برفض ملاقاتها، إذ قالت:

أمر غير مستغرب أبداً منها، ولست محرجة منه، فقد صرت نحّاته وفنانة بفضلها هي. كانت الفنانة والطالبة الأكثر طلباً للصداقه مني، بالرغم مما يطلق عنّي من ألقاب: الحسناء الفاتنة، عفاف بقية حتى تركت البلد، لا يعنيها أي أحد بالمطلق، فلم تدخل أي موكب من مواكب الجمعيات الفنية أو السياسية، أو تشكيلاً للفنانين، ولا تأثرت بأي أحد،

بالرغم من إعجابها بمجموعة من الفنانين العراقيين يُعدّون على الأصانع، هي لم تهـلـل لأي مسؤول حزبي أو سياسي أو ثقافي حتى لو كان السيد نائب رئيس الجمهورية، صميم كان يعرض عليها فصولاً من مسودات الكـتب التي يروم نشرها، والأستاذ معاذ كان يستهويه، لو وضعت أي مـاكيـت لـتصـمـيمـ المـكـعـبـ، وأرسـلـتهـ منـ بـارـيسـ، فـكانـ يـبـدوـ عـلـيـهـ الزـهـوـ.

وقفيات العوز

هل ما زالت عفاف موجودة؟

إنني لا أمزح، أيها السادة الأعزاء، ولسنا، أنتم وأنا في غرفة تحقيق، ولا أريد أن أتوقف أمامكم، وأقوم بشتم طرق ومناهج الطب والعلاج النفسي والعصبي. نعم، هنا أنا قمتُ وتعرضتُ للتحليل النفسي، ولثلاث سنوات متالية، وبعد تخرّجي واستغالي ببضعة أعوام. وهنا عندما أتساءل فأنا لا أمزح، فقد بدأت بالكتابة إليكم، وسجلت بعض الحيثيات، فالعوائل جميعها في العالم تعاني الكثير من الأهوال، فإما أن تُقذف بوجوه الأبناء بالحصى، وتُطمر بالرماد، أو يُطلق عليها الرصاص من الغير، فيتم القضاء عليها أو يختفي الأبناء، ولسنا كما في القصص البوليسية، فعفاف كما أزعجم لم تتعرض لحادث خطف، أو قتل أو ابتزاز، أو هتك عرض كما تقولون في أدبياتكم، وإلا لكنّا سمعنا، وأنا شخصياً كنت علمت. بمعنى، كانت الحادثة ستكون خبراً في مقالة صحافية في قسم الحوادث، وأنا سأتولى عمل اللازم ووضع أحدهم للبحث في محاضر البوليس وباقى المشافي في باريس والضواحي، والمرور على جمعية الفنانين، والبحث فيما إذا أقامت معرضاً طوال الأعوام المنقضية حتى لو كان باسم مستعار..

ترى هل ما زالت عفاف عراقية؟ هل بمقدورنا سؤال السفارة العراقية في باريس؟ لمَ لا؟ ألم تقم بتجديد جواز سفرها العراقي؟ هل حصل ذلك الأمر؟ ومتى كان؟ هل رحلت؟ هل توقيت وأعيدت إلى بلدتها دون علمكم؟

هل قضت ودُفنت هنا في مدافن المسلمين؟ فأراضي الفرنسيين شديدة الغلاء. هل قضت بالسكتة القلبية؟ أم بمرض غامض؟ لا أظن أنها قضت بسبب الأعطال العصبية، فهذه لا تموت، فربما سياق التأليف والسرد، أو شكل ما نرويه ونفكّر به سيتغير، ونحن نطرح هذه الأسئلة. لاحظت ذلك فعلاً، وأنا أدوّن لكم هذه الأوراق كلها، ووددت بالفعل لو تعلّمت المزح والفكاهة مثلها في بدايات تعارفي بها، أو ربما تفضّلون سرد الفضائح، وأنا ذكرت أشياء، لا أعرف هل تدخل في خانة الفضيحة؟ فقد كان يونس الذي بقيت قصته ملتبسة علىّ، فهل هي كذلك معكم وعندكم مثلاً؟ كان يغازل طرب، ويتحرّش بها في السرّ والعلن، وحسب علمي أو توقيعاتي وتميّاتي، أرغب وبصورة حقيقة لو أقرأ ما قد يُدوّنه هذا اليونس في أحد الأيام، فهذا رجل أقلّ ما حضر اسمه أمامي، وهذا أمر أقدر على توكيده، فقد انطلقت كالجنيّ وهي تردد، وبعد التعرّف عليه قائلة بطريقة بين الجد والمزاح:

هو رجل يحتاج إلى عوازة في مكان ما من كيانه وعقله، دكتور.

ثم أضافت وهي تحبّ ما تقول:

بيبي فاطم، جدّتي لأبي، لو التقت بيونس، لنادت عليه قائلة:

كيف حالك، يا رجبي؟

توقفت قليلاً عن الضحك، وبدأت بالشرح قائلة:

يعني ركيك، ضعيف. أجل، دكتور. لديه ضعف في حركة جسمه ويدّيه واهتزاز بطنه ونوعية التلميحات والمفردات التي يقولها، وركاكة اللغة التي يقدم بها شغله وأشغال الآخرين. فمنذ الأسبوع الأول والعاشر والعام الأول

والثاني، ويمكن حتى وقت التّخرج بقيت تبقيت منه رائحة، لن تسماها المرأة قطّ: الفزع أو ربما الجبن، ولا أدرى أيّهما أدقّ؟ كان نحّاتاً، لكن، كان ينحت منحوتات بها بعض السوقية.

لكن، لم تخبرني، ما معنى الكلمة الأولى: عوازة؟

عمي مختار لديه هذا الأمر أيضاً. كلا، الأمر ليس له علاقة بالفلوس مثلاً، فهو ثري، وقد يمضي حياته في هذا العوز. لا أعرف، دكتور، كيف أستدعي لك هذا الأمر، وأمامك ذلك الإغراء الذي يلازم المعوزين بالظهور والاستعراض، بالتبجّح وعمل التحالفات، لكي لا يغرقوا في العتمة. الضوء يصعب التنازل عنه حتى لو أدى بهم إلى العمى .. وهذا ينطبق على الكثير من الفنانين والكتاب والشعراء والقادة في أنحاء العالم جميعها. أظنّ، دكتور، هي كالجنون، لا بدّ أن يصاب به المرء بطريقة ما بسبب الجشع والاستحواذ.

بعد ذلك، بقيت تسأله بطريقة حرفية حارقة:

هل الجمال حالة من العوز لمن لا يُصره، أيّها الحكيم؟

هل الحقيقة مفرطة في عوزها، ونحن نجري ونلهث وراءها؟

لقطات قريبة

نعود ونسأل:

أين عفاف اليوم، أيّها الأصدقاء الأعزاء؟

في مشفى خصوصي على سبيل المثال؟

في شقة للمرضى المُسنيّين الذين تزيد أعدادهم على ... الألوف!

في شقة عادية تقع قريبة من نهر السين، فقد ظلت تصاصع لمجرى نهر دجلة وهي تناذيه في أحاديثها واستجواباتها، فتردد في بعض الأحيان؛ أن لها أمنية لو تناول بين أمواج ذلك النهر في أحد الأيام، هكذا بثيابها وبالقصص جميعها التي أعطبتها. لم تذكر قط أنها تريد العودة إليكم، ولا ذكرت الموت أو الانتحار أو الغرق، ذكرت النوم، فقد بقيت تحتاج إليه بطريقة لا مثيل إليها. كانت تعليقاتها التهكمية على السيد هومير، لأن مدینته الخيالية والمقلفة أبوابها - إيشاكا - ما زالت تجلب الجلبة الكاذبة أمام الوجوه الكثيبة الموحشة، فنرى في اللوحات جميعها أبواباً موصدة أمام الوجوه والقامات. صحيح، كانت تتفوه بكلمة تقاهة، وتنطق بها، وكأنها ترش الماء على عشب يابس، فهي لا تشرح طويلاً:

تفاهة ليست مزحة، دكتور، هي الجانب الحقيقي من الوجود، لكن، لا أحد يتملكه الغضب، فيرتدي الحداد على ذلك كله.

ترى مَنْ بقي من أفراد عائلتها، أستاذ صميم؟

فأنا أُولّ ما أقوم بطرح الأسئلة عن أيّ فرد قائلاً:

هل لديك علم مَنْ بقي من أفراد الأسرة؟ هيّا، لا تجعلهم يموتون في هذه اللحظة وتسكتين. دُعي أحدهم أو إحداهن تدخل علينا في هذه الأوقات الطّيّبة من شهر نوفمبر الذي يستهويها كثيراً.. ها، ألا يروق لك الجلوس في الحديقة على واحد من تلك المقاعد؟

فكانت تمدّ يدها إلى جيب سترتها الصّوفية، وتخرج منها ورقة، دعكت وتكلمت كثيراً من الطّيّ والمراجعة. فتقول بصوت طفولي جميل جدّاً:

هاك، خذ، ولو أنتي أحفظه عن ظهر قلب، لأنني شاركت في كتابته: هذا خطاب أخي هلال. هل تريد أن أتلوه أمامك، أو أقطعه بالمنجل؟

وكيف تواصلت معه، يا آنسة؟

أظنّ صميم بقي يتواصل معه. لا تعتقد ذلك، دكتور؟

نعم، نعم. هذا ما تأكّدنا منه. أخذنا الخطاب، وقمنا بتصويره، ثمّ أعدناه إليها. في ظني لم يصلك، فمَنْ سيبعث به إليك؟

”العزيزية عفاف،“

قبل قليل، كنتُ جالساً على البحر أتأمّل ما حولي وداخلي. سمعت صوت جندب وشاهدتُ فراشة ذات لون فاتح، ونملة على الرصيف تنقل قشرة تفاح أكبر حجماً منها مؤونة للشتاء المقبل، فكّرتُ بكِ، بأوريا، وبالجحيم هناك، وشروطه، كما تقولين وتتردّدين دائماً عن - عملية الإبداع

- القاسية و”الركضة“ والقلق الدائم والسعي المحموم لإثبات النفس وتفوّقك في الرسم والحياة، وربما في الكتابة والغناء. قلت في إحدى المرات لياسين، وكنت في الرابعة عشرة: إنك تريدين أن تكون حياتك لوحة فنية!!! أنا أدرى أن لديك بعض المحاولات منذ أعوام حين كنّا في شارع التانكي وأنت طالبة في ثانوية الحريري، فقلت: يجب إلغاء سلم الأوليات الحالي الذي بدأ يتقادم ويضمحل وبنهار بسرعة. قلت سأكتب لهم وأقول لهم، إن سعادتي ناقصة بدون بعض النوارين. تمنّيت، وأنا جلس في مقهي على شارع محاذ للبحر لأن تكوني، تكونوا معنّي أنت وطرب وصميم بالذات، وأن ترتحوا قليلاً، وترتاحوا من شعثاء علب السردين الأوربية، حتى البيوت العراقية الشاسعة، لكنها لا تقل عوزاً ونقصاً عن هذه العلب. ترتحون كما يقتضي الحال من القلق المحموم الذي يمتد إلى غرف نومكم ورؤوسكم، ويمتد على مساحة واسعة من المباني والمعالم. أجلس الآن في مقهي ياسمين في مدينة الحمامات في تونس، وهي توفر لك ما تشاءين من شمس وحرارة وظلال. تستطيعين مثلاً أن تجلسين مباشرة تحت الشمس العمودية تقرباً، أو تجلسين في الشمس وجدار شرفة المقهى يحجب عنك الشمس المباشرة. وتستطيعين أن تجلسين في الخط الفاصل بين الظل والنور، وهكذا .. هذه نعم، وقاموسي اللغوي في العربي المهداري يتلخص هنا في مفردة واحدة هي: النعمة.“

الفصل السادس

<https://jadidpdf.com>

النّحّات يونس الهايدي

”ابعث لي جواب وطمّني“

ولو انه عتاب لا تحرمني

ابعثلي جواب ..

غيابك طال، وباستنى

قلبك مال تهّنـى

ان كنت هويت ونسينتني

وعلى جنـيت وما رعيتني

ابعثلي جواب وطمّني“

آنـي يونـس الـهاـدي، الـذـي كـانـت تـطـيـرـه تـنـورـة قـصـيرـة، وـتـهـرـه ضـفـيرـة شـعـرـ

علـى صـدـرـ نـاهـضـ، وـهـوـ يـتـوجـهـ إـلـيـ. أـسـيلـ وـأـنـصـهـرـ وـأـنـاـ بـيـنـ أـكـوـامـ الطـيـنـ الحـرـ

الـذـي يـبـدوـ لـلـنـاظـرـ فـيـ جـرـوـفـ الـأـنـهـارـ؛ دـجـلـةـ وـفـرـاتـ وـشـطـ الـهـنـدـيـةـ، حـيـثـ

سـقـطـ رـأـسـيـ، الرـيفـيـ التـابـعـ لـلـمـدـيـنـةـ، الـذـي يـشـمـ روـائـحـ إـنـاثـهاـ، فـيـبـقـىـ تـحـتـ

عـنـاءـ الـاضـطـرـابـ الطـوـيـلـ. تـصـرـفـاتـيـ عـجـولـةـ، وـسـرـعـانـ ماـ أـخـشـ أـنـ أـسـقـطـ شـيـئـاـ

فـيـ طـرـيقـيـ؛ آـنـيـ زـهـورـ، أـوـ مـاعـونـ خـرـفـ، أـوـ قـدـحـ مـاءـ. أـظـنـ بـعـضـ تـصـرـفـاتـيـ

سـخـيـفـةـ، رـبـماـ، هـذـاـ الـوـصـفـ دـقـيقـ أـوـ قـاسـ، فـكـانـ يـرـاـوـدـنـيـ، وـأـنـاـ أـرـىـ نـظـرـاتـ

عـفـافـ وـهـيـ تـتـوجـهـ إـلـيـ.

لم أكتب لك الديباجة إياها قائلاً:

ضجرتُ منكَ وممّا يحيطونكَ به من آيات التكريم، هم، كلهم، على
الخصوص ممّنْ بقي من أفراد عائلتها، والأساتذة: صميم مجهول اللقب
والنسب، زوجته طرب الفيصل، معاذ الألوسي، وبعض ممّنْ بقي من
الأصدقاء والأصحاب. حين خاطبني الأستاذ صميم، للتوّ، ضجرت من
الألقاب جميعاً، وسوف أعافها ورائي، وأتخفّف من أثقالها، كما عافتنى
عفاف، عافتنا حمماً.

شخصياً لم أهتم إلى الطريقة التي تريدون الإبلاغ عنها، وفي الأصل، لا أعرف عماداً أبلغ وهي بجواري، لم تغادرني، وسوف أنا دمي عليها بثلاثة نداءات: للتفصيل والاستحسان والتهيب: عقو، الآلة، وعفاف، وربما، هي، كضمير الغائب، الموضوع دائماً أمام ضمير المتكلّم، وأنا أكتب به إليك، سيدتي:

فأول ما شاهدتني في الأكاديمية، وأنا أسير في مواجهتها في طريقى إلى النادي، وقادم من وراء السدّة، التي وصلتها من قائم مقام الهندية. أعيش هناك على حافة المدينة، مكان لا يمكن تصديقه، شيء وهمي مليء بالمهربين والقوادين والفروخ الصغار، والفحول الكبار، والعاهرات المتدربات على انتزاع الفلوس من الزبون بدون جهد يذكر. والحيوانات الأليفة، والبعوض والذباب الذي يقرص بلمح البصر، والسعادين، وفرق موسيقية تتجوّل لا على التعيين في أيام الأعراس والظهور، وخليط لا يمكن تصوّره من الباعة المتحولين الذين يسعون كل ما لا يخطر على البال،

ويستفرجُ الخيال، ويفرغُ الجيوب: بدءاً من الساعات التي لا تعمل أبداً إلا
أمام البائع والشاري فقط. وانتهاء بأكfan مستعملة، معها شهادة طبّية
مزورة من مضمّن المحلّة يقول لك بصورة مؤكّدة: إن الذي استعمله طفل
في الرابعة .. إلى الإسکافي الذي صادفته، فاشترت حذائي المستعمل
ذاك، كان واضحًا منذ البداية، أنه قندرة ابن قندرة، فما إن سرت قليلاً حتى
التصلّق كعبه بالإسفلت، وبقي هناك .. لكن اليوم الأول في الأكاديمية،
سمعت كلمة لم أفهمها حالاً من فتاتين جذّابتين كانتا ترقبان الطلبة
الجدد، أنا أولهم:

هيا، انتبهي، هذا طالب يملك شروط العوازة كلها ..

لم أفهم تماماً، الكلمة أعرفها، أسمعها في بعض المرات من أمي.
أدركت خوفي، فالكلمة تجمع ربماً صفاتي جميعها.

ما حاجتك إليّ، دكتور؟ ما حاجتكم جميعاً أن أكون وسطكم، وأسجل
موافقتي، وأكتب خطّي الطويلة التي لا تتجاوز عمري، وهو طويل، فأضع
القارئ، أنت في المقدمة، دكتور، لكي أجمع لك فتاتاً وأعضاء ولساناً
ولغات ولوحات وجنون وأغانٍ وحكايات وأمراض ومواعيد وغراميات وحملأ
ومراجع الآنسة عن طريق الاستعادة، القراءة ثانية، الاستماع، اللقاءات،
المخيّلة، استخدام الابتزاز والخلاعة، وفي المقابل، علىّ أن أكون في أوضاع
منسجمة مع جميع ما ذكرت، ولعدوبي ما كانت تتفوّه به كلامة حتى
اللحظة الأخيرة، مثقلة باليأس الثامن:

تفاهة .. أي كل هذا تفاهة ..

نعم، أنا يonus المرعوب من الخوض في الحروب، ومن الاحتفال

بالسلام. أخاف من وجهي البشوش، وصفاء سريرتي، وفضولي العادي
ولامبالي بكل ما يحصل، فأول ما سمعت كلام تلکما الطالبتين، سألت
عنهم وعن اسميهما، فقالتا: القصيرة عفاف، والمتوسطة طرب.

طرب اسم معقد، بأنه مصنع من الأسلحة، أو سيحدث انقلاباً عسكرياً،
وبدأت أبتسم وأواصل: طرب حروف موجودة وراء الزجاج في محل راق،
لا يصله الناس من أمثالى، وإذا ما افترست منها، أو من إحداهن، فما عليّ
إلا أن أقوم بتغيير سلوكى، يعني أن أكون أرقى، وأننا لا أقدر على ذلك، لا
أريد، أدق. تأثرت عفاف بكلامي، ولم تعقب عليه. كان ذلك قبل نهاية
العام الأول، أي منذ ظهرت الآنسة أول مرة في النادي الجامعي بطريقة
مفاجئة، وهي بصحبة الأستاذ معاذ الألوسي وزميلتها التي تكبرها في الصفّ
والعمر، وفي حفل جرى لها بشكل خصوصي، شاهدنا طاولة وكراسي،
ورجلا يدوزن على العود، وأمامه النوتة. كانت تبدو بين الاثنين كالطفلة،
صغريرة ورقيقة. أنا كنت في حالة من الدهشة التامة حين شاهدت مجموعة
من الأساتذة وطلبة من الأقسام جميعها، ووجوهاً لم نرها من قبل، فتّاح
قال: من الجائز حضروا من الكلّيات الأخرى من أجلها.

ولكن، لماذا لم نسمع بهذا كله من قبل؟ ظهرت الثلاثة أمام الجميع،
ها، لأن عفاف هي التي .. ماذا؟ هل يعقل كل هذا الذي يجري من
أجلها؟ جلس الجميع. لم ترفع عفاف رأسها إلينا، بقيت تقرأ في الورقة
التي أمامها .. سعال خفيف، شيء من الدندنة لدوزنة حبال الصوت،
وشيء من خجل أمام هذا الحشد، فتوّرد خداتها. همس معاذ في أذنها،
ثم وقف أمام المكرفون قائلاً:

لن أتحدّث طويلاً عن الآنسة عفاف أيوب، وصوتها الذي كلّما سمعته

تصورته صوتاً يتنسم. ألم تسمعوا صوتا ذكياً نعطيه الابتسامات: تفضلي،
عزيزي.

في بادئ الأمر، طلع صوتها خافتاً، لأنها كانت تلاحمه من بين تلك البيوت، فتسحبه من بين الحشد، وتمشي به نحو رحيلها. هدأت الجلة، وبدأ الكثير يتواجدون، وعفاف بدأت ترفع رأسها، بعدها خف الضغط على شفتيها، وهي تأخذ رشفة ماء من القدح الذي كان أمامها. بدأ الصوت بالصعود تدريجياً: رقة متناهية لمخلوق على وشك الاحتضار، كلام معاذ غلط، فصوتها يقيم بمفرداته .. لم أسمع أحداً من قبل، ينشد وهو يقيم في الحمى ... وهي تبدأ بدور لم أسمعه من قبل أبداً، ولا أعرف لمن، ولماذا اختارته:

”لِيْهِ يَا بِنْفَسِجِ بِتْبَهْجِ وَأَنْتَ زَهْرَ حَزِينِ
وَالْعَيْنَ تَتَابِعُكَ وَطَبِعُكَ مَحْتَشِمَ وَرَزِينِ
حَسَنِكَ يَضِيرِهِ، ضَمِيرِهِ، بِالظَّلَامِ الْمَقْهُورِ
اسْمَعْ وَقْلَلِيْ مِنْ الْلَّيْ قَالَ مَعَايَا، آه، آه،
لِيْهِ يَا بِنْفَسِجِ بِتْبَهْجِ وَأَنْتَ زَهْرَ حَزِينِ“

فيما بعد، أخبرتني أنها كانت في الثالثة عشرة حين سمعت في الإذاعة المصرية ذلك الشيخ وهو يغني هذا الدُّور. وفتحية خالتها، دربتها طويلاً عليه.

الآنسات الطروبات

يعني كيف تصلنا الآنسات بهيئاتهن وأشكالهن حتى وهن صامتات.
لم أفهم هذه ال طرب، لا، أعني اسمها أليم، لا أفهمه. لم أفهم كيف
ترتدي تلك الثياب الرجالية، وإلى من كانت تنتمي؟ متى ولدت، وكيف
حضرت إلى هذا البلد؟ وهل هذا بلد़ها الذي يحكمه حزب البعث العربي
الاشتراكي، ومعه في جبهة واحدة الحزب الشيوعي، وهناك مَنْ يختفي
ولا نعود نعرف أين مصيره .. و...؟!

كانت رائحة الحرب، دكتور، موجودة تحت الثياب، وغير قابلة للتعرّف
النهائي، ولا أحد مثلِي يُفوت فرصة القيام بدور الميت اللطيف، ولو لمرة
واحدة. الحرب هي الأصل، وطرب كانت تذكّري بها ..

بداءاً، على العثور على يonus قبل العثور على عفاف. لا بأس أن
تتابع هذيانِي أنا أيضاً، فقد غدت قضية البحث عن الآنسة تُروي وتُنقل
وُستخدم كثيراً وفي الضمائر جميعها، بدت لي مضجراً، وأكثر الأحيان
مضحكة، وشعرت أن عليّ، أو علينا إذا شئت القيام بأمر آخر:

نسيان عفاف كطريق للنجاة منها ومن أجلها وأجلنا.

فعالية القتلة هم المحققون أنفسهم، وجنابك تزيد مَنَا ومني، حسب
ما فهمت في الصورة الإجرائية من الآخرين، وقبل دعوتك والحضور إلينا،

والتدخل في التحقيقات كما يقولون، كي نرى الجريمة من منظار آخر. نعم، الكثير مثناً بقى يردد ؛ جريمة، ونحن ننهض منذ الصباح الباكر، وإلى اليوم التالي.

أنا مجرد نحّات منحوس، في أيام شبابي، كنت أبدو كالرصاص، وفي أعوام الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة، بدأت تنهال عليّ الصفات؛ لا يعرف تركيب الضربات الضرورية، وفي المناسبات الطبيعية لا يجيد عجن وفخر الطين لعمل المنحوتات المنتظرة، فليس لديه، وقتذاك، مراجع فنية إلا الفطرة البشرية، وبعض النزوات الجنسية والعاطفية الفاشلة في بلدة صغيرة موحيّة. لم أراود عفاف، لم أطلق صفيرًا في أثناء مرورها، لم أتهّد من حسنها الفريد. لم أُعْضَ شفتيّ ويسيل لعابي وهي تُقبل نحوّي. في الأصل، لم أصب بخفقان القلب وهي تقف وراء مسند الرسم، ولا قمت باختلاس النظارات المربيّة لمشيتها أو ثيابها، على العكس، دكتور. كان الشعور بالضيق هو الذي يلزمني، ويخلط أوراقي جميعها، وأنا قبالتها. عفاف لم تجعلني سعيداً ونحن معاً، لكنني، وبالمفارقة، ففي العمق، كنت أنتظّرها. نعم، انتظّرتها في سعي للإصابة بها، فقد كانت تحضر وحدها إلى الأكاديمية. تتقدّم بين حشود الطلبة وهي تشّق طريقها إلى الصّفّ. تتبع وتبلغ مبتغاها، فأنادي عليها في عبي وأعنها، فأخشى أن تذهب أبعد من المرسم والنادي والحدائق والبيت والمدينة والكورنيش، فلا تعود. تذهب ولا أعرف ما هي الحلول التي على التأرجح فيها؛ فخش وغضب وشتائم على النحت العصيّ الذي كان علىّ أن أطلق فيه اهتياجي وانتصاراتي وإخفاقاتي، أم سلوك الاعتراض بالصمت. كانت القسوة تسbulkها، كلاً، لم تكن متّكّرة أبداً، فتشير الاحترام. ثيابها عادية، فتبدوا وهي داخّلها في غاية الراحة. صديقنا فتّاح بقى يردد بعد أن تغيب عن أنظارنا:

صحيح هي ليست على الموضة مثل صديقتها، ولا مدللة نفسها، ولم نرها بالميسي أبداً. ألا تراها تتغزل حذاء واطئاً وسروراً من الجينز ذي الصناعة الجيدة، وببلوزة قطنية، فتبقى ساحتها قاسية ونهادها عاملين ..؟
ها. ألم تلاحظ ذلك، أيها النّحّات الأعمى؟

صحيح ليست على الموضة، وما هي الموضة، دكتور؟ كانت عفاف هي موضة الأكاديمية، وصديقتها أيضاً .. لم تمقتنى، ما هذا النعت؟ غير دقيق ولا صحيح. لم تتفرب مني، لكنني لا أعرف كيف أتصرف معها، ولا كيف أخاطبها، فلديها قدرات خفية على التهديد، أجل، نوع من النظارات، وهذا الالتباس أدخله وهي أمامي، فتتضعضع ثقتي، وأعرف أنني في خطر. بالضبط، هذه الكلمة الأدق، وكلّما يتضاعف الخطر، أتأهّب، لو كان بمقدوري تقطيعها ورميها في داخلي قطعة وراء الثانية، فهذا أفضل من هذا العذاب المرّكله. يا سيدى، هذا مرض وأنت طبيب الأرواح الخائبة التي تستوجب الخضوع للعلاج. وهي .. هي كانت، وربما الأكثر عقلأً ممّا جمِيعاً. أنا أستطيع أن أُؤرّخ تلاؤ تحليلها الأشدّ عمقاً ونحن نتمشّى تحت الجسر الحديدي وأمام الجرف، كثنا نجلس على بعض الأحجار:

”أجهل كيف يسير الزمن، هذا شيءٌ حقيقي، ولا أعرف أيضاً كيفية ثباته. أحاروّل الكف عن الابتسم والاستغراب، فكلّما تسير الأرض، تحصل أشياء جديدة، وإن توقفت؟ إنها توقف أحياناً، لكي تحدث أشياء جديدة أخرى، رقام من الأحداث ينهال يوماً بعد آخر وإلى ما لا نهاية. ما أعجب هذا كلّه، يا يونس، أفكّر بأن السبب الرئيس لإصابتنا بالهرم هو هذا التراكم لطبيعتنا البشرية المحدودة عموماً في عمق واستقامة ذاكرتها المتفاوتة نسبياً، تمتلئ ولا يعود بوسعها أن تحتمل المزيد، إذًا، فالخلود هو شيء لا ذاكرة له”. أليس كذلك ..؟ هيّا، يا يونس، لم أنت ساكت؟ ها ..

ذاكرة الأيدي

أخطاء فادحة أذكرها عنها، مثلاً، ذكرت لك، أنها ليست جميلة، وهذا خطأ آخر أقع فيه، هي فقط تدعني أكاد أختنق، وأنا أدير عنقي إليها، فلا أراها، فإلى أين تذهب؟ ومدينتا نستطيع أن نخلع عليها صفاتِ جميلة، وأحياناً نخالفها في قراءة حقيقتها، فبمقدورها أن تقوّضنا وأحلامنا، فقدعني أعيد النظر دائماً في شغلي:

هياً، اعترف، عفاف تجرفك كالزوبعة، والمدينة واضحة كالكارثة. هياً، أنت نحّات غير سعيد ولا حزين أيضاً. أنت تشبه الحقبة التي نعيش فيها، وكذا في العام 1978.

بقي صدى المكعب كما تقول وتطلق عليه:

المكعب الفاحش.

تحدّث عنه وهي مغمضة العينين وكأنها تلمسه باليدين، فستيقظ الحواس جميعها، وتقول:

من الجائز أنَّ المعماري الألوسي، وبعد أن يُنجز مكعبه سيقوم بإعارته. الكلمة الأخيرة مبتذلة، هو قال: لطرب وصميم، تعالى كعاشقين، وقما بتدليل المحتويات والسقوف والحيطان والمقتنيات اللوحات والخزفيات

وأدوات البناء جميعها. تعالي، فلن أجد أجمل منكما كمغامرين يتذوقان
الشكل الصحيح الذي يعصى على الوصف.

أخبرتك بالطبع أنها درست عاميّن في كلية الهندسة، فبقيت تزورها
من أجل الصديقات الأثريات عندها، كانت تذكر اسم إحداهنّ على ما
أنتَ: وجдан ماهر. معاذ هو أيضاً كان يزور الأكاديمية، فيقfan معاً في
الحقيقة، ويتناقشان طويلاً. هي تريد البدء من نقطة ما، من منطق العمارة
التي تشاء، ومن يستفيد منها؟ وما هي غايتها؟ فقد كانت تشاجر مع
ما تراه قبيحاً في المكان قائلة:

إننا نستنسخ البشاعة فـ"الجمال ليس ضروريًا". وهذا ما نراه صباح
مساء، فنجاري الأوروبيّن وفنون الحضارة الغربيّة، وبسبب غيابنا هذا،
نكتفي بالاستحواذ على رؤاهم الجاهزة، ونُقلّلهم بطريقة تدعو للرثاء،
والحقيقة أن الإنسان في بلدنا لا رغبة فعلية لديه في كثير مما يقتني
ويعاشر، فغياب الجانب الجمالي وتحجّره يؤدي إلى الضجر" بعثة سألتنى:

ألم تشعر بالضجر؟ فالأمر ضروري، يا يونس: "فالقبح ليس نقىض
الجمال، إنما الألم، والعين غير المتدرّبة على الجمال لا ترى ولا تحسّ به،
حضر أو غاب".

كان يجذبني صوتها والرجفة في ذبذبات لسانها، فكنتُ أراها حاضرة
للمناقشة منذ الساعة العاشرة صباحاً وإلى الساعة العاشرة ليلاً. فلديها
براءة، هذه توصلت إليها بعد أن غادرتنا، وعندما ت يريد أن تشرح بعض
الأمور، كانت تتحدّث كما لو كانت تبوح بسرّ من الأسرار حصل لها ما
بين الطفولة والبلوغ، وهي الآن تريدنا أن نعرفه، فلا تحفظ به. فقد يظلّ
معاذ الألوسي، وفكرة المكعب، وطريقة دخولها في التصميم معه، حفظه

في البداية عن ظهر قلب، ثم بدأت تميل إلى طرح الأسئلة، فكان الاثنان، معاذ، لديه أسئلة كاوية، هكذا تقول، حول المدينة والعمارة. أتصور، وهي تُكمل قائلة:

أتخيّل أن سؤاله الأساسي سيكون، إذا شئت: كيف توغل، ونستقبل الفراغ، تعانقه وبعائقك، يأسرك ويُسحر أكثر من الاملاء الذي سرعان ما يتحول إلى فجور حتى بالمعنى الأخلاقي؟ فيصبح السؤال: كيف نعالج الفراغ؟

أُسكت ولا أعرف كيف أُعرّف عن نفسي، فأبدو أمامها مجرّد، ربما (غرض فنيّ)، وليس إنسانياً، فأذكر لها ذلك، فتضحك وهي تحبيب:

حتى هذا لم تُفلح به. أنت تجمع قطع غيار، ولديك ذاكرة تستدعي الحرفيين القدماء. لا أدري لم لم تدخل قسم الخرف، "فأنت تعطي الغرض أثراً تكميلياً".

نظرت إلى يدي، ورفعت وجهها إلى:

أنت تتمتع بدين لهما ذاكرة، هي تتذكّر على مهل، لكنك فجأة تصير خارج الوقت. قد تعود إلى سدة الهندية مسقط رأسك.

أصير مخدراً وهي تحدّث. لم أتعود هذه الأحاديث من أيّة فتاة. هل كانت تحرق شوقاً لكي تضع يدها بين يديّ، ولم تفعل؟ إنها حرّة أكثر مني، فأتوقف عن التنفس، وأرى آخر وأخر يحلّ مكانِي في رأسها، وفي شبكيَّة عينيها، وهي تُحدّق بعيداً فتعود، وبصوت بعيد:

"أتصوّرك تلصق وتلتف وتنتحت، وأمامك موادٌ من الأنواع جميعها: الخشب، والأقمشة، الصوف، الجلد، قصب الخيزران، عيدان من الحطب

التي احترقت، من المعادن، خيوط مساحيق الألوان الفاقعة والغامقة، وورق كثير وبأنواع”. كنت أريدها أن تتوقف، فلا أريد أن تصل إلى ما ذكرته عن زميلنا فتاح في أحد الأيام:

أي هو مقلد للطبيعة .. و.. لأنه غير حرّ .. وفي العموم، معظم الذين يُدرّسوننا غير أحرار، ومعظم الطلبة أحرار أكثر من الأساتذة، ولذلك أنا أعتقد أن الرسم الأكاديمي شأنه فقط تربوي.

لم تكن تسأل بطبيعة الحال. تحديت وتدمدم في سرّها. لا يمكنني إلا أن أدعو الله القدير بمساعدة الجمهور على ما هم عليه. صار عمري، هكذا، التفتت إليّ .. أوه، صرت هرمة، وأنا في الثانية والعشرين، وهذا أمر مفرط في التفاهة، ولا أستطيع، لا، لا أقدر أن أستمرّ هنا، فكل هذا لا يطاق، والمخبرون في كل مكان يلحقونا إلى مناماتنا، ما هذا .. ؟ ألم تشاهدمن حولنا؟

وكنّا وصلنا أحد الشوارع الفرعية من حيّ الوزيرية، قريباً من الأكاديمية، فقالت بهذه أربعيني:

ترى، هل من الخير، يا يونس، أن تكون بدون هذا البلد؟ وهل من الخير أن لا تطول هذه الأيام، لكي لا تنقلب إلى مرض؟ أم أن يكون البلد بدوننا، فينتزعنا منه حتى نجف وتفتت، فلا يستشعر بالحاجة حتى لكي يأخذ العزاء بنا، فتقى، هو وحده، ونحن وحدنا، ولا يجوز لم شمل المعزولين المتروكين إلا بالانشقاقات، الهستيرية والكبابة. لا أعرف، يا يونس، بعد، أيهما أصلح للاثنين من هذا التبّوح الوطني كله؟

هنا أمسكت أنا يدها. شعرت في تلك اللحظات وبعد أن عبرنا الشارع،

أنها تكاد تمسكني أَوْلَى مَرَّةً. يدها تجنب صوب يدي، وثمة تعبير في حركة
يدها يشتهي الحاجة ليدي، ففعلت وأنا أصرخ:

زبن... سافري، غادري، يلا، غادرينا. أليس هذا مرادك منذ .. والله
لا أعرف متى؟

وأنا لا أعرف، يا يونس، متى؟ من الجائز منذ اتحار خالي سامي،
وفرار أخي هلال. تسمى تصرفاتي تطلبًا شديداً، نعم وليس غروراً أو جنون
عَظِمَة. حسناً، لا تحضر في أحد الأيام وتنتشلني. إياك أن تفعل ذلك،
فلا أحد ينقذ أحداً.

ستبقى تُردد، يا دكتور كارل، وتسألني في سرّك:

ترى، هل أحببتها، يا يونس؟ والكلام عن الحب عسير، ويحتاج إلى
شطف وتطهير. نعم أنا أهتمد إليها وعلى راحتني وஹاي. وضعني معاذ
وصميم وطرب معهم وهم يقومون بالذهاب والإياب، بالشطب والبناء
للمكعب. نعم، دكتور، تجدر الإشارة إلى شهوتي التي تتعاظم لطرب، وأنا
مع عفاف، وهذه أمور أنت تدركها، فما علاقة هواي بشهوتي ورغباتي؟
وما علاقتي بغياب عفاف وحضور طرب؟ أخاطب الأولى في الزمن الحاضر
دائماً، وأنهمك في طرب في لحظات الانخطاف التي كانت تطيل في
الماضي، فكانت طرب موضوعاً لجشع الرغبة، وعفاف لهجة الهوى.
ولعل سؤالي الملحق الذي أروم سؤاله لحضرتك الآن:

هل توصلت في أثناء العلاج والبوج كمعالج نفسي إلى استحضار
اسمي؟ كيف كان يرد بين لسانها؟ بسخرية، بشتيمة، كنكتة، أو يأس. اذكره
من فضلك، ولا تخش علّي، فنحن رجال، تحالف معنـي، هيـا، فهي كانت
دائماً ضـدي، وهذا لم يعد أمراً جوهرياً. اليوم أنا أخاطبك وأضعها أمامـنا

نعن الاثنين، واجلب الكاميرا قريباً من وجهها. قريباً جدّاً، لم يبق ذلك الحوّل في عينها اليسرى، فهل كانت هنا تظاهر به؟ أم كانت تصنّعه، لكي تثيرنا ضدها؟ أعرف أنها تنظر عميقاً إلى الداخل باعتباره مادّة، معركة وهو الحقيقة، فلم تتشاجر مع أي أحد منّا. فلا وقت لديها! هل قامت بإغوائي وهي تتولّ المجاملة عندما أضع بعض الكُتب فوق ركبها الطالعة في إحدى الْأَمْسِيَّات عندما دعاها صميم وطرب ومعاذ وأصدقاء لأحد النوادي، لمناسبة شقّ الأساسيات لبناء المكعب .. صحيح كانت جاذبّتها حاضرة بصلابة، وكان بمقدورها استدعائي على بطاء، وفي أوقات متباude، لكنني لا أعرف كيف أُلْبّي النداء، فاتركها أمام باص رقم 7، وأنا أركض إلى المشغل، أستمني على عجل حالما ما أغلق الباب ورائي.

بطون النساء

كنت أرى طرِيقاً يبدأ من طرب، لكنه لا يتلاشى عند عفاف. فطرب لم تكن قريبة مثلها، وعفاف تدفع بي إليها، فأعود وأراها أقرب من السابق، وبعيدة عن طرب. أشاهد أطيافاً وكوايس وأصواتاً وأيدي تُلُوح لي، وتناديني قائلة:

عليك أن تمضي حياتك بطريقة شِعرِيَّة.

لم أفهم أبداً. سأَلُّها، وأنا أتمم:

كيف؟ يعني أتعلم قول الشِّعر وأحفظه، أو أصحاب الشعراء، أولئك ينزلون في قعر الوادي، ولا يجيدون إلا الثرثرة. لم أصادف شاعراً يعيش كما تقولين. ربما، لم يفلح أيّ شاعر أن يعيش بهذه الطريقة هنا، عندنا، فماذا أفعل؟

فتجلب اسم الكاتب شوبيها أو ربما غيره، لم أعد أتذكّر اسمه. تحدث عن المكان الذي توجد فيه الكُتب قبل كتابتها، وأن هذا العالم قد حدث بتفاصيله سلفاً، وأننا نكرر بطريقة أو أخرى العيش ذاته، نعيid الأحداث نفسها. إنني متأكّدة من هذا الأمر.

بجوار عفاف كنت أطلق العنوان لكل الأفكار البدائية والوثنية وعبادات المجهول والرموز غير الواضحة، والجماعات التي تذهب للكلجية في

الأسبوع ثالث مَرَّات والباقي تقضيه لزيارة المراقد الدينية. وكل يوم أترجم الجنس لنفسي بالاستمناء، وأكتب تقريراً عن حصاري الذي لا ينتهي ..

هيا، يا يونس، دعها تتبعك، وتدفعك في بطنها في لقمة واحدة، فلا تدعها تشرب خلفك قدحاً من الكونياك أو الفودكا. ستعثر عفاف على طرب في بطنك وهي تقودك وسط الزحام. اسمع، لن تغادرك أية واحدة منهمما، فأنت ملك لهمما، وهذا هو المكان الآمن لهما ولك من الرصاص والرعب. كنت أقارب فيما بين الصديقين، وأتمنى لو تجوس يدي أدغال طرب، رئلاً ساقها مثلاً، أو تلمس عروة قميص عفاف العليا، فرقبتها جميلة جداً، لكنهما لا تحفلان بي. فلم تكن أية واحدة منها ملكاً لأحد، ولم يحدث أن تقيدت عفاف بالحديث عن الحب، أو الحب المحتمل، بإحداث جلبة من أي نوع، ولا كانت تتوهم أن فلاناً سيأتي من بعيد، فتنفث دخان سيجارتها، ونحن في نادي الأكاديمية، وكان يوماً شتوياً بارداً، والدخان والصخب يملأ المكان. ونحن متقابلان حول طاولة عليها فناجين من القهوة:

عليك أن تموت وتعود ثانية في الحب، لكن، إياك أن ترمي المسؤولية على الطرف الآخر. اركن إلى حالك فيما إذا فشلت، فلم تعدحكاية ملكك، فلا تتحدى وتشغلها بالتشوش، فسوف تعود وتبدو قصصاً عادية، فلا هي ملك لها ولا له، ولا لأي أحد. أنا، على سبيل المثال، سيبقى اسمي الصغير عقو، كأنه نصف حب، نصف مرض. والتصغير مازال مبعثراً بين أفواه خالي وأفراد أسرتي، والرجال الذين أغرتهم، ياه! كم أغرت بالرجال الذين وقفوا في بلعومي وأرادوا خنقني بالأكاذيب! وهذه وقعت على مسؤوليتي وحدي، ومن طرف الصغير لاسمي الذي بقي يعاكسني،

فلم يتملّكني أيّ نوع من الغضب. فالحبُّ المكتمل لا يُفضّل الاحتياج
كذاك الخائب، عليه البقاء في الظلّ ...

آه، يا دكتور، هل كانت تهذى باسم عقوّة، وتحاول أن تعاند بها ذاتها؟
هل كانت عقوّة هي التي تختبر وحدها في غرفة باردة في مشفى أو شقة،
وهي تقتنات من عفاف فقط؟ هل تركت هكذا عندكم للأسباب الموجبة
لحماقة المرضى؟ أم لقوّة التطبيقات التي حاولتم بثّها في دمها وأليافها،
فلم تعلمنا بعد الكلمة الأخيرة: حجّة الدفن وعدم استعجالكم لذلك،
وأهلها، لا أحد شرح لهم بكلمات واضحة التفاصيل جميعها، فلم يرتدِ أيُّ
واحد منهم ثياب الحداد، فالجميع، وأنا واحد منهم، بقي بهذا القدر أو
ذاك ننتظر الدليل من الشخص المناسب: الطبيب، المحقق، القاضي،
العاشق .. . بقيت عفاف لنا حتى لو سمعنا نشاراً منكم ومنّا، بقيت
متاعاً محبوّاً كأسلاب الاستعمار الذي يحب أن يرى نفسه ثانية حتى لو
بخسّت قيمته. أعود وأسأل:

منْ هو صاحب الحبّ الخائب، دكتور؟ أنا؟ أم؟

بَعْثَةٌ يحضر ياسين، ويجلس أمامي على المنضدة قائلاً:

أقفلت عليها الكُّتب، فأفرطت في رسمي في مشهدية ولوحات
كاملة. أنا الذي تستجيب لي حتى لو تظاهرت العكس، وأنت من تكون،
أستاذ يونس؟

خُيّل لي أنني أُمثّل ما قبل الحداثة وما بعدها التي كانت عفاف
تسقنا، فترجم لنا الأسئلة الحقيقة للدوار الذي كنّا ندور فيه، فتخترع
علاقة ما غير مرئية للخطير واللعبة في المكان وخارجها. اليوم، أزعم أنها ما
كانت تدرك ذلك، ولا علم لها إلى أين وصلت وأخذت بأيدينا، لكنها لم

توقف عن غواية السفر، والذهاب خارج الحدود كما تردد، هو الذي يثير اهتمامها، فتنطلق منه، فلا تعلم، تنسى بصورة نهائية، أنها تقف وتعيش هنا، فوق هذه الأرض ووسط هذه المدينة التي اختلطت عليها صورها وقصصها، فكانت تردد وكأنها تقول أول مَرَّةً:

صحيح، المدينة تفوق بالبناء والجامعات والمستشفيات والمصانع، لكنك تستيقظ وتنام على شرعية المخابرات التي تزرع وتوزع منحوتات للسيّد النائب، السيّد القائد، والسيّد الذي لا ينام، وذاك الذي يبحث عن وجهه في المنحوتة. هناك مدينة تحت الإنشاء تزدهر دائماً، نعم، يا يونس، وهي المدينة الحقيقة الموجودة تحت الأرض. ستقول؛ الأشياء تتجدد، والأبنية تصاعد، صحيح، هي تفعل ذلك ونحن نشيخ مبكراً، وما زلنا في العشرين. نهرم ونأكل .. و..

لاندرى، يا دكتور، إن بقى لك ما سوف ترميه في وجوهنا، لكي نلتفت إليك ونصدقك، وهل بقى من المغامرة الملعونة للأنسة من إغراء ما، لكي تُحدّث أنفسنا به، فتعود وتحدّثنا وتطلب أن نراها مجدداً عبر عينيك. هيّا .. هيّا تحدّث معنا، دكتور، فالجميع توقف عن البحث عنها. ثق من ذلك، حتى لا يعرف عمّا إذا يبحث: عنها بالدرجة الأولى؟ أم عن نفسه؟ أم عن ذلك الذي لن نلتقيه أبداً، أبداً؟ إذا شئت من أجل الوالدة مكّية العليلة، والخالة فتحية الأكثر سقماً، والعم مختار، الثمل سلفاً، وعلى مهل، الذي يسير ويردد:

نعم، بقائي على قيد الحياة هو دفاعي الوحيد عن ابنة أخي وعّني شخصياً.

تجاوزت الخالة سنية، وهذا صحيح، لكنني سأتوقف أمامها، وهي

مضطجعة على سريري في شقّتي، وأنا أرى طيف عفاف في بهاء لحم
ومسامٌ وبطن وظهر سنية. تستلقي ولا تتحدى. سكوتها يستحمر بجمال
قد اختمر طويلاً، وصار مسماحاً لها، وربما لي، أن أشتته وأختضن فوقه.
كانت تفهمني وأنا حائر، ألوب ... تبتسم وتُعلّمني التناغم والمداعبة،
 فأصير تحت نظرها. تكبرني بأعوام، ما الضير في ذلك؟ العرمان يولد
الرغبة المختمرة، فنحن، الاثنين، نعيذ أمامك القصة، ولا نكتبه كما في
الفرنسية أو العربية. اللذة تستجيب لنا، فلا أحد يأتي ويحل مكان أحد
آخر، فالأمر ليس بمثل هذه السهولة التي تصوّرها. فأنا، ربما، قدري كان
الاقتراب من سنية، والعائلة تدعوني مع الجميع، نعم، فالحالات فرحت،
 وأنّا أُجربّ تحت رأس إحداهنّ بعد الثانية، وقد بدأت من الجدة بببي التي
لا تستطيع الحركة كما يرام، فصعدت للطابق العلوي، وجعلتها ترتدي
الصايّة الغامقة، وتشدّ "البويمة" اللّماعـة على رأسها، فتعتدل في جلستها
كالعروس. خدّاها يتورّدان، ولسانها يبقى ساكتاً. نعم، كان الأسى كاماً
لديها، يظهر ولا يختفي، وكأنها تكافح، لكي لا تقول: آخ، فجاءت منحوتها
قوية جدّاً. فأنا أيضاً كنتُ أناديها؛ بببي فاطم. سنية وفتحية كنّ يتعطّرن،
ويضعنّ الزينة الخفيفة، فانتظر المساء، وأحياناً الليل، وفي بعض الأيام،
يضعونني في حجرة هلال المقابلة لحجرة عفاف المغلقة على الدوام.
سكنّ هذا البيت أفلحوا في أن يتركوني في منتصف المسافة ما بين عفاف
وسنية، فكانت الآنسة تقوى، وسنية تضعف إغواي، فتهزّ قلاعي، فأرى
نفسى وراءهما، أنا من الحاشية، وربما، أقلّ. نعم، دكتور، كنت أحاذيها
في الطابق العلوي نفسه، وأشمّ عطورها، وأدخل حمامها، واضعاً منشفتها
فوق وجهي، وأرددّ:

لماذا ينتهي الأمر قبل أن يبدأ، يا عفاف؟ لماذا أحبّك بأثر رجعي، وأنا
أخوض حرب استنزاف مع خالتك؟ هل هذا صدرك؟ أم رائحة إبطك؟ أم

أرض بطنك الضامرة؟ مَرَّةً واحدةً قلتُ لكِ، أحبّكِ وكُنّا معاً في حديقة الزوراء، وأمام حشود وشهود القرود والأسود والفهود، قلّتها، وكنتُ أتمنّ أن لا تسمعها قطّ. كان جوع رجولي يتّسع، فهوت الثمرة التي نضجت جدّاً بين يدي سنية، كأنها ضدّكِ، خلقت لكي تفضي إليكِ، فتنقضّ، ويفترس أحدُنا الآخرَ، فلان الفلانِي جاهل جوعان، وتبعث منه رواح اللجاجة، وأكثر الأحيان العداوة. نعم، يقتضي التنويم هنا أن سنية بدأت بالنكد، ثم العيّنة من عفاف الغائبة. أجل، ومن طرب، والأمر الذي يهدّى مراجها هو خطواتي اللصيقة بالعرض والشمّ والثمّ الذي يفضي إلى فسائل شبابي جميعها. فبدأت بالضغط والابتزاز بالمال، أجل، دكتور. استأجرت شقةٍ حديثة في جانب الكرخ من العاصمة، ووضعت المفتاح بيدي. لم يحصل هذا في الثمانينيات، فقد كُلّفت بأداء الخدمة العسكرية بعد التّخرج من الأكاديمية. كانت الحرب موجودة منذ الصباح الباكر وسهراً نهاناً إلى اليوم الذي يليه، فتمتدّ إلى اليوم والعام القادم .. نراها بين أهداينا وأقداح البيرة وعلب حليب الأطفال، فهي أحد أبنائنا الذين لم نلدهم، ولا نتحمل غيابهم عنّا .. آه حكيم، نحن نحبّ حروبنا وقتلنا ومنازعاتنا، نسام ونرتاح في أعلىها وأسفلها، ولا نضلّ الطريق إليها. أقدامنا تبطّط ونحن نريد أن نحجز مكاناً لنا قبل إغفال التوابيت والمقابر والأذرع والنسيان والطُّرقات والعربات. آه حكيم، الحرب تنفعنا، فنمّنّ بها أنفسنا، فالحياة كثيرة، ومزعجة، فلا ندرى لمن نرفع أيدينا بالوداع، ونخاف أن نضلّ الطريق إليها ..

فاكتملت فيها دروس الخلاعة والسفاهة جميعها، وعلّمت الكثير للكشف عن مواهبه في الانحطاط، فيما إذا صدقنا ما حصل بعدها، فليس بالضرورة أن تتجلى في اللذّة وحدتها، فبدأت سنية بتزوير تواقيع أخيّها تباعاً، وهي تقوم ببيع بعض الوقفيات التي لا تقع تحت أنظار الوالد أيوب الذي بدأت صحته بالتدحرج تدريجياً، ولكن، ما زال بمقدوره التّقصي

والبحث .. كان قانون الحظر قد اكتمل بمصاربات الدولار، واحتلاطه مع الدينار الضعيف في الأعوام الأولى من التسعينيات سعوداً وهبوا. ما عادت تستهويني سنية المرأة، ولا السمسارة المزورة التي صارت حركتها أسرع، وعلاقاتها المريرة أوسع مع أناس غرباء لا أعرف متى، وكيف تم التعارف بهم، فلم يعد أحد يلحق بها إلا ذاك الشيخ المتعب السيد أيوب الذي لم يكن في حسبانه، في أي حال من الأحوال، أن تفرض سنية اللطيفة النساء المهدبة هذا النظام الصادم والشائن. بقي يفكّر بطريقة ما لتخفيض وقع المقامرة والجنون الصاعق الذي كان يزورها بطاقة عاصفة للمضاربة التي لم تتوّقف إلا بمعجزة، فتصور بمقدوره ذلك، فأراد إنقاد الجميع، سنية ونفسه وما بقي من وقفيات، وربما من بعض الشرف يستطيع الإمساك به. فسكنّان البيت جميعهم ظلّوا يقومون بمراجعة، ومن مصادر متنوّعة لسجلات الطابو في أكثر من مديرية للتأكد: هل كان التزوير متقدّماً أم بالأحرف الأولى؟ فقد كان توقيع سنية مضحكاً كالأطفال، ويستطيع أيّ شخص الطعن به أو تزويره وتقليله، إلخ .. ولكن، ما جدوى هذا كلّه؟ ففي أحد الأيام، وصلت المضاربة ما بين المضاربين إلى الملايين، ووصل الرّقم إلى ما يعادل ثلاثة مليون دولار أمريكي، تبخرت في أقلّ من أربع وعشرين ساعة. من قبل، بقيت تردد بصوت به شيء من الفجور:

سنهاجر، سنغدو أثرياء، أجل، يا يونس. هنا سنموت من العفن، وسيطويونا النسيان .. هيّا، سنطوف العالم، وربما نزور فرنسا، وتزورها.

لم تسمّها حتّى باسمها؛ عفاف. بدت الشهوة تافهة، وتدفع للنكبة، وسنية تشبه المدينة المكللة بالخديعة، وهي تفرش أرقام بورصات الدول المجاورة على السرير، وكانت النقود تحسّستنا بالمداعبة بدلاً من أيادينا وألسنتنا. فكنا ننام بفظاظة وبؤس. فأعقب هذا الحصار كله عليّ وعلى

أفراد العائلة جميعهم، وعلى الخصوص أَيُّوب، صمتاً انسحب على الجميع.
فُصِيبَ الوالد بخَرَسٍ، لَا عُلِمَ لَنَا إِنْ كَانَ مُؤْقَتاً أَوْ سِيدُوم؟

لم أحِبْ سنية، دكتور. كنت أَتَجَهُ إِلَيْها لِتَصْرِيفِ الْوَقْتِ الْبَاقِيِ ما
بَيْنِ غِيَابِ عَفَافٍ، وَتَبَادُلِ النَّظَرِ مَعْ مُتَرَوِّكَاتِهَا فِي الطَّابِقِ الْأَعْلَى، فَأَحَادِيْهَا
وَحِيداً، وَأَبْقَى أُحَدُّثُ نَفْسِي، وَأُحَدِّثُهَا. هَلْ انتَهَى الْأَمْرُ، وَأَنَا أَدْفَعُ بِهِ،
لَكِي لَا يَنْتَهِي حَتَّى تَحْضُرْ سَنِيَّة، وَتَدْخُلُ وَتَجْتَاهُ حَيَاتِي فِي أَعْنَفِ هِيَاجٍ
جَنْسِي؟ هَكَذَا، فِي الْيَأسِ الَّذِي يَطْرُقُ بَابِنَا، وَنَقُولُ لَا، لَنْ نَسْمِيهِ رَعْباً، بَكْلَ
بَسَاطَةٍ كَانَ نَوْعاً مِنَ الرَّضِّ الْمَرْءُ مِنْهَا وَمِنْيَ. خَسِرَتْ سَنِيَّةُ الْمُضَارِباتِ فِي
الْعَمَلَيْتَيْنِ، وَفِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. كَانَ الْأَمْرُ نَوْعاً مِنْ شَبُوبِ النَّارِ فِي بَطْوَنِ وَأَعْنَاقِ
عَائِلَةٍ كَامِلَةٍ، فَأَرَادَ الْعَمَّ مُخْتَارَ التَّشْبِيثِ بِعَصْبَعِ مَا بَقِيَ مِنَ الْوَقْفِيَّاتِ، لَكِنْ
الْخَالَةُ فَتْحِيَّةٌ قَالَتْ لَهُ:

لَا تَعْلَقْ بِالْأَمْلِ وَتَعْلَقْنَا بِهِ اللَّهُ يَخْلِيلُكِ ..

بَدَا الْبَيْتُ وَسَكَانُهُ، وَبَعْدَ شَهُورٍ، وَنَحْنُ نَزُورُهُمْ؛ أَيُّوبَ فَقَدْ إِحْدَى عَيْنَيْهِ
أَيْضًا، وَسَنِيَّةٌ لَا أَثْرُ لَهَا، وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَؤْكِدْ شَيْئًا؛ غَادَرْتُ خَارِجَ الْبَلَدِ؟
أَمْ قَضَتْ؟ أَمْ قُتْلَتْ؟ .. أَمْ مَاذَا؟

هِيَّا، يَا يُونُسُ، أَنْتَ رَأَيْتَ ذَلِكَ الْجَسَدَ الصَّبِيَّانِيَّ الْأَصْمَّ، فَكَيْفَ قَدِرْتَ
أَنْ تَفَكَّ طَلَاسِمَهُ الْبَسيِطَة، فَتَشَبَّثَتْ بِكَ مَرَّةً وَمَرَّاتٍ. كَانَتْ عَفَافُ ثُبُورَنَا،
لَمْ تَرَكَنَا، وَلَا أَنَا أَوْهَمْتُ سَنِيَّةٍ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

هَلْ أَنَا مَذْنَبٌ وَقَاتِلٌ وَمُسَبِّبٌ هَذِهِ الْحَرَائِقِ كُلُّهَا، دَكْتُور؟

مَجْرِمٌ وَحِيدٌ، وَيَشْعُرُ بِالْمَلَلِ، وَيُسَمِّيُ الْجِنْسَ مَعْ سَنِيَّةٍ نَوْعاً مِنَ التَّفَاهَةِ

التي لا تتطابق مع فنّ الحرمان حتّى .. ولكن، مقوّمات الجريمة جميعها كانت في حوزتي:

فجوري، جاذبيتي، شهوانيني، طمعي، الشيء اليسير من الشهرة التافهة كنحّات طلع من الظلّ. نعم، حكيم، لا أحد قال لها هذه هي النهاية، ولا أحد أجبرها على النهاية. لا أحد استأذنها، ولا أحد تركها. لكن الأمور حصلت هكذا، كل واحد متنّا اكتشف، ومن جانبه، أنه عاجز، وما عليه إلا أن يدير ظهره ويمشي بعيداً. لم يكن ضروريّاً أن يكون هذا الأمر مبكراً، نحن كنّا نقهقه ونتحدّب في الوقت ذاته، وعلى استعداد أن لا تخلص مما نحن فيه .. نحن كلنا لا نعلم كيف حصل ذلك القدر المسؤول، لكننا كنّا نردّد كلمة واحدة: لا حول ولا قوّة، حتّى العُمّ مختار الذي تطلق عليه بببي فاطم بالسّكير الرّتديق يعيد ويكرّر ..

نعم، قامرت المرأة بجميع ما تملك، وما ليس لها. فتعهدت أن تُكمّل شهوة الشرّ، فوصلت نقطة الخاتم التي لا طائل وراءها، فلا نعرف كيف بلغت تلك الدرجة؟ صميم، كالعادة جذبته تلك المشاهد، فكان ينتقل أمامنا من مشهد إلى آخر؛ فالتسعينيات كانت تشبه صناديق الزجاج، كل شيء ظاهر للعيان، وليس مثل الآن، ونحن على اعتاب السنة الجديدة من عام 2012، فبقي يدور ويحوم بعد أن دعاني لزيارة، وهو يردّد:

بالتأكيد هناك مسبّبٌ مثير تحت القبة كما يقال. أجل، دافع، قل حافظ حتّى لو كان وقوراً في البداية، ولكن وراء ذلك رجل لعق شفَّتها، وفكّ حضونها، فوضعت في حجره جميع ما تملك. قصة مسلية، لكنها فاجعة عائلية رئيّة ورخيصة. المثير في الأمر أننا لم نشاهد قطّ رجلاً يحوم حولها. هذه القضية لا تقوم بها امرأة واحدة ووحدها، ولا نكتفي بسرّدها

من خلال الحدث فقط .. نعم، نعم .. كان القتلة يتضاعفون من حولنا، والأبواب شرعت لتحويل السكان، وقد فهم لأنهن المحرقة.

كان يدخن وينفث دخان سيجارته كأحد أبطال السينما وهو يروزني بنظرات، لم أستطعها أبداً. فواصل وهو يقف مواجهتي قائلاً بهدوء، وهمس:

ما رأيك، أيها الهمام الشجاع، لو قمت بتنقّي هذه الحادثة؟ أنت صديق عفاف والعائلة، وكنت موضع ثقة من الجميع.

بدأ جسدي بالتعزق الشديد، فشعرت بذلك بدءاً من ججمجمتي حتى أخمص قدمي.

ابتسمت بطريقة هادئة في وجهه صميم. لقد دعا أفراد عائلة عفاف جميعهم، هكذا، أراد بعض التكريم للأوقات العصيبة التي مررت على الجميع، فقد بقي يشعر بتحمّل التبعات، كما وعد عفاف في أحد الأيام، لكن، لم تحضر إلا الحالة فتحية والعمّ مختار فقط. شعرت أن غرفة الضيوف كانت مكتظة بالوجوه والأشخاص ورجال الشرطة وأفراد من المليشيات وبعض الأساتذة في الأكاديمية. لقد نسي الأستاذ صميم دعوة أحد المراسلين الحربيين الذين كانوا يتجلّلون في البلد، كانت رؤيتهم والكاميرا تأسفهم تساهم في بث الراحة والتسلية فينا .. نعم، دكتور، كانوا يستفسرون عن غياب المارينز .. وكنا نطلق ضحكاً عالياً كلمة - الـ اـ رـ يـ نـ زـ، عندما تقسمها وتجمع حروفها، تلتئم جروح الشجر والبشر، أي والله، هكذا أخبرتني جدّي الرحمة على روحها: "عندما تقدم المارينز نحو بغداد في العام الأول من الغزو، فشاهدوا نساء متقدّمات في السنّ وقفن بأثوابهنّ السود خارج الطينية، قبلة موضع الفصيلة"

يُحدّق في الإست الباهت الأبيض لأحد عناصر المارينز وهو يتغوط في باحة فنائهنّ الأمامي، ”وهو عارٌ من وسطه نزولاً. وقال أحد جنود المارينز حينذاك للمراسل معلقاً: ”أتخيّل لو أن الأمر معكوس، فيأتي أحد عناصر الجيش إلى الضاحية من بلادنا، ليتغوط في حديقة كلّ شخص؟ إنه اللعنة، الأمر شاذٌ“.

شعرت أن وجودي أمر شاذٌ في تلك اللحظة وأنا بينهم، وأنا ألتّقّ حول نفسي كالشرنقة. كانت الخالة فتحية قد نحلت كثيراً، وغضّت رأسها بشال رصاصي اللون، وبدت قَدَّماها غليظتين، لا تصاحان للرسم أو النحت. وبجوارها العمّ مختار وهو يغطي رأسه بُعْرَة ملوّنة بالأبيض والأسود، أوّل مَرَّة أراه بهذه الهيئة، فمه ناشف وريقه يابس، وعيوناته الطّبّية صارت غامقة جداً، وطرب تحرّك أمامنا بعدما قالت وهي تقوم واقفة:

سأجلب القهوة المُرّة.

دخلت.

بيبي فاطم غير موجودة، والوالدة مكّية والوالد أيوب أيضاً. معاذ غائب في أوربا، وصميم يدخن ويُحدّق بي، ثم يلتفت للكلام مع الخالة فتحية، وبهمس.

كنت أشبه كبسولة على وشك الانفجار. هذه هي المرأة الثانية التي نجهل إلى أين ذهبت؟ الأهل يقولون اختفت، وهذه الكلمة لها وقع المصيبة التي تخترق القلب، لكن، ها أنا أعيد عليك وبعد تلك السنين كلها صورة بالنيكاتيف، ربّما هي أفضل ما لدى:

إلى أين ذهبت سنية، دكتور؟

سعلت بصوت خافت، ودمدمت بكلام غير مفهوم، وقمت من مكاني.
لم أصافح أحداً ولا التفت لطرب التي نادت عليّ:

يونس عيب لا يجوز، عليك البقاء معنا، أنت واحد منا لو نسيت؟

فتحت الباب، وبدأت أجري في شارع التانكي. بدا الشارع بحوي تماثيل احترقت وبيوتها أفرغت، وسكناناً لم يعودوا بعد. كانت رائحة الخراء الأمريكي تعطي سماوات وشوارع جميع الأحياء التي أمرّ عليها. خفت من المرور على المكعب، كي لا تطلق منه أيّة رائحة هو الآخر. في هذه الساعة الرّحّمانية، بدأت أرى بدلاً من الزهور والنباتات المتسلقة دوداً وحشرات وحيوانات ذات رؤوس غريبة وهي تتغوط في كل مكان وبقعة، تخرج من الأرض، وتغطي جميع سياجات ما بقي من قصور تعقّنـت وفيلات صودرت وتحطمـت، فكـدت أناـدي على أيـ أحد، أيـ اسم، حتـى صـرت في فـم شـارع عمر بن عبد العزيز. كنت أختـض وأزداد تعرـقاً وأنا أشاهـد عـربـة للأـجرـة في الطـرف الآخـر من الشـارع. فـتوـجـهـت إـلـيـهاـ، فـكـادـ يـغـمـىـ عـلـيـ وـأـنـاـ أـرـفـعـ يـديـ لـكـيـ يـقـفـ. جـلـستـ بـجـانـبـ السـائـقـ، وـبـصـوـتـ شـدـيدـ الـوـهـنـ، قـلـتـ لـهـ:

إـلـىـ حـمـامـ سـوقـ الحـيـدرـخـانـةـ، مـنـ فـضـلـكـ.

في ابتزاز الفراق

سيدي الحكيم،

حفظت ما دار في الليلة الأخيرة، ونحن تقدّم في العربية في طريقنا للمطار لوداعها وهي تغادرنا، وبالتالي ما دار فيما بيننا في أثناء المحادثات، أو ثواني الصمت. كنت بصدّ البكاء، وعلى مهل، وكنت كتوماً في دمعي، وأريد أن أصرخ في وجهها: أريد الاقتران بك حالاً، وإنجاب الأولاد منك. أريد أن أسكن فيك، ويتوقف غضبك وحزنك ومعارضتك .. أريدك، كي يكون لل Yasas هيئة تامة، وللفن قوام راقٍ، ولني صيتُ أفضل مما لدى .. لكنني خرستُ، سكتُ، وصمتُ .. قد ترى في هذه الصفحات ذكور، بعض الأدلة أو الحقائق، أو الشهود، وعلى الأكثر القتلة، وربما، أول ما تطا أرضنا المباركة تقدّنا إلى السجن أو المحقق. كما أن هذه الصفحات لا أظن أن صميم يتذكّرها بهذه التفاصيل كلها، ولا طرب، ولا علم لي أين أضعها، قبل رسالتي إليك أو بعدها، أو ماذا؟ فقد شعرت أنتي من تركتها أو وقفاً مما بقي من وقفياتها، وما على إلّا ذكر ذلك إليك، وقبل إغلاق القضية أو تلفها.

إلى آخر الدموع

لم نذرف الدموع في وداع عفاف، دكتور، في العام 1979. كان الكلام يجف في الحلق، ويتحول إلى حجر مدّبب، فلا يفضي إلى الصمت الخائب. أنا أجلس في المقعد الخلفي وهي بجواري من عربة البويلك البرتقالية ذات الأجنحة الطائرة. طرب لم تنزل من العربية. كان وجهها بارداً كوجوه الموتى، ونحن نرى العربية تقف بباب الأكاديمية. صميم نزل ورحب بنا وفتح لنا الباب. دخلنا وجلستنا وشعرنا تحت أقدامنا خشخشة أكياس من الورق النايلون وقناني من البيرة الفارغة. دفعتُ أغلبها صوبِي. كنّا كمن نودع ميتاً، ويلزمنا الاستعجال على دفن ما تبقى منه قبل التحلل.. شعرتُ لثانية ونحن تحت جنح الظلام وفي طريقنا للمطار، أننا نقوم بقتل جماعي دون أن يرتفَ لنا جفن. أيدينا معقودة وألسنتنا بكماء، والغبש في الرؤية والقلب، والدموع كالأجسام الصغيرة لا تغادر العيون، ولا تُبلل الراحات، وصوت صميم يقطع الأنفاس بصخبه المجنون الذي يدلّ على الاضطراب مثلنا:

ما هذا، يا جماعة؟ ليست هذه طريقة طريفة في الوداع. ما هذا التهذيب الذي حلّ عليكم ما.. ماذا بك، حبيتي؟ أين شجاراتكما المتواصل الذي لا يتوقف لها..؟

النحو والتاء

لا أصدق نفسي عندما أراكما بلا نكد أو جدال. هيّا، افتحي لنا وليونس
قناي البيرة، ولا تدعني الليلة ليلة وداع. عفاف، هيّا غنّي لنا آية أغنية، فهذه
ستكون كلماتك الأخيرة التي سنلوذ بها. هيّا، عيني، صوتك الشجيّ وليل
بغداد المثقل بما لا يُقال. اسمعي، قلت لك وسوف أكرر ثانية وعاشرة،
لم أر في البشر مَنْ هي أكثر حمقاً منك.

أول مرّة يطلع صوت عفاف وهي تلتقط صوبي قائلة:

هو هكذا دائماً معي يمتدحني ويشتمني في الوقت ذاته. هو لا يطبق
أن يوجه مدحه اعتيادياً لأحد، فهذا لا يليق. فيُبدع في الشتم، يتاجّح غضباً
.. ها أتكلّم صحيح لو أبلغ وأنت بتسم بسخرية وألم. أراك في المرأة.

”الخروج من البلد، يكون ضروريأ، كما لدى الكتاب العظام حين يجدونه
هكذا، وأنتِ صدقيني، الحياة لا تستحق هذا العناء كله. وإنّ فقدّمي
لي سبباً واحداً معقولاً لهذا المؤس كله الذي تغمررين نفسكِ فيه عمداً.
أجل، مع العناد الذي أعرفه عنكِ”. انخفض صوت صميم قليلاً، وصار
على وشك أن ينقطع:

دائماً أردد جملة انحرفت في ذاكرتي:

”علّمينا أن نهتمّ ولا نهتمّ، علّمينا أن نجلس ساكنين“.

ويبلغة إنجليزية راقية مثل إذاعة لندن بدأ يردد هذا المقطع الشعريّ:

”أنتَ تتجول طليقاً في الجبال، وأنا أدخل وحيداً في الشتاء“.

فجأة ارتفع صوته، وتغيّرت نبرته:

”ما الذي تريدين تحقيقه؟ غزو العالم؟ أينشتاين أو بيكاسو؟ لن تصلي إلى مستوى أي واحد منها. أنا متأكد وأنت متأكد. ولنفترض جزافاً بأنك وصلت ليس إلى أحدهما، أو بل إلى مستوى أقل طبعاً، أرى أنك تطمحين بهذا، وهذا أمر مشروع، فماذا سيفيدك هذا كله؟“

بدأ يصرخ ويُصرخ ويُخرج رأسه من النافذة. الشوارع شبه خالية، والأنوار خانسة، وهو يهتف:

Vive La France

يواصل بصوت صاخب وعالٍ:

ثقي، يا عيني، لا شيء البَتَّة كما تقولان، أنت وهذه الساكتة؛ وبِدأ بحسرة وحرقة، أنا شخصياً لم أسمع مثلها من قبل. وبصوت شديد الحزن يتلو:

”وَوَجَهْتُ قَلْبِي لِمَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَمَعْرِفَةِ الْجُنُونِ وَالْحَمَاقَةِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا أَيْضًا كَآبَةُ الرُّوحِ.“

التفتت عفاف ثانية، وكان وجهها وفمها يُرددان هذا الكلام وراءه، فقالت لي معرفة:

كانت طرب تطلب مني إنشاد نشيد الأناشيد، فقالت لي يوماً لماذا لا تقومي بتلحينها، فهي صالحة في أيام الجفاف والألم، وفي حالة مَنْ يغادر ولا يعود مثلي ..؟ وهذا اختيار سليم، يا عزيزي صميم.

دخل الجميع حالة من الوجوم. بعْتَهُ صوت صميم يخيف في صدقه ملتفتاً لطرب، فناولتها علبَّي بيرة باردة:

لَا نفع معكما، لَا أنت ولا طرب. لَا أنت تصغين ولا هي. مَنْ سيلعب
معي - الكونكان -؟

توقف، تنهَّد بألم، وواصل:

وأنت، سيد يونس، هل تعرف هذه اللعبة؟

غمغمت طرب وهي تلتفت صوبنا ولأول مرّة منذ صعودنا، ترفع بصرها
بنظرة ارتياحية وهارئة، ثم تطلقان ضحكة مجنونة هي عفاف، فيستجيب
لهمَا صميم بالضحك العالي، وصوت عفاف، كما لو أنها تواسيني:

لا أتصوّر، يا عزيزي صميم، أن يونس قد سمع اسم هذه اللعبة أو
غيرها أصلًا .. هي ..

جفلت وأنا أسمع اسمي يُتقاذف كالكرة بينهم وبشيء من التهكم،
فالتفت إلى قائلة:

اسمع، لو فرضنا ستلعب الورق في يوم من الأيام مع هذه العائلة،
فلا تطلب النجدة، لا تنادي على طرب أو أي أحد. إن المرء هناك
في ذلك البيت، لا يطلب النجدة حتى لو كان يحضر. اللعنة عليك
وعليكم جميعاً، ستقطعون وحدكم شريط المكعب وأنا غائبة، وتقومون
بتدمشين ومشاهدة أساسيات البناء بدولي. من الجائز نجحت قليلاً
في العمل على خارطة للبناء، تلك التي سلمتها للأستاذ معاد، أَفَ،
ما هذا الحظ العاثر؟

لم أفهم ولا كلمة واحدة مما تفوهت به عفاف. نظرت إليها خلسة،
وبدت لي مخلوقاً، أكاد أعرف اسمه وبعض صفاته. كانت ماكرة ولا
مبالية، كلاً، صارت عدوانية قبل المغادرة. وصميم، هذا الرجل الذي أراه

للمرأة الأولى، وإذاً، هذا زوج طرب التي كانت تجمعُ الطَّلَبَةَ ومن الجنسين،
لينظروا إليها، وهي تصل وتتمّر و.. فجأة نطقت طرب بصوت به دلال:

نحن نلتقي في الأكاديمية على الخصوص في العام الأخير، فقد
تخرّجت قبلكما كما تعلم. ونحن نعلم بمدى موهبتك كنحّات. دعك
من صميم، إنه مضلّل في لعب الورق، فهو يريح بقدرة المرض أو الوهن
أو النَّفَس الطويل، فيفوز وهو ثمل نعسان أو سئم على الخصوص. إنه
يؤمن بالنجاح، فهو لا يحبّ الخسارة. أليس كذلك؟

"أنتِ مجونة مثل صديقتك المسافرة، ولا تُحسني العيش. عليك أن
تعرف في شيئاً، هو أن للحياة البسيطة جمالها، وأن يتمتع الإنسان بهذا الجمال
وذلك البساطة أمر غاية في الأهمية. أنت تنتظرين أن تصلي للشيخوخة،
لكي تعرفي هذا، أنا أكبر منكم جميعاً بأكثر من عقد، وأخبركم تجربتي،
فلا تصغون إليّ. أن يحيا المرء فطريّاً طبيعياً خالياً من العُقد، هيّا، قولوا
وأجيبوني، منْ هو الذي يتمتع بالسعادة، أنتم؟ أم ..؟ انخفض صوته قليلاً،
وأضاف:"

تدخلت عفاف ضاحكة قبل أن يواصل حديثه:

هيّا، أخبرنا بدون هذا النكّد كله:

"الطبّاخة أو الطّبّاخ"، أسعد؟.

"إذاً، في هذه الحالة السائق أسعد، يا عزيزي؟ حسناً، ولكنك أنتَ
أيضاً تقرأ وتكتب وتسمع الموسيقى العالمية، وتحضر الحفلات الموسيقية
الراقية، وتسافر وتكتب .. أليس كذلك؟

كان نوعاً من الاستجوابات القائمة فيما بينهما، ونحن أنا وطرب ساكتان.
فَوَاصَلَ صَمِيمَ:

آه، كنت أفعل هذا وذاك. كل ما ذكرت هو فعل كان ناقصاً. أقلعت عن القراءة منذ زمن بعيد، إنها الأفكار ذاتها دائماً، وهي تُعاد، لعلّها تُقال بأشكال جديدة. ما أهمية الأشكال؟ المهم المحتوى. المهم قررت أن أُقلع عن قراءة الهراء كله".

انفجر يضحك وهو يُكمِل ملتفتاً إلى طرب:

أشعل لي سيجارة، حبيبي.

للحظة شعرت وأنا وراءهما، بأن وضعه كان جدياً متالماً وهو يُعدُّ
وضع نظارته الطَّبِيعَةَ:

"هذه هي الحياة، ومنْ يقول لك شيئاً آخر، فهو كاذب منافق وغبي
ومنحطٌ".

ردت عفاف رأساً، فقد كانت تنتظر هذا كله قائلة بحسم:

"تقصد ذكي؟"

"بالضبط. فالذكاء هم الأغبياء فقط. هذه هي الحقيقة الوحيدة. لا
حقيقة غيرها".

لهجته الحزينة ونطقه الكلمات الأخيرة كأنه سيموت ويُدفن أمامنا،
فقد خللت أول مرّة في هذه الحوارات. وبصوت خفيض وهادئ قلتُ وأنا
أُوجّه الكلام إليه:

"قرأتُ يوماً رواية، لا أذكر اسمها، أستاذ".

توقّعتُ أن يقاطعني، لكنه لم يفعل، فواصلتُ:

"تحدّث عن نجاة ثلاثة ركاب لسفينة تعريضت للغرق ..".

صرخ صميم بشيء من السخرية، لكي يُدد حزن الوداع والفارق:

"أعرفها، أعرفها. إذ يصبح الأول مؤمناً، والثاني فاسقاً، والثالث عديماً.
أجل، شيء من هذا القبيل. غاب عنّي اسم الكاتب. إنه إنجليزي. إنها سخيفة. مباشرة، ومن ثم فأنّت تشير، ربّما إلى بعده أن وصلك نبأ أزمتي القلبية الطارئة وأنا ما زلت في حدود الأربعين".

وهنا أطلق ضحكة مجنونة وغريبة:

"كلاً، كلاً، ليس بسبب مرضي، هذا عُته. أرأيتَ؟ أنتَ أيضاً واحد منهم، لا تصغي جيداً، ولا تصغي إلى".

لكني أصغي إليك، أستاذ.

لكنك لا تقنع بما تقول.

هنا تدخلت طرب وقد صار صوتها رقيقة، ربّما، بسبب البيرة:

"هكذا هو صميم دائماً. علينا الاقتناع وإلا في دماغنا انحراف ما. أليس كذلك؟"

فعاد صوته يُدوّي وسط العرية قائلاً:

"إذَا، هيّا، قولوا لي لمَ هذا الصمت الجنائي كله، ها؟ عال. خير لي

القيام بوصف باريس، لأنها من هذه المهمة الشّاقة. من الجائز أنها من المُدْن التي تساعدك على أن لا تحطّ من قدر نفسك، لأنها قاسية، وسوف تقسو عليك كثيراً حتّى تحكمك بالكامل، إذا لم تكون مستعداً لها. عفاف، اسمعى، إذا التقيتك ثانية هناك، سوف تدعيني أحضر معرضك الثالث أو الرابع .. ها، وسوف أقف قبالتك، وأسالك سؤالاً واحداً: انظري في المرأة؟"

تحفّزت عفاف، وبدأت تتململ في مكانها. ومدّت نصف صدرها، واقتربت من رأسه ووجهه، وهو يقود. كانت تنفس بصورة سريعة، وتلهث، وهو ينفث دخان سيجارته عالياً:

"ماذا سأجد في المرأة، يا عزيزي المبجل؟"

ردّ ضاحكاً:

"لن تجدي شيئاً، يا عفاف."

ضحكـت عفاف بصورة صاعقة، فالتفت طرب إلينا، وبصورة مبالغة، وبصوت واحد صرحاً:

"آية رؤية حارقة لك."

تمسّكـ صميم بالفكرة الصاحكة، وهو يركّز على أنه "يقرأ الممحى". لم يزعجهـ ضحـهما، فدخلـ هو في الضـحك معـهما. ثمّ التـفت إلـيـ، وأنا كنت مضطـراً فعلاً، لا أعرف ماذا عـلـيـ أن أفعل؟ هل أبدأ بالضـحك مثلـهمـ؟ وعلى ماذا؟ أم أبقىـ ساكتـاً، لـكيـ أفهمـ ما يجريـ بالضـبطـ؟ فلا أـعـرفـ هذهـ الأـلـغـازـ التيـ تدورـ بـيـنـهـمـ. ضـحـكتـ عـفـافـ فـيـ وجـهـيـ، فـابـتسـمتـ بدـورـيـ.

صميم كان متزوجاً ببعض الشيء، وهم يضحكان ويبتعدان عن الموضوع الأصلي الذي ما زلت أجهله. فعاد صميم للكلام:

يا عفاف، دائمًا تُسفهين المواقف، وتدعيني أضيع وقتي هباء. إنني أحترق من أجلك وبعض ظروفك، آه، طبعاً سأمر كالعادة، وأزور عائلتك، ولن أدعهم. أي طبعاً أنا وطرب. سأبحث عن هلال، وأرسل إليك عنوانه في إنكلترا أو غيرها. والدك وعمك ما داما لا يعملان بالسياسة، فلا بأس عليهمما. والنساء سأزورهنّ، لا كل من يد الطّبّاخة العظيمة التي تستنكفين إطلاق لقب الطّبّاخة عليها أو عليك، إذ لو لاهنّ، لقضي على العالم.

"قلت لك، يا صميم، ما شأنك بطريقة حياتي".

قالت عفاف ذلك، وبدأت بفتح زجاج النافذة قليلاً. فردّ عليها بحنان:

"لن تفهمي بعد أنني أريد أن أجنبك التعasse الآية".

"لن تستطيع ذلك".

لم يتدخل أي واحد منّا، فهما كما لو كانوا يتداولان الضربات، هي تصدّ وهو يواصل:

"أرى ذلك واضحاً، إنه سبق الإصرار، والكلام الذي لا يفيد. إنني أخص لك تجربتي بأكملها بكلمة واحدة، لا تستطعين استيعابها".

أجبت حالاً:

"أن أصبح طبّاخة؟"

"أرأيت؟ أنت تسمعين ما تشاءين من الحديث. لقد تحدثت بالسهولة التي تنظر بها هذه الطّبّاخة إلى الأمور".

ومَنْ قَالَ لِكَ ذَلِكَ؟

أجابته وهي تنظر إلى أضواء الشارع.

أُمّك السَّيِّدَةُ الْجَلِيلَةُ. إِنَّهَا تَنَامُ مَلِءُ جَفُونَهَا، وَتَسْتِيقُظُ مُبَكِّرَةً، لِتَطْلُعَ فِي السَّمَاءِ، فَتَشَاهِدُ اللَّوْنَ الْأَزْرَقَ وَالْذَّهْبِيَّ الْمَمَّاعَ لِقَنَانِي الْبَهَارَاتِ وَالتَّوَابِلِ بِجَوَارِهَا وَحُولَهَا. تَلَكَ الْمَوَادُ وَالرَّوَائِحُ الَّتِي تَعْمَلُ مَعَهَا عَمَلًا، وَأَنْتَ نَظَرِيًّا. هِيَ تَأْكُلُ حَتَّى الشَّبَعِ، إِنَّهَا تَحْيَا مِنْ خَلَالِ التَّذْوِقِ وَاللِّسَانِ وَالْمَادَّةِ الْخَامِ الْأَصْلِيَّةِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالْكَوْنِ، وَكَيْفَ يَتَمُّ الْاِتِّقَالُ مِنَ الْحَالَةِ الْصَّلَبَةِ إِلَى الْحَالَةِ السَّائِلَةِ أَوِ الْمَطْبُوخَةِ لِلْأَرْزِ وَالْبَرْغَلِ وَجَبَوبِ الْقَمْحِ لِعَمَلِ الْهَرِيسَةِ الْأَلَدِّ عَلَى قَلْبِيِّ، وَالْخَضَارِ بِأَنْوَاعِهَا كُلُّهَا، وَالْفَاكِهَةِ الَّتِي كَانَتْ تَبْرُقُ حَبَّاتِهَا وَسَوَائِلِهَا، وَأَزْعَمْ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ يَنْضُجُ وَيُطَيِّبُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهَا حَتَّى الْحَجَرِ. كَانَتْ أُمّكَ تَبْتَسِمُ وَنَحْنُ نَدْخُلُ عَلَيْهَا وَهِيَ تَرْقُبُ الطَّنَاجِرَ تُطْلِقُ أَبْخَرَتِهَا وَرَوَائِحَهَا عَلَى الْبَشِّرَاتِ وَالْجَدَرَانِ وَالرِّجَاجِ، وَكَنْتُ عَلَى وَشَكٍّ، لَوْلَا الْحَيَاةِ، أَنْ أَبْوَسُ أَصَابِعَهَا وَيَدَهَا وَكَفَّهَا، فَهِيَ كَانَتْ مِنْ شَدَّةِ السَّرُورِ تَضْحِكُ. أَطْنَّ هِيَ تَعِيشُ مِنْ خَلَالِ ذَلِكَ النَّفِيرِ وَالصَّفِيرِ فِي الْفَازِ وَالنَّارِ وَالْجَوْعِ وَالْدَّفَءِ وَالْتَّقْفَنِ وَهِيَ تَتَنَظَّرُ مَنْ أَنْ يَنْلَعِجُ النَّشَوَةَ. هَلْ صَوْرَتْ أُمّكَ، يَا عَفَافَ، كَمَا رَسَمْتَ جَدَّتَكَ وَعَمَّكَ وَبَاقِي السَّكَّانِ؟ هَلْ نَظَرْتَ مَلِيًّا إِلَى وَجْهَهَا؟ سَتَرِينَ أَنَّهَا، رِبِّيَا، أَكْبَرُكُمْ سَنَّاً، هَذَا صَحِيفَ، لَكِنْ عُمْرُهَا مُتَنَّكِرٌ فِي فَرْدَوْسِ صَفِيرٍ لَا يُبَرِّي. هِيَ الطَّبِيعَةُ. فَهِيَ تَشَبَّهُ بِالْجَنَّةِ فِي بَيْتِكُمْ، يَا عَفَافَ، وَكُلَّمَا زَرْتُكُمْ أَبْصَرْتُهَا لَمْ تَرُلْ مَحْتَفَظَةً بِنَظَرَةِ الطَّفْلَةِ لِلْعَالَمِ.

رَدَّتْ عَفَافُ وَصَوْتُهَا اخْتَنَقَ بِخِيطِ مِنَ الدَّمْعِ أَوْ مَا شَابَهَ:

آهُ، هَذِهِ أُمّي مَكَّيَّةُ. آهُ، لَوْ تَسْمَعُكَ، لَأَغْمِيَ عَلَيْهَا، وَلَطَرِدَكَ أَبِي فَقَدْ يَتَصَوَّرُ أَنَّكَ تَغَازِلُهَا، لَكِنِي أَشَكُّ فِي حَقِيقَةِ تَلَكَ النَّظَرَةِ الَّتِي تَقُولُهَا.

"لأنْ أُمّك لا تشكّ. والطّبّاخة تلك التي لا نعرفها في روسيا أو الصين
أو البصرة أو الموصل لا تشكّ هي أيضاً".

"إنك تحسدها؟"

التفتت إلى، ووجهت الكلام نحوي:

ما رأيك، يا يونس، بهذه المحاورة كلها؟

دعيه جانباً، فالرجل لم يتعرّف عليها. ودعيني أؤكّد لك، نعم من قلبي
كله أحسدها. على أيّة حال، هذه أصوات المطار. أرف الوقت .. ها، هكذا
تقولان ..

طلع صوت عفاف حاسماً هذه المرّة:

"اسمعوا جميعاً وكما اتفقنا. تصعوني في الباب وتغادرون. صميم،
أنت لا تريد مني أن أصحّك، بل على العكس، ت يريد أن أتحبّ، أكفر عن
اختياراتي الشّريرة في الاختباء بالسفر والرسم والشّعر والمعارض والفلسفة
والكتُب ..".

التفتت إلى، وصمتت. لم تجد ولا كلمة تتوجّه بها إلى. ما أعجب كل
هذا الذي يحصل ويحدث الآن. شعرت أنني كبرت عقوداً، واجتررت الكثير
من الأشياء والأحداث والوجوه .. فأكثر الوقت كنت صامتاً، وهؤلاء القوم
لا أعرفهم، وبالدرجة الأولى عفاف .. فنصير في الشارع، وأمام ضجيج
الوداع والاستقبال ورجال وزعيق وبكاء وكذب وحقيقة .. وعفاف تضع
يدها على كتفي وكيف طرب. هكذا، بلمسة واحدة من الأكتاف، وأنا لا
أستطيع النطق بكلمة .. كان الغياب تجمّع كله في تلك الأصوات الغيبة
التي تكشف الوجوه، وأنا أدبر رأسي إلى الجهة الثانية من العتمة. كنت

على وشك الاحتضار. صميم هو الذي أخرج الحقيقة الكبيرة نوعاً ما من بطん العربية. ووقف قبالتها، وأمسك ذقها:

بعد أن عدنا من شهر العسل في باريس قلت لك، على ما أندَّرْ،
باريس موشور سماوي، يطلّ ويغيب، ولا ينتبه إليه الجميع. أريد منك أن
تلحظي هذا ويدقة. قبل ما بين جبينها ومفرق شعرها، واحتضنها وهي
منكسة رأسها. أخرج من جيده مظروفاً مطويّاً، فتح حقيقة يدها، ودسته فيه.
كانت طرب في حالة اتحاب وهما يتعانقان. ظلّا هكذا، لا أدري كم من
الثوانِي، فوصلهما صميم وهو يقول:

سنزورك قريباً، قريباً جدّاً جدّاً. لا تشغلي نفسك إلا بدراستك، وأنا
وطرب دائماً حاضران ..

كفى .. كفى.

مشت قليلاً، ثم نادت عليها طرب، وهرولت إليها، وهي تضع معطفها
الواقي من المطر فوق كتفيهَا، واختفت بين الأضواء.

من مهملات الحبّ

آه يا حلو

آه يا حلو يا مسلّيني

يللي بنار الهر كاويني

إملا المدام، يا جميل، واسقيني

عفاف أَيُوب آل

كان ينبغي أن أدعك تمسك بزمامي كما يقولون في لغتنا العربية، لكي
أنال الحظوة، آنذاك، لا أعود ذاهبة وعائدة إلى النافذة، وأنت تغيب،
وأنا أكسر حواجز القلب، وأقع في الخارج، وأنغير في نسختي الأولى
التي كتبتها لك بخط اليد، والثانية بالألوان، والثالثة غير منشورة: أرسل
ما أدون وبنسخ عدّة مرتبكة جدًا إلى معاذ وصميم وطرب. أضع الطوابع،
وف فيما بعد أكتشف أنتي نسيت إرسالها، فصارت الخطابات تشبه الأكومام.
حذفت يونس بوصفة كان في إحدى الأعوام له حق تمثيلي كمحب من
النوع التعس.

مغرمة تتلاعب بها الألفاظ، فلا تحصل على لفظ صريح. يصير لساني
مضاداً لي، فيشتمني، ويعلي شأنك، فيأخذ جميل التحوّلات وأصول

الكلام إليك دون أن يترك أية واحدة لغيرك. فأناديك بالضمائر كلها،
ونبدأ بالغائب:

يا كيوم، خذ، خذ بقوّة ما لا يمكن تخيله، ومن دون عودة للمعاجم، فأنا
أريد أن أشتّق لك اللعنات والملذات، وأدعك تستغلّني، ولا تختزلني. لا
تعترضني، أرجوك فيما إذا أصابني الهلع مما أشتاقه فيك، والذي لا أقدر
الوصول إليه، وما لم تُلْغِنِي إِيَّاهُ وأنا في حضنك، ما لم أحصل عليه حتّى
وأنت تُنهِكِني وتستخدمني كما لو كنت غريمك. هل تعلم أنتي لم أكسب
منك شيئاً، لا نطفة تبذرها، فتعتريني أعراض الْأَمُّ الباسلة، ولا حاولت
أن أُحْقِّق صيّتاً طيّباً من لوحاتي التي أنزلت بها المصائب، فساعدتنـي
أيّها الرجل المقتبس من الكُتُب وخيالي على الخوض في نمط جديد من
الهستيريا. في اللوحة، أضعك بجوار عوليس، وأحياناً قبله، ثم أزيح الأوّل
خارج اللوحة، وأدعه يُصَاب بالْحُمْق، وأتركك بمفردك، ولا أتلّفِي التصفيق.
صحيح أنت مفقود في الواقع، وثبتت في اللوحة، وأنا أتحسّس بيدي الأنف
والخدّ والشفاه، وأشمّ أقصى نَفَسٍ تزفره ونُطلقه للخارج.

عِدَاؤُهُ الْحَبَّ

بقيت في مكاني، وإنذار التحطيم يلاحقني، في أول بنوده: انقضاض
المرض علىّ. حسناً، بوسنك أن تمنع إقامتك عنّي، وبوسعي أن أجرب
طبقات الانهيار كلها.

بهتان ما يُسمى بالقلب المفطور الذي تخطى السباقات في الألم،
فلم يحن الوقت بعد: التخصص بالمحبوب.

فأول ما تقابلنا، دمدمت: لن أنجو حتّى أنقلب ضدّك .. فبدأت
أنشب فيك حالي الصوتية، وأنشد لك مقابل كل اهتياج، فيتعذر الإشباع،
فانحرف عنّي، وأخضع للإشباعي الخاصّ، فهذا مُصرّح به للمحبّ المضادّ
مثلي، يتبحّح ويکيد، فتستبدلّ لديه العداوة، فيدعوك عليك: مُتْ، حتّى
لو عن طريق الخطأ. ها، أمّا تزال أمامي؟ ينبغي أن تموت، ولا تُبعث في
العالم ثانية.

اثنان خير من واحد

تساوينا في العدواية في ما بيننا بعد المعرض الأول الذي اشتراكنا فيه بلوحات أربع، وكان تحت إشرافك. هناك في قصر قريب قابلتك. حضرت لك أشدّ الحراسة عليك، فوضعت أصبعك على أمر، كنت أريد الانقطاع إليك: الانتظار بلا تأffer. يحصل هذا حالما توقف عن انتظار البلد، ويتم التنازل بالتدرج عن الإحساس بالإيلام والعناء، ونحن لا نعود نسمع اللغة الدارجة، ولا نعيid بعض تراكيب الجمل الفصيحة في لساننا المتحول، فتهجرنا اللغة الأولى، فلا يقف على طرف اللسان إلا تأرجح الوالدين ككائنات مازومة لغويًا. كنت هكذا وأنت تلتقي بي، فأكف عن مخاطبة ومناداة بلدي، وأسجل ج ملي للاسم المجهول: كيوم فيليب.

أصير مطاعة في ضرب العوائق التي تقرّبني منه، فتصبح أنت، أيها الرجل الحسن الاستنساخ والتنضيد، غريم بلدي في، فأُوقع بك ما يلزم من شطحات الابتهاج، وأدعك وحدك تستخرج المعنى .. كنًا أكثر من اثنين، من الآن وصاعداً، وفي أحسن الأحوال، نردد: ما الفائدة؟ فلا يمكن أن نكتب اسم بلدان دون أن يضحي أحدهنا بخياله، وبلغته. ودونما تكرار متى، لم أتخبط في هجرك، ولا أنفقتك عليك سقми كله.

بقيت أنطوانيت تصحبني، في بعض الأحيان، لشقتها، فتقديم لنا الطهي السوري بتشكيلات تشيه المقطوعات الشّعرية وهي تتلو لي: "اثنان خير من واحد، لأنّ لهما جزاء خير عن تعبهما، إذا سقط أحدهما، أنهضه

صاحبُهُ، والوَبِل لَمْنَ هُو وحْدَهُ، لَأَنَّهُ إِذَا سَقَطَ، فَلَيْسَ آخِرُ يُنْهِضُهُ، وَأَيْضًا
إِذَا اضطَجَعَ اثْنَانِ، كَانَ لَهُمَا دَفَءٌ، أَمَّا الْوَاحِدُ، فَكَيْفَ يَذْفَأُ؟". يَلَّا، غَنِّي،
يَا عَفَافَ:

"وَمِن الشَّبَّاكِ لِأَرْمِيلِكِ حَالِي

آهُ، يَا حَلُو، يَا كَاوِينِي"

هَذَا لَمْ يَرَوْدِنِي فِي أَيِّ يَوْمٍ وَأَنَا مَعَكُ، فَلَمْ نَكْ يَوْمًا ثَبَتْ عَلَى رَقْمٍ،
أَيِّ رَقْمٍ، وَفِي وَسْعِنَا أَنْ نَظَلْ لَا شَيْءٍ، وَنَشَارِأْ حَتَّى ..

الْحَبَّ أَنْ تَرَكْ لِحَالِكَ وَبِوَجْهِ إِلَيْكَ الْمَثُولُ فِي تَدْرِجَاتِهِ، فَتَكُونُ مَطْلُوبًا
مِنَ الطُّرُقَاتِ وَالْجَادَاتِ التِّي تَبْحَثُ عَنْكَ، وَعِنَّ الْفَرَوْقِ التِّي حَصَلَتْ لَكَ
وَلَقَدْمَيْكَ مِنْذَ حَضَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْأَفْرُنجِيَّةِ، وَإِلَى الْيَوْمِ، وَكَيْفَ
اسْتَقَرَّتِ الْأَحْذِيَّةِ ذَاتِ الْأَرْقَامِ الرِّجَارِاجَةِ وَأَنْتَ تَضْطَرِّبُنَّ لِلْمَرْوُرِ مِنْ أَمَامِ
تَلْكَ الْأَبْوَابِ: بَابُ الشَّفَّقَةِ وَالْمَقْهُى وَالْبَارِ وَالسِّينِمَا وَالْمَسْرُحِ وَالْمَعْرُضِ
وَالْمَسْتَشْفِي وَالْعِيَادَةِ وَالْأَبْوَابِ الْخَاصَّةِ ذَاتِ الْأَحْجَامِ الْخَشِيبَةِ الْثِقِيلَةِ التِّي
لَا تَقْدِرُ عَلَى دَفْعَهَا بِيَدِهَا الرِّقْيَتَيْنِ، وَبَابُ الْمَشَافِي الْخَصُوصِيَّةِ لِلزِّيَاراتِ
الَّتِي كَانَتْ تَمَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَنْ طَرِيقِ النَّقْلِ بِالْإِسْعَافِ .. كُلُّهَا
أَبْوَابٌ كَانَتْ تَنْظَمُ لَكَ أَوْقَاتًا لِلْمَشِيِّ وَأَوْقَاتًا لِلْمَرْضِ، وَأَخْرِي لِلْهَجَرِ وَالْتَّرَكِ
حَتَّى لَوْ كَانَ دُونَ الْمُسْتَوْىِ. تَمْشِينِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بِدُونِ تَسْلِسلٍ
وَلَا خَرَائِطٍ، وَقَدْمَكَ باعْتِبَارِهَا نَاتِجٌ بِلَدْكَ الْبَاقِيَّةِ سَلِيمَةً، فَهِيَ تَأْبِي عَلَيْكَ
الْبَقاءِ وَحِيدَةً، هِيَ أَفْضَلُ مِنَ الْكَثِيرِ، فَهِيَ الَّتِي تَدِيرِنِي وَتُوجِهِنِي، وَكَأَنَّهَا
تَقْوِيمُ بَعْلِمَ فَنِّي، فَأَرَاقِبُهَا وَهِيَ تَحْنُو عَلَى لَحْمٍ وَعَظِيمٍ الْقَدَمِ وَالسَّاقِ،
وَتَوَاصِلُ الْأَتْسَاعِ وَالْتَّمَدَّدَ الْكَبِيرَيْنِ. يَوْمٌ وَصَلَتْ هُنَا كَانَتْ نَمَرَةُ قَنْدَرِنِي
36، فَكَنْتُ أَسْعَدُ بِالْقَنْدَرَةِ الْجَدِيدَةِ كَائِيَّةً طَفْلَةً يَتِيمَةً، فَأَمْسَكَهَا وَيَقِنِي

بصري شاخصاً بها وبجلدها وكتعبها وصمغها وموديلها حتى يحضر النوم.

الحذاء الجديد عضو وطني. يوم يتدهور، وهذا أمر مفروغ منه، يمكن أن نضيف إليه صورة أو لوحة أو كعباً أو جلدة في باطنه، أو نعيده لأصله، مجرد جلد مدبوغ بالوحول.

كانت قندرتي وأنا أجوب بها الشوارع والأمكنة كلها شديدة القرب مني. وكان إعجابي بقدامي يزداد تيهأ، فأراه أمامي وقد تحول إلى شخصية، أستطيع أن أسلّمها قيادة - ضمير المتكلّم - ووحدها. فقدمي، هي الأنّا التي أخاف عليها الاندثار، فكنت أستدعّيها إلى صفي أكثر من أيّ رجل آخر أو .. أو بلد أو مدينة أو خالة أو عشيق. أستطيع أن أستند عليها أفضل مما استندت يوماً على قلبي البائس، وعلى ذلك النحو، كنت أتوجّه إلى حوضي وفخذّي وساقيّ وقدامي، فلم أعد أملك غيرهم هنا. فلم أنل من بلدي إلا هذين القدمين المتورّمتين القبيحتين الحنوتين الدّونجوانيتين. اضحكني، يا عفاف بنت أيوب، وأنت تعدّدي مزايا القدم الكبيرة ذات التجربة الموضوعية وال العلاقات الحقيقة مع الأشياء والإسفلت والغبار والثلوج والطين وخراء الكلاب. قدمي شخصية واقعية أكثر مني، بها ومعها تدرّبت على كيوم. فكنت أُلّف أغانيّ الخاصة، وأنا أجهد في عملي، وأغّني في الشوارع. مشطّت كل حجر في شوارع هذه المدينة في قسمها العتيق، وأنا أسمع صوت حركة قدمي كما نبض فؤادي، فتصير الأقدام محبوبة، وهي ترید تسديد أثمان الطرقات الباهظة الثمن. فتقراً تحولاتي منذ الخطوة الأولى في حي السفينة إلى شارع التانكي، وبالتالي كُلّية الهندسة مرواً بأكاديمية الفنون الجميلة وصولاً إلى غمّ كيوم. فنرى، على ما يبدو، أن القدمين تجّان الكلام الفصيح مع الإسفلت أكثر من البشر، فهذا هو الرّئي الوحيد الذي لم تتجاوزه الموضة، وهي تنشط وتكبر وتتسّع

وتتباً بسماع أصوات غير مخادعة. تمشي عفاف، فلا تشعر أن القدم مجرد أداة نقل من حب إلى انتقال، ومن وصول إلى رحيل. هذا هاتف الأقدام، وهو بصمة هذه المرأة على أسفلت مدينة هي الوحيدة الباقية لها، فتقول لها وتغّني لها، وتعطى لها الطريق والتعب والمرض. تعطيها، فهي جميع ما تملك: اتساع القدم المُلْقى أمامها، فلا تقول دعوني وشأني، فهي لم تعد تشتفق لكيوم قدر النظر إلى أظافر قدَمِينَ المصبوغَتَين باللون الذي تشقّق وتقصّفت الأظافر، وبعضاها استطالت إلى أمام أكثر من اللازم، فبدأت تؤذيها في الذهاب والعودة.

عيد القُنْدَرَة

تعيش القَدَم في عيد القُنْدَرَة المرتقب الموعود بالبهجة غير المسبوقة.
وب مجرد السير في تلك المدينة الأولى وتلك الـ - عفاف - تمشي مع يونس،
مصدر الأسى، وطرب التي تذكرها أنها حمقاء، وهي كذا وكذا، ومعاذ
الذي كان سعيداً فقط وهو يتحدى عن المكعب. فهو كان مجنوناً مثلِي
به. صميم المُنكِّب على أقعنـته التي أتقـن سجنه داخلـها، فبـثـنا لا نـعـرـف
ملامـحـه الأصـلـية. وهـلـالـ الذي لم أـرـهـ، ولـنـ أـرـاهـ. أـيـةـ مـفـارـقـةـ مـتـقـنةـ تـدـعـنـاـ
الـدـنـيـاـ نـخـوـضـهاـ، وـنـحـنـ تـنـورـطـ فيـ حـسـابـ أـعـوـامـ الصـمـتـ والـجـنـونـ والـمـرـضـ
الـتـيـ تـسـوـرـنـاـ، فـلـاـ يـنـتـبـهـ أـيـ أـحـدـ لـنـاـ، وـكـأـنـاـ لـمـ نـكـنـ أـصـلـاـ. وـذـاكـ العـمـ مـخـتـارـ
الـذـيـ كـانـ يـسـتـيقـظـ لـيـلـاـ، وـهـوـ يـهـذـيـ بـبـاسـمـ قـرـيـةـ أـوـ مـدـيـنـةـ صـغـيرـةـ عـرـاقـيةـ
تـقـعـ فيـ شـمـالـ العـرـاقـ تـدـعـيـ "ـمـخـمـورـ"ـ، فـيـكـرـ بـيـنـهـ وـنـفـسـهـ:

أـنـاـ وـلـدـتـ هـنـاكـ، فـمـاـ أـفـعـلـ فـيـ هـذـهـ المـدـيـنـةـ الـغـدـارـةـ بـنـاـ بـغـدـادـ.

آـهـ، كـلـهـ هـنـاكـ وـضـعـونـيـ خـارـجـ المـشـهـدـ، فـوضـعـتـهـمـ فـيـ عـلـاقـةـ منـقـطـعـةـ
الـنـظـيرـ فـيـ لـوـحـاتـ زـرـقاءـ، أـطـلـقـ عـلـيـهـاـ كـيـومـ فـيـ أـحـدـ الـأـيـامـ بـالـمـرـحلـةـ المـمـحـوـةـ.

أـخـذـتـهـمـ جـمـيـعاـ، وـبـدـأـنـاـ المـشـيـ: خـالـتـيـ فـتـحـيـةـ وـسـنـيـةـ وـالـوـالـدـةـ الـمـرـيـضـةـ
بـرـكـبـيـنـهـاـ، نـمـشـيـ وـنـنـشـدـ وـنـهـذـيـ، فـبـنـدـوـ أـجـمـلـ مـمـاـ نـحـنـ عـلـيـهـ فـيـ الـأـلـبـومـاتـ.
وـقـدـمـيـ لـاـ تـنـامـ. لـاـ تـعـرـفـ وـأـنـاـ لـاـ أـعـرـفـ وـضـعـ سـاقـ فـوـقـ سـاقـ، وـرـجـلـ فـوـقـ
رـجـلـ، وـمـحـبـوـبـاـ لـاـ أـعـرـفـهـ يـدـعـيـ كـيـومـ. وـمـقـولـةـ: أـحـبـكـ تـنـامـ وـحـدـهـاـ. وـكـيـومـ لـاـ

يموت فوق عفاف، وهذه تتحضر هي والحذاء فوق الإسفلت، تئن في صوت خفيض، وهي تطلقه بالغناء عالياً، لكن قدمها تكبر نصف نمرة، وبالتالي تصل إلى ثلاثة نمرة. تصير القدم بحجم الكرة الأرضية، فتشعر بذلك القندة التي تدخل للقدمين بدون عناء ..

الفصل السابع

كلاتيٰت آخر مرّة

<https://jadidpdf.com>

عفاف أَيُّوب آل / ٢

"إِذَا كَانَ ذَنْبِي أَنْ حَبَّكَ سَيِّدِي
فَكُلْ لِيالِي الْعَاشِقِينَ ذَنْبَ
أَتُوْبُ إِلَى رَبِّ ..
وَإِنِّي لِمَرَّةٍ يَسْأَمِحْنِي رَبِّ
إِلَيْكَ أَتُوْبُ"

"عارض قلق" في فرنسا، يفيد هذا المعنى، التَّصْدُعُ والهشاشة، وتصيب هذه الأخيرة المرأة {أو المرأة}، وهي عنوان الفردية والذاتية، وتولي الواحد المسؤولية عن نفسه، وهو من وجه آخر، القرينة على تعاظم المسؤوليات والاختبارات التي ينوه الفرد بها وتمتحنه".

عجبًا، أرادت أن تهتف وهي صاعدة إلى الطابق الأعلى بكل سرعة، نعم، مصعد كهربائي يفضي إلى ما كانت تنتظره منذ أمد طويل.وها هي تنزل بعد قليل على سلم آخر، وتقف مع صفوف الواقفين:

هذا مطار أورلي، وهي تشعر أنها تمت بصلة قرابة إلى هذه الأقوام جمیعهم التي تنتظر دورها أمام النافذة الرجاجية المرتبعة. جاء دورها ودنست: هو ليس استجواباً. سُتُّدلي بمعلومات عمومية، ولا ينبغي أن تتلعلم.

أهتزّ صوتها وهي تقف أمام رجل البوليس الفرنسي. دفعت بالجواز العراقي، وأرادت أن تخطبه، كما تعودت من قبل:
عزيزني .. أنا.

كان واجماً وهو يطيل النظر إليها تارة، ثم إلى صورتها التي أظهرت حول عينها اليسرى الخفيف. كان مقبولاً هناك، وكلما لاحظه أحد ما، وعلى مضض، فيتصنّع خلاف ذلك، فتقوم، وتضرب كفّاً بكفّ، وبالطريقة نفسها، تقابلهم فاتحة عينها قائلة:

حَوْلَ مُضْحِكٍ هَذَا، هَا .. أَفْضَلُ مَا نَقُولُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؛ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..

أوشك الرجل أن ينتهي، وأرادت أن تبادر قائلة بصوت سرّيٌّ:

أَوْرَثْنِي إِبَاهُ الْعَمَّ مُخْتَارٍ فِي أَغْلَبِ الظُّنُونِ، لَكُنَّا نُسْتَطِعُ تجاهله إِذَا شَئْتُ، فَلَا نَدْعُهُ يَقْطَعُ الْحَدِيثَ عَلَيْنَا:

هَلْ تَعْرِفِينَ أَحَدًا هَنَاء؟

كُلُّهُمْ، جَمِيعُهُمْ.

ابتسمت وهي تكاد تقول:

هَنَا الطَّرِيقُ .. وَ

مدّت له بالعنوان الذي سجله لها صميم، وسرعان ما ابتسם، تراءى لها ذلك. بدأ يورق الصفحات، قال كلاماً لم تفهمه، ربما لأن الجواز جديد، وطالع من الكاغد للتوّ. لا تدري. سمعت صوت الطمغة المعدنية، بعثّة

أعمضت عينيها، وعلى الفور أصابتها هرّة عنيفة في جريان الدم. أمسكت الجواز بيدها، تحققت من صورتها التي ركّز عليها الرجل، وهي تسير مع الجميع.

صحيح، لم تبدِ أنها على اعتاب الثالثة والعشرين، الحقّ مع رجل البوليس، الصورة جعلتها تألم والمصوّر يأخذها لها. فقالت لطرب وصميم:

أنا سيدة الصور الشّمسية والقمرية الفاشلة والمحترقة. أضافت وهي تجلس على أحد الكراسي بانتظار الحقائب، وأشعلت سيجارتها الأولى في الفضاء الفرنسي:

يا للحظّ السعيد! ستة شهور إقامة، بالتأكيد بسبب الحوّل في عيني. أين أنت، يا عمّي العظيم، فهذه أيضاً من بركاتك وأنا في بلاد الفرنج. سأكتب لكم عن ذلك، وأقسم أمام الجميع؛ لو كنت صاحبة نظرات عادية، لما نلتُ هذا التكريم كلّه.

ليست هي مَن اختار هذه الصورة. طرب وصميم قاما باللازم لإصدار الجواز والحصول على التأشيرة، فتخلّلت التقاطها أمور غاية في الطرافـة. وقفـت أولـ مرـة أمام محلـ المصـور الألـمعـي هـيثـم زـهـير وهـي تـرـفـع بـصـرـها، فـتـرى القـطـعة المـعـدـنية المـكـتـوبـة بـجمـلـ رـكـيـكة وـخـطـ مـهـزوـزـ:

مـصـور خـاصـ للأـعـراس وـالـحـفـلـات الـخـاصـة وـالـعـامـة، وـالـطـهـور. وـبـخـطـ أـصـغـر وـبـالـلـوـنـ الأـسـوـدـ، وـلـلـمـائـمـ .. إـلـخـ.

كان المحلّ يقع في شارع سهام المتوليّ، بين رأس الحواش ومكتبة الصباح وبوفيه خالد أبو الفلافل في الصليخ. المحلّ راسخ، وهو مركز لجتماع شباب المحلّة وإطلاق الصفير العالي لمرأى فتاة غريبة. ترى ماذا

لو اختنق من الحرارة الشديدة وهو يدخل رأسه تحت الغطاء الأسود
السميك؟! السّيّد زهير جسمه غليظ ومليء بالشحوم، فلا يستطيع
احتضان الآلة على ما يرام. وبصوت مبحوح نادى عليها:

لا تغمضي عينك، أختي، أي ليش خايفة؟

فتسمع طق طاق .. المزيد من اللقطات:

كلها مو زينة، بلا زحمة، لا تغمضي عينك، وإنما الصور كلها راح تحرق.

مش وحضر إلى جانبها، وأراد أن يسوّي بعض خصلات من شعرها
نزلت على عينها اليسرى:

أنا سأعملها من فضلك.

بس أختي الصور مو زينة أبداً، أي الصدق، آني ما شفت مرة مثلك،
أي شنو الكاميرا تع McClustك، والله غريب أمرك ..

عادت خائبة وهي تقول لطرب:

لا تنسي أية صورة لي. قلت لك، وكررت التقاط الصور يرهقني،
نُذكّرني أني على وشك أن أفضّل نزاعاً مع أحد ما، ربما مع نفسي. على
العكس منك ..

عوايد الحب

"وأذكر أيام الحمى
ثم أتنى على كبدي
من خشية أن تصدعا ..
كأن خلقنا للنوى وكأنما
حرام على الأيام
.. أن تجتمعوا"

هذه الصورة وغيرها وضعتها في الألبوم. تجاهلتها. لم تسمح يوماً لهلال
أو طرب، يونس ولا الأستاذ معاذ بالتقاط الصور الجماعية منذ الثانوية.
تعيد الكلام ذاته وأمام الجميع:
نعم، أنفر من الصور الفردية والجماعية.

تذكرة تلك المماطلات القديمة بين الحالات والوالد والعم وهم ينادون
ويلّحون:

هيّا، أسرعوا قبل أن يموت أحد متأناً.

هذا الأمر كان يستفزّها من العمّ مختار الذي اشتري الكاميرا، وسلمّها
لهلال قائلاً:

لا تمحض وجه عفاف الشيطانة من الرزوم .. ها .. الحق بها من لقطة
ثانية، هيّا صور، صور هنا وهناك .. ستنزل اللعنات عليك إذا تقاعست،
وعليها إذا أغمضت عينها.

كانت تحمل القليل لكي تستخرجه طواعية وعلانية: صورهم، أنواع
الأمراض التي أصيروا بها .. و.. فيتم الاستعراض، وتبادل النظرات بين
الجميع، والصور باقية قبل إقلال الطائرة في الليل والنهر .. الصور لا تتغير
قبل السفر ولا بعده. وضع بيدها يونس وطرب وصميم والوالدة والوالد
والعم والخالتان الألبيوم ذا الغلاف السياحي، وعليه صورة ضخمة لأسد
بابل. ملفوف بورق من البلاستيك السميك. لا تدري لم درجوا على هذه
العادة البغيضة:

لـ الشيء اللطيف بشيء قبيح.

آه، هلال كان الغائب الوحيد في الوداع. بببي فاطم بقيت في الطابق
العلوي، لا تزيد أن تجفف دموعها. في أيام خلت هلال ضلل الجميع، هي
في المقدمة، فأظهرها خلسة ذات وجه صالح للتوصير، بل على العكس
فتو جنيد .. هل الصور قضية حبّ حقّاً؟

هكذا، ظلّوا ينظرون إلى الكاميرا والخالة فتحية وضعفت أغنية لمحمد
عبد الوهاب، لا تذكر ما هي، فلم تُفضل أغنية "يا مسافر وحدك"، فهي
لا تزيد أن تُودع أحداً، ولا أن يبكي أحداً أمامها. تماماً، أغنية لطيفة ومسلية،
لكي تساعد الجميع على التنهّد بدون تضخيم، ولا دموع. ببطء شديد،
بدت صورهم وجميعهم على وشك الابتسام، وهيئاتهم تحركت قليلاً
من مكانها، وكان هناك أمر موجود على مستوى الملامح، ما بين العيون
والشفاه والجبين، ظهر للمرة الأولى، والثانية، ولم يتعد أو يختفي:

كلهم حزانٍ.

استأجرت استديو مفروشاً بين ساحتَي فولتير والباستيل، في شارع: Leon Fro t على طرف طاولة الطعام الخشبية. فتحته، لا على التعين:

نعم، يا فتحية، لا تعود الألبومات تلزمنا. فأعدت الكرة، وفتحته على صور، صور، ولكن، كما ترين، لم تساعدني، فلم أر شيئاً.

بقيت تتسمر أمام شدَّة الإتقان لحركات اليد الخارقة التي تقدمها بعض اللوحات العالمية وهي تكاد تفقد النطق حين درست بعضهم. كانت اليد وحركتها تدعها متفركةً متأمِّلة. كيف أراد فان غوغ أن يكون مجنوناً وهو يصنف، بکذا، ويودع جانباً، وبحسب أخطائه، فينسحب عليه الصيت ذاك، لكي يخلص من قبضة وأيدي الآخرين عليه. ظلت تردد أمام صميم بصوت مسرحي:

هكذا نقول، يا أستاذ، عندما نريد تلخيص حياة شخص ما، فتتم الإشارة، ويدذكر: تلمنذ على يد فلان الفلانى. يا للحسنة! لم تبق إلا التسليات البليدة لقضاء باقى أيامكم. يا عزيزي وصديقي، ستأتي الأيام، وستكتب عنوان عملك القادم، وبخطٍ مشعٍ كالقنبلة: "عار التّحمل"؟

“بُقْجَةٌ” معاذ الألوسي

أبعدت نهائياً عنهم، فلم تعد تدور في فلك أيّ واحد من أولئك الذين استقرّوا هناك. سغلوا أمكتنهم في الألبوم، ولن تلتقي بهم مرّة أخرى. لا ت يريد أن يتبعها أيّ واحد منهم، وهي تدفع بقدميّها عبر المدينة الجنّية. لا يحاذيها ولا يطلب منها أحد أن تتحدث عن نفسها، ولا ت يريد أن تقول لا أو نعم. شابة في نهاية الثانية والعشرين، تمثّلي وحدها، موجودة وحدها، جاءت وحدها. قصصها عاديّة جميّعها، وربما بايّسة، وليس لديها أيّة معانٍ إضافيّة، تمنّحها صفات نموذجيّة. الصور لا تعري النّفّس، فالحبّ والموت بقيا في الخارج، خارج الألبوم.

تظنّ أنّ صميم وطرب وقفها هنا في هذه الجادّة التي يصعب تخيل حسابها بالأمتار أو الدماء أو الصرخات أو الدّموع، تخيل هذا وتُدّونّه وتبعث به إلى الأستاذ معاذ، لكي يكمل الشانزليزير في إطار الفراادة والعجب. بالضبط، هنا وقفا، وتصوّرا تحت قوس النصر. حسناً، القوس يُعرّي بالنصر. طرب عادت من هذه المدينة وبعد الزواج، وهي لا زالت في المرحلة الأخيرة من الدراسة. عادت، ربما، وحدها، ولا تقدر على وصف أو نحت أو تصوير ما شاهدت، فظلت تزفر زفرات طويلة، وتنفث سيجارتها، وتريد أن تصوغ خطاباً، لكي تقول:

لا تصلح باريس للمتزوجين حديثاً أو قدّيماً. لا تصلح إلا لحقيقة واحدة في مجلّتها: انتظري محبوبك، انتظري لوحتك، انتظري انتظارك، لا تتوقّفي

إلا أمام الحبّ، يا عفاف، ولا تضعي الزواج على طرف لسانك، أُوْلَى ما يصله
اقطع فيه وارمي، واجلبي لساناً آخر، غنّي، أغرقني مَنْ تُحبّين بالغناء والغرام
حالما تلتقين به، وانهالي عليه كما لو كنت في مجاعة، وكفّي عن القراءات
الفلسفية. لماذا لا تركين الدروس في العام الأول؟ أرجوك، عفاف، لا
تزجري جسديك، وتعتبريه جبهة معادية، وتقابليه بالتجاهل والإهمال،
فتهزميه، وتهزمي. تصرّفي مثله، أجل، لا تنظر إلى إِلَيْهِ، كما لو قلت كفراً.
نعم، مثل الرجل. انتقلي حالاً للهجوم، وأنا على يقين أنك ستبلين بلاء
حسناً.

هل ستغتر على وثيقة النصر هنا؟ أمام هذا القوس، أو بجنبه، أو وراءه؟

كانتا تدلّيان بأسباب وحبيبة، وهما جالستان في نادي العلوية قبل أن
تغادر. يشربان الفودكا المثلجة التي قاما بخلطها بالبيرة وشرائح من الليمون
الحامض. كان النادي مكتظاً في مساء كل خميس، وكانت الجهة الوطنية
ما بين حزب البعث والحزب الشيوعي تتفكّك تحت ضوء ساطع. كيف
يحصل الانهيار، يا ترى؟ في آية ساعة، تم ذلك، ومتى كتب وحدّد تاريخ
التفكيك؟ هل كان في الظهيرة؟ أم بعد منتصف الليل؟ أم في اللحظة التي
كانت هناك ألعاب نارية في مكان ما في النادي، والصديقان تناولان
شرابهما المفضل، وصوت طرب سليم النبرات وهي تقول:

هذه خلطة شرابنا تعمل بسرعة، بل أسرع مما يعتقدوننا الاعتماد عليها
وحدها؟ هكذا هي خلطة الجبهة، فالحزيران ثملاً، ويتنتظران الانتقام ريثما
يستوعبان البغض حتى الثمالة، فنراه معروضاً أمامنا، وهو مستعدان
لرمي أحدهما الآخر تحت الدّبابات، ونحن نسخر في مجالسنا، ومع بعض
الأصدقاء، وفي سهراتنا الخاصة وزردد: أحد الحزيْن توقف حيشه، والثاني
تعرّض للخِصاء. وكان صميم يشرب ويدخن وهو يردد:

آه، يا أغْرِيَّ، أمامي الكثير من الحبات البوليسية والدُّونكيشوتية، لكي أحُول تلك الشائعات أو الخيانات أو الأكاذيب إلى خليط، لا نستوعبه، ولا يقدر الوقوف على قدميه. جبهة امتلأ بكتل الكراهية، وعلى ذلك النحو، لا ننتظر إلا إطلاق الرصاص على المتكلمين الأحياء والغائبين المواتي.

كانت تصفي إلى اللغة الفرنسية، وكأنها توجّه إليها فقط من المارة جميعهم، تستيقظ وتقف في مواجهتها، فتراها كما هو عرض الرابع عشر من تمّوز الذي يجري أمامها، فترى الأشياء على نحو مختلف. لغة ترتدي قفّازات من حرب، وترمي لها منديلاً في أناقة لسحرها الشديد. لغة ملمومة ومضمومة بين الساتان والحقائب، واللسان والأسنان، فما عليها إلا أن تُخرجها من منحنيات الأفواه، والاقتراب منهم، فتقوم بمراقبتهم، وهم يتقدّمُون في المترو والحافلة، وهي تيه وتبتعد، وتکاد تتحبّ حتى يفك لسانها بلغة تجريدية ما بين الإنكليزية وبعض المقاطع التي بدأت بتعلّمها من الكتاب الذي أهدّاها إياه صميم، تورق صفحاته، وهي بين الجموع، وتبادل النظر مع الجميع، وتتجنّب المقارنة مع .. فهذا لا يجوز. من المحال أن لا يلحق بها أحدّهم، ومن هناك، بوسعي أن يظلّ صامتاً، لكن، سيفق في صحبتها، وهو يدخلان المقهى الذي يقع أمام النافورات والحدائق الدّائريّة التي لم تجد ألفاظاً تُعلن عن بهجتها وهي تشعر بخفةٍ في تلك الثنائي، بدأت تخاف من القوّة، قوّتها. كرّرت تلك الكلمة عدّة مَرات:

القوّة لها مصاعب ومعاجم شتّى. وأنا الآن أحسن الطيران باللغة المباركة التي ستفضي بي إلى نفسي، وهذه تقرأ عليّ تدلّهي بما يخصّ بصري وبصيري لمستلزمات بناء ذلك المكعب، وطيشي بالتخلي عنه، وغيرّة معاذ وضيقه وهو يُحدّق في غير مُصدّق سفري، فلم يحضر حتّى للسلام، وأنا أداعبه قائلة، تصوّر، يا أستادي العزيز، نظرية تفريغ البيت،

وربما العائلة كشكل تارخي مكشوف رمز، فمن خلاله، يتم إيواء الساكنين به كأنهم لوحات فنية تدور على امتداد الداخل / الخارج .. يا عزيزي، هذه النظرية ستلاحظها عندما يفرغ سكني مني، فلا أعود إلا مجرد تصميم في ملف .. ها، أرجوك، أنا أفضل وضع في "القحة"، تلك التي كنا نحلم بها. فكل ما حولي في هذه المدينة يؤكّد على الـ "القحة" العالمية التي لا تنام. وصوت معاذ لا يتبعثر هنا، يصلها واضحًا وهي تتمشّى بين الحدائق:

من المؤكّد سمعت اسم "القحة" من جدتك العظيمة، ببي فاطم، هي مفردة لا تشبه غيرها. تفتح الطريق لغيرها، وتتحرّش بالذى يجاورها من معانٍ ونحوت من المواد والإيقاعات، كما بين نوّات الموسيقى، وباقى الفنون. القحة تأسّرني حتّى لغوياً ومعمارياً وجنسياً. سأضعها وسط المكعب. أنت شاهدتها في التصميم، فانتظرتُ تعليقك، لكنك صمتَ كالملينة. سامحيني، عزيزتي. جمعيكم سأضعكم وسطها، فتتدلى ثماركم شهية، ويتصاعد بخاركم ناعماً رضياً. وظلّالكم لا تمسّ، فيترسّح الضوء وينحرف عن الأجسام. طبعاً لن "نطلي السقوف ولا الجدران، لم نضع الستائر"، ستر مَنْ وَمَنْ "فالمادة الأصلية الجميلة، لماذا نغطيها، خوفاً عليها من غضبَ مَنْ؟". فالطاوبوق بجمال آسر / والكونكريت في السقف فقط إذا لم يُعشّ، فهو في منتهى الأنفة عند تنفيذه لا يحتاج إلى غطاء يسّره. والخشب مصحّح ضدّ الخياس والنخر بالأرضة، وخاصة إذا كان أصيلاً، فالطاوبوق مكحّل ومدهون بالأبيض. الخشب مُشعّ بدهن الكتان، وهو صاج جميل أصلي ماليزي، والجدران مزدوجة، وحبّات الستائر صالحة للعزل الحراري، والأهم العزل الصّوتي".

مشغل الثورات

اهتدت إليها الألعاب التّارِيَّة، فأخذت صفة المهابة، وهي تصاعد دفعة واحدة في ليل ثورة الرابع عشر من تمُّوز في العام 1789 فتقذف بعفاف، لكي تعرّف بما لديها من سنين وأعمار عندما ولدت في العام 1958، وفي منتصف ليله الغارق في الأنين الذي ما زالت تسمعه من بيبي فاطم، وفي كل عام لا تقول وداعاً وتستريح، على العكس، تقف وسط الطارمة وأمام مدرسة الفاذريّة كما يحلو لها تسمية كُلُّية بغداد، وتبدأ بالسبّاب الطويل، كما لو كانت أمّامها قوائم بأسماء الوزراء والحكومة العراقيّة والدولة العراقيّة ونوري السعيد والإنتلiziز، والوصي على العرش عبد الإله تشتم .. فتتعب، فتجلس على إحدى الدّكّات وهي تتحبّ بصوت مخنوّق:

أي أويلي على ذاك الملك ابن الخايبة بعده صغير، أي هم الله ما يقبل.

تشهق وتمسح الدموع بذيل منامتها المنزليّة. وكان قد مضى على مقتل تلك العائلة الملكيّة أكثر من خمسة عشر عاماً ..

تمشي عفاف وتراقب البشر في هذا اليوم، فهو يومها أيضاً، وهي ما زالت تقول لنفسها:

نعم، إنتي فتية، لكن الهرم يقف بجنبِي.

هل صارت خارج السنين والأعمار، وهي هنا؟ نعم. لديها عمر قليل، وهي واقفة بين الحشود، فتحسب أنها نزيلة عمرها الذي تجهله. اغتسلت، ومشطت شعرها، وتجمعت بعض الكآبة لا تدري أين استقرت؟ في القسمات؟ أم في العينين والنظرات؟ كلاً، ت يريد أن يضاء أمر ما في جوفها، فُبصِرَ الخيول والفرسان، والشارع الذي كان أمامها صار خلفها، فوقفت أمام ساحة الكونكورد. الوالدة مكية بقيت في حاجة إلى تقنيات جدّ حديثة، لكي تُذلّل آلام الوضع، وحمى النفاس التي أصابتها بعد ذلك .. ودوى الطلقات النارّية والبيانات العسكرية وأيات من الذّكر الحكيم وتعليمات بالقتل والسّخل، والطفلة عفاف ولدت تماماً بهذا اليوم نفسه. والخالة فتحية ضحكت طويلاً، وهي ترى الفتاة التي لا تبكي. لم تبكِ في البداية، تجمدت الدموع، وبعد أسبوع، صارت الدموع شرعية، لكن الحال لم يظهر إلا بعد شهور وشهور. شاهدت الناس يتقطعون الصور، وشاهدت صورتها وهي طفلة مغمضة العينين أيضاً .. وكل شيء يفتح الشّهية، إذا ما قامت بالاستطراد، فقد بقيت بين الحشود الظهيرية كلها، مثلهم كلهم بدت تُصدق نفسها أن الثورات لها جوقات شرف وطّالون وأبالسة وشبان يصرّبون رؤوسهم بالحائط، ويطلق عليهم؛ اسم الثوار، فلا أحد يرى صورهم إلا بعد أعوام من الإعدامات الجماعية .. صور، صور لوجوه احترقت، وساحات امتلأت بالرايات الحمراء والجثث، قالت:

ياسين وقف يوماً تحتها، وعقد حاجبيه، كما عقد عزمه أن يكون على صورتها.

الصور في باريس تدع المترفّح يريد أن يكون هو الراوي بدلاً عن هؤلاء الرواة جميعهم في الإذاعات والتلفزيون والكاميرات والمصوّرين، إلخ. صور لا ترى داخلها دماً .. ستري الدماء في اللوحات، وهي تبدأ بالزيارات.

رفعت رأسها إلى السماء، كانت أقل قسوة من تلك، كيف تستطيع أن تهتدي وتعزف على أمر تريده تصديقه بقوّة؛ هي الآن تملك الشجاعة أن تكون بعيدة كثيراً عن هناك، وتكون هي نفسها أيضاً.

كفى، يا عفاف، لا يعلم إلا الله إلى أين ستصلين، وأنت تتبعين نصائح قَدَمِيْنَكَ، فهي سُتُّحْقِقُ لكَ الْكَثِيرَ مِمَّا تجهلين. هذه مدينة تفقد المرأة صوابها، فینفض نفسه عن نفسه، فلا تعجلّي، فأنت لا تعرفين، لسوء الحظ إلا ذلك الصداع في رأسك الذي ابتليت به صباحاً مساءً وليلاً، وإلى اليوم التالي. الآن تعرّف على أمر تريده تصديقه، هي اليوم شخص آخر يندفع بعزمٍ حقيقية، ويفاجئها، وهي تريده أن تكونه .. كنت تجهلين مَنْ أنت؟ وإلى أين ستقودك هذه المدينة؟

كانت تريده أن تُصدق أن القصة بدأت، وهنا ومنذ العام 1979 وبเดء العام الدراسي، قبلت في البوزار. كانت تريده أن تُصدق ذلك بفضل مجموعة من "المرق" والخطيبات التي حملتها في حقيبتها الكبيرة، "رفضوا السلايدات التي تصور أعمالها الرّئيسيّة في أكاديمية الفنون الجميلة. كانوا مُصرّين على مشاهدة الأصل. في البوزار. دخلت الامتحانات، واجتازت عشر مواد دفعـة واحدة، ورفض أستاذة المواد الأربع المتبقـية، وهي: الحياكة والمنظور وتاريخ الفن والزجاج، أن يُجيزوا نجاحها في تلك المواد، لسبب بديهي: لم يسبق أن تعرّفوا على الآنسة عفاف أيوب من قبل، فواظبت على حضور تلك الدروس الأربعـة في العام القادم".

كانت تشعر تقريباً، أنها: لا شيء، فلا تدرى ما المسموح به في الصفوف والجامعة ومع الطلبة. هل تثير، تسخر، تضع نفسها في الخفة واللاتوقع؟ إلى أين ذهبت صلابتها؟ مع هذه الحرّية كلها التي تلتتصق بها،

فلا تجرؤ أن تصير حّرّة تماماً. كانت تبذل جهداً مضاعفاً لإخفاء المحادثات الباطنية والشجارات الدّاخلية مع أطيافها، فتبدأ بترتيب تصّرفاتها:

هرّة من رأسها أفضّل، أو السلام بالأيدي؟ فالفتيات يُقبلن الشّبّان قبلات سريعة، بسرعة، ولا تبعث على القلق، ولا أحد يتوقف بعنة، لأن الخطر قادم .. وفجأة، يظهر العربي الأوّل والثاني، ثم يصل العراقي والعربي الآخر والآخرون. حسناً، على هذه الآنسة أن تعرّف بنفسها، أن تقوم بالتبليغ، فهي أمّام شيخ من شيوخ القبيلة. بدت ترى أحداث الأيام والأسابيع والشهور الأولى، وهي في صفوف ونادي وحديقة أكاديمية الفنون الجميلة في البلد، لا بدّ أنه القضاء والقدر الذي وضع أولئك المخبرين واللوشاة، وأصحاب القبضات المصوّبة نحوها هناك وهنا، فحضروا كنوع من المساواة والتضامن. بدا قرار تجوالها وحيدة ما بين المعارض والأحياء الفنّية، بدءاً من مونمارتر أو سانت دوني لتصوير أحياء الرّسامين والمتدربين، وللأسواق التي تعج بالعاهرات. أصرّت أن لا يكون معها أدلة. ظلت تردد مع نفسها وهي تضيء، ثم تسأل المارة، وبالتالي تعثر على ما تريده:

وجوه العرب والعراقيّين تذكّرني وهم ينهضون وحسب الأصول المرعية لكتابه تقاريرهم كما الطيب الشّرعي، فلا تاريخ البكرة رؤوسهم ولا تنزول إلا بالصغير أو التّبّوح حسناً، أنا البكر البتول، أعمض عيني فيما إذا قصدت الغريب، أو قصدني المجهول، فتسريت من بين يدي زيد أو عمر، فكيف السبيل؟ وما العمل؟ وهذه الآنسة لا تشير بكلمة عذبة واحدة حتّى. فبدأت على الفور بالاشتراك في المعارض الجماعية مع الطلبة الأجانب. بالكلاد ترسم خصائص الفراغ واللّاشيء، والمحو للوجوه الصّماء التي بدأت تلازمها، فتطردتها من اللوحات، فمعظمهم تحولوا إلى أشكال عمومية، كما أولئك القوم في تلك الديار.

المدينة هذه تخطبها، حادثتها طويلاً، وهي تريد أن تسمعها اليوم،
وتشعر خطواتها ليلاً ونهاراً، تستدرجها، فتتصور أن جيناتها الوراثية كانت
من قبل مجرد خطأ شائع.وها هي الآن، لن تُكذب رسومها وتخطيطاتها،
فقد اقتربت من الجانب الآخر لـ“اتساع الأفق” الذي ما زال يقوم بالخلخلة،
 فهي ترسم وتلوّن، تمحو وتهدم.

قالت فماذا تروم؟

مضى العام الأول، ولم أتلق خطابات.

في الأصل، هي لم تكتب لأي أحد هناك. هل انتهى الأمر حقاً،
بالنسبة إليها؟

تدفع بالنسیان بعيداً، وما إن تختر إحدى طاولات مقهى ما في الحيّ
اللاتينيّ، وقرباً من السوربون، فتقذف بنفسها على أحد الكراسي. كانت
تريد تجميع كل ساعات وثوانی الثالثة والعشرين من أعوامها، وهي تتسم
فيما حولها، تضحك وتريد أن تطلق صوتها بالغناء دون الاكتئاث لأحد:

قالت: هذه المدينة تناسبها الأغاني الملتبسة جمیعها، فهي تقبلها
وتصنعها على مقاسها، فتقدّم متعة لمن تراجع ذبذبات صوتها وأمام
نفسها، وهي تحتسي البيرة. تتابها غبطة تغیرها، توقف قليلاً، وتأخذ
نقساً عميقاً: هذا هو الهوى الذي يفكّك أطراف قدميها، ويهبط على
رئيّتها، فترسّب الليلي، وتمکث طويلاً، فتُراودُها روحها على الغناء،
تفقع مسؤولية ذلك على باريس، فتطلق ضحكة للنادل:

”قالت تخليت بعد فرقنا
فقلت عن مسكن وعن سكن
قالت شاغلت عن محبتنا“

قلتُ نعم، بالبكاء والحزن
قالت تخلّيت. قلتُ عن جلدي
قالت تغييرت. قلتُ في بدني
قالت أذعت الأسرار
قلتُ صير سري هواك كالعلنِ

قالت عفاف، ما إن تفتح الباب حتى تتطاير الأسرار والقصص، بدءاً من حي السفينة، مروراً بشارع التانكي، فتقدر التوقف في القبطان والبرد أمام الباب، وتغمض عينيها، فلا تشعر بالضجر هنا .. هي تعرف كثيراً هنا، كثيراً جداً عما كان هناك، فيتوافق أفراد العائلة في منازلهم المنزلية، وهي تقوم برسمهم وتشكيلهم، كما تشاء. كان أهلها يرتدون ثياباً داكنة، فلا موعد للنوم عندهم، ولا ساعة للضحك. فيتراءى لها أنهم يقدّمون العزاء، أحدهم للآخر، ولأمر لا تعرفه بالضبط. لم تسمع في أحد الأيام تهنئة ما وهي تناول درجة الامتياز في المرحلة المتوسطة، فتنتقل لثانوية الحريري في القسم العلمي.

قالت عفاف، أهلها يعيشون في الجانب الآخر من الموت، فتراهم ليلاً وأحدthem يتعرّض بالآخر. العُمّ مختار، محبوبها الأحول المخمور، صاحب المحبّة التي لا تتفد وهو يردد أماتها قبل أن تسافر:

أنت ثابتة هنا، مقيمة حتى إننا نقدر أن نخاطبك يومياً، وتجيبين علينا.
بس خالاتك لا يصدقون ذلك. يجوز فتحية تصدق ما أقول.

عفاف تُصدق ثيمات ما ترسم، وما تنشد، وهم يبدون وسط اللوحات حيارى، يتعثرون في الطريق الخاص والعام. أزرار ثيابهم بعضها غير موجود.

الياقات، في معظم الأحيان، مقلوبة للداخل، والبطانة تظهر من تحت حواف بعض الأذيال .. وكلهم شديدو النظافة. ظلّوا في أماكنهم واحداً بعد الآخر، وهي تُنهي القيننة الأولى، فتطلب الثانية، وبعض الشّبان بدأ بالالتفات صوبها عندما يتضاعد صوتها. صعد، ورأسها كان معتدلاً، ينظر إلى أمام، والحَوْل، ريمماً تحرّك من موقعه:

قالت سررت الأعداء
قلت لها ذلك لو شئت لم يكن
قالت فماذا تروم؟

الشراب وأدواته

بقيت عفاف تُحدّث نفسها عبر الزجاج، وعبر المجهول، وعبر هذه الأرجل والأقدام والأحذية كلها، أو الحفاة الذين تشاهدهم يتحرّكون في الجادّات منذ بدء الخليقة وإلى اليوم. واقفان، كما تقف هي، فترى نفسها متبدّلة من سقف العالم، لا أحد يريد إمساكها، وهي لا تزيد من أيّ أحد أن يمسّها، فتتبادل النظر مع الفراغ والصمت، فتصل إلى: ”بيوت الحيّ العريقة وشوارعها المرتفعة وسقوفها القرمِنْدِيَّة، وكنيستها ذات القبة التي تتوجّ الهضبة المرتفعة، والمطلّة على باريس من أعلى. يا لطول الأدراج الصاعدة والنازلة في حي مونمارتر.“.

أيّ نصر، عليها التأهّب له قبل أن تقطع أوصالها بعض الهرائيم الصغيرة ..

ثلاثة أربع الذين قدموا من الجهات الأربع بدؤوا الرسم من هذه البقعة في باريس. لا أحد يتذكّر أسماءهم، هم المهمّشون، المنسِيُّون المكتبهون الغائبون ليس بسبب الموهبة. الموهبة تشعر بالتهديد هنا فيما إذا غفت، أو سهت قليلاً .. عفاف واحدة من تلك الحشود التي جذبها الحيّ انجداباً صاعقاً، فكانت تقوم بدراستهم حسب التسلسل أحياناً، وفي بعض المرّات حسب هوى كل فنان سمعت بإشاراته الدّاخليّة، فانبثقت وإياه تقف وتقاتل في جبهته .. ومنذ العام الأول الذي وطئت

قدَّمَاهَا هذا المكان، وبعد مضي العام الرابع وهي لا تلوذ بالفرار من
أمامهم جميعاً.

تابعت: "من جاء من خارج فرنسا وباريس، فان غوغ، وبول غوغان، ورودان، وإميل بزنان. هؤلاء الذين سيُشكّلون فيما بعد جماعة بون آفين". بعضهم جاء من مدينة ليل، والها�ر. فبدأت عفاف ترسم وجوه وبشر باريس وهم يمشون ويتحدثون وحدهم أفواجاً، أو هي وسطهم متأخرة قليلاً وقريبة من أسفل اللوحة، أو في أعلى تلّة من مونمارتر، ترقبهم من الجوانب جميعهم، ثم تهبط بهم وبها، فتدخلهم وإياها الساحة، وتغلق عليهم نهائياً. يوم شاهدت رسوم التّعبيريّ الألماني "لودفيك كيرجنر" الذي كان يرسم نفسه، فزعت حقّاً، فقد كانت تَخْذ التَّدابير اللازمة لكي لا تظهر في صورة فوتوغرافية تربّص بها بعد المؤثّرات جميعها، فكيف كان الفنان يرسم نفسه، وينصرف انصرافاً تاماً، لكي يبلغ حالة إشباع لشهوات جوع نرجسيته، فيظهر وهو يقوم بالإصغاء إلى كلامه، ساعياً إلى استخراجه من تحت حضن جسده .. وجسدها، وما تحت ثيابها، فترسم اللوحة المجهولة، والبطن التي لا تعود لها، والإغراء الذي لا تعرف لمن توجّهه. خالتها فتحية قالت لها في أحد الأيام:

لا أتخيلك يوماً زوجة لرجل، وأماماً يدك طفل؟

وصميم قال لها في زيارته الخاطفة لباريس في العام الثاني من دراستها:

أنت امرأة واحدة ووحدة.

كان أستاذ تاريخ الفنّ مسيو بول دينيس في البوزار، يعرف جيداً، أينما ذهب أو خطأ، أغمض عينيه، ثم فتحهما، يبقى فان غوغ، فما إن يدخل

المرسم، وتبداً المحاضرات، فينادى على أحدهم، فيقوم بالمجازفة: تحليل تدلّه البعض بفان غوغ ورموزه، لوحه ما يُسمّى: بـ "الحياة الجامدة" حول المائدة الخشبية المتينة التي كان قد وضعها رمزاً للإمساك بالأشياء في هذا العالم، وأن يقمع مشاعره الدّاخلية. بقي يردد أمامهم: "على تلك المائدة وضع ما أسمتها بالحقائق القوية في حياته، 4 بصلات، كتاب طبّي يساعدك في الحياة، شمعة، غليون وتبغ، ورأى على المائدة رسالة من شقيقه. زجاجة فارغة من الشراب".

بقيت ترى دائمًا، هناك في البلد، أو هنا في باريس:

العمّ مختار وهو ينحّ بنفسه داخل اللوحة، هو الوحيد الذي كان يُنقد اللوحات من التراجع، فترسمه بدون خطط، وتيح له الفرصة كلها، لكي يضع على سطح اللوحة أقداح بيت شارع التانكي كلها، الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، أي غرض زجاجي يصلح للشراب كانت تضعه في الوسط حتى استكان الشاي المذهب والمطلع باللونين الشّذري والأصفر الذهبيّ. بعض الأقداح كانت خالية، وبعض تقاد تقipض بالخمرة، وقليل منها وقفت إلى منتصفها. الأقداح جميعه تعمل بدقة، وبدوام لا ينقطع، ويبقى داخلها سائل العرق العراقي، والويسكي الإسكتلندي، والفودكا الروسية. فالعمّ مختار يستوقفه السرّ البلاغي لوفاء الكأس والخمرة، فالمادة كانت في حال سفر فطري وبدائي، وهي تفرّ من القناص، وتتكوّن في كأس العمّ الذي يفيد دائمًا؛ هذا ما بقي له، لكي يداعبه، فلا امرأه بانتظاره، ولا احتمال أن ينتهي به الأمر أباً، فينكمش ويسمع نشجيه الليلي الطويل، وهو يتقدّم الأحواش المسدودة على أهلها، فلا يرى فتحة ما في آخر الرّقاق، فلا يعرف من يشتمنه ويلعن ..

خفيف الروح

لم ترسم عفاف يونس إلا وهو في حالة من الإعياء الشديد يزداد غيظاً
وهي تقول له:

هيا، يا يونس، إنني عطشى، أريد أن أشرب السكوتش كما يسميه
صميم. ترى أين نعثر عليه؟ .. ها. مؤكّد في أحد الفنادق الكبرى، أو
النوادي المشهورة كالعلوية أو المنصور .. ها، ما رأيك؟ .

للحظات شعرت لو كان بمقدوره أن يطوّقها، فسوف تروي له قصصاً عن
منافع العناق. كانا يتمشيان أمام كورنيش الصرافية. لم تر ارتياحاً في عينيه،
ولا أبدى استعداداً ما. وبعد بضعة ساعات سيحضر صميم وطرب لنقلها
للمطار .. سارت قبله، ومشي وراءها يت shamshem قفاهما، وثيابها كالحيوان
البرّي. النهر هادئ الجريان، ومشيتهما بدت في حالة من التّعثر. هي تردي
حذاء بكعب متوجّط الارتفاع وثياب زاهية الألوان، وأمر ما في ساحتها كان
على وشك الاستفراغ. ومن بين أسنانه قال:

حسناً، لنذهب إلى حديقة الزوراء.

لم يغازلها أمام النهر، ولم يداعبها أمام الأطيار جميعها التي فزعت من
وجودهما، فحلقت بعيداً. تصوّرت وهي ترى حالهما يصعدان التاكسي
في الطريق للحديقة، أنها تشاهد فيلماً مُضجراً تافهاً، وحين وصلـا، لم تـ

أدلة يشيرون عليهم . عن ماذا يتفرّجون أولاً؟ وما إن بدؤوا بالسير قليلاً، وإلى الداخل حتّى هبّت عليهم الروائح الكريهة القادمة من داخل الأقفاص الحيوانات التي، وكّلما اقتربا، كانت الراîحة تتضاعف، والأصوات تزيد، بعثّة، وقفّت أمامه، وقامت برفع ذقنه إليها، وهي تحاول أن تلمّس رأسه، وبدأت تُندنن باغنيّة سيد درويش:

”خفيف الروح يتعاجب“

برمش العين وال حاجب

خفيف الروح

غمز لي مرّة بعيونه

رأيت الحبّ مضمونه

حرام إن كنت أخونه

وعشقني له من الواجب“

كانت هناك أنواع من الزهور والورود ذات الأريح القديم الذي فاح منذ قرون، وتوقف هنا، فكانا يدوسان على الرّوث اليابس والحديث الذي تناثر وأمتلأ به الأقفاص، وبدأت تصلّهما أصوات دمدمة زئير الأسد الذي ما إن وصلّا قرّباً منه حتّى ظهر من وراء الأعمدة شديد الضجر، أكثر منها. في تلك الساعات الحارّة من ظهيرة العاشر من حزيران، ذات الوخامة وسوء الطالع: قال يونس بصوت شديد الأسى واليأس:

أحبّك.

بذلّت أقصى ما بمقدورها أن تُفرّغ صوتها من شحنته الغاضبة، فصارت تقضم شفتيها، وتقوم بتهديئة روحها، لكنها لم تقدر إلا أن تُؤمّج:

هياً، إذن، عانقني هنا، أي هنا أمام القرود والفهود والأسود والأفيال، وبين الضواري الجائعة. استمتع بعيون هذه الحيوانات الحبيسة، وهي تبلغ ريقها من العطش، وترمي علينا وسخها .. هياً، لا تتشنج مثل الطاؤوس المريض، ها أنا أسد أنفی بمنديل، وأغمض عيني، وأريدك مائة بالمائة في هذه اللحظة الحيوانية المثيرة .. ها .. ترى، ماذا يعني هذا المكان في هذه الساعة، يا يونس؟ ومن تكون إلا هذه الحديقة، ونحن تتلقى الخراء ..؟

غرض جنسي

صارت تراقب وجوه الجميع في البوزار، أنوفهم وقاماتهم وهيئاتهم وخيباتهم وحركات أيديهم، وثيابهم ووجوههم. الكثير منهم لم يربوا الشوارب كما هناك، فتركوا شعر وجوههم نابتًا باللون الأحمر والأسقر والرمادي والأسود. وما إن تنزل إلى أسفل، أقدامهم وقناورهم، فهذه لا تقل مغزى عن لحاظهم، وعلى غير إرادة منها كانت تضع بعضهم بدلاً عن بعض، وهي تحاول فتح قميص أحدهم، لترى شعر صدره الكث، كما .. امتنع وجهها، وبدت عيناهما ثقبتا، ووقفت على صورة واحدة، بقيت لا تخالط غيرها؛ ياسين، الذي هاجر قبلها. فهل اجتنبته المرأة الشيعية، فتحول إلى غرض جنسي يتطلب تقنيات وإغراءات حديثة، وإلا فلن تُبقي وزناً، لا له ولا لأمجاد تاريخه القديم. في هذا المصح الفن لاحظت أعداداً لا تُحصى من الفنانين العراقيين والعرب، واستطراداً لتلك الأفكار الثورية في جمهورية أباريق النبيذ، وثورة الشباب، وحرّة التتفبيب بين السراويل والنهود، وفتحات السيقان، وخطابات الشيعيين الأوبيين الأوائل، أو العراقيين الفرسان .. بقيت تجلّ أمامها على الشكل التالي، فيما لو فكر ياسين في أحد الأيام، وقام بكتابة خطاب وبأثر رجعي، وبعثه إليها، ولو عن طريق الخطأ، فماذا كان سيدُون:

"نحن الشيعيون العراقيون..، كنا نعاني من انفصام في جزء من أنفسنا، كنا وأردنا أن تكون شهوداً للحقيقة منتقدين للأذى الذي عانى منه الضعفاء

والمظلومون، المدافعون عن العدالة ضد كل ظلم. وفي جزء من أنفسنا كنّا نبرّ الأخطاء والعنف واستبداد حزب ستالين - تحت شعار - "الضرورة" فُصاميون منقسمون. أذكر جيّداً بعض الرفاق عندما يعودون من زيارتهم لبعض الدول الاشتراكية كانوا يصرّحون لرفاقنا الأعلى مرتبة: أنهم كانوا يشعرون من أعماقهم بعدم الراحة، والغرابة، وأن بعضهم صار عدواً نائماً تجاههم، ولكن، ما إن يعود أحدهم ويصعد الطائرة متوجّهاً لبلده، ويطلّ على أصوات العاصمة، حتّى يبدأ أحدهم بسؤال نفسه: ولكن، حين أصل إلى هناك، بلدتي، فماذا يمكنني أن أكون سوى شيوعي عراقي.

نهاية السّتالينيّة رفعت عن صدورنا ثقلًا رهيباً: ربّما كما أقرأ في نشريات الشّيوعيّين الإيطاليّين أو الفرنسيّين ما معناه: إنّ شكلنا الأخلاقي وشخصيتنا المنقسمة يمكن أن تكون أخيراً من جديد".

إلى هنا تلاحقها أشباح ياسين، وقوانينه الاستبدادية. ما شأنها بالشيوعية وأتباعها؟ فلتبقّ الراية خفّاقة حمراء أو بنفسجية، جديدة أو مثقوبة بالرصاص وملطخة بالدم، فليرفعها هذا الفريق أو ذاك، فالفتى ياسين ذاك، هنا شاهدت بعضاً من أولاده، وهم مثله يعملون ضمن مصطلح "من أجلهم". وهي، عفاف أيضاً تعمل من أجلهم: الرّسامين والرسّامات كلّهم، من أجل الرسم، بما شأنها فيما إذا احتمم النقاش من حولها لدراسة الفروق بين شيوعيٍّ وآخر:

إننا جميعاً من نوع إنساني واحد، معطوب ومتتوحّش، بالبلد هناك كان وما زال يغتصب بالشيوعيّين والبعثيّين وغيرهم، لا أعرف ألقابهم ..

وما إن تغادر بيت ياسين في حيِّ السفينية عائدة إلى بيتها المجاور، وعبر تفاصيل جدّ دقيقة لم تبارح رأسها، وهي جالسة في كافتريا البوزار،

وهي تمسك بيدها فنجان القهوة الساخن جدًّا. كانت ترتدي ثياباً سوداء، ولا تشاهد نفسها إلا وهي عائدة أو سائرة ما بين الحوشين. نعم، كان اللقاء مميتاً، وكان اللقاء أخيراً، والغضب يسير بجوارها .. وهي صامتة. لم تتبه لأيّ أحد، لا وقتذاك ولا الآن، فلا تريد أن تكون سنّها أربعة عشر عاماً، هذا رقم جائز، فهو لم يحرّك ساكناً، وهي تُبصّر سنّها في المرأة، فترى نفسها عجوزاً تتهالك أمام حشرات الآنسة والآنسات داخلها. لم ترتوِ من الرابعة عشرة، ولم تتنعم برايحة الأنثى التي بلغت وجاءها الحيض قبل عامين، فاحتارت الجبل والوادي، حسناً. لا تبكي، يا آنسة، لا هنا، ولا في أيّ وقت، ولا عندما ودعت عائلتها وأصدقاءها. صحيح راودتها بعض الدموع، فدفرتها بحذائها إلى خارج محجرتها، كما دفرت ياسين، فغادر إلى بلاد الزمهرير، فاستحسنست القيام بمعاهدة دعوه إليها؛ الماركسية وساعاتها، فقالت: سأمهّرها بخاتمي الفنّ والرسم، وأخذهما إلى جنبي.

فقامت بدعةة ماركس وإنجلز ولينين .. وغيرهم. كانت تعرف كيف تمازحهم وتداعبهم:

سنكون فريقاً ونعمل معاً، فأنا مُسنةٌ مثلكم، وعليكم الاعتراف بذلك أفضل من ياسين، فهو لا يُفضل تصرّفاتي ورسومي الطفولية، هكذا يُطلق عليها من ألقاب. لم يغمض يوماً عينه ويدعوني لكي أمازحه، هو لا يُفضل ذلك. نعم، أقوى أسلحته العبوس .. هيّا، ادخلوا رأسي وبيتي آمنين، فأنتم ضيوفى، وما عليكم إلا الامتثال لقواعدى وتحمّل المسؤولية، والجلوس ساعات لكي نختار معاً أخفّ الأفكار السعيدة، وأنقل الأحلام الصافية، وألطف الثياب التي تُنْتَج الطاقة والراحة.

بقيت تبتسم وهي في البوزار، وكانت تضحك بصوت مسموع أمام الخالة فتحية حين تخبرها بهذه الأمور جميعها:

الحقيقة لم تواجهني حالات رفض أو استياء أو سخرية من أيّ واحد من أولئك القوم، على العكس من ياسين.

يبقى الجميع في حالة من الاتصال من غرف المعيشة إلى غرفة الخطأ، إلى غرف النوم، ثم السرير ذاك، سرير الخالتين فتحية وسنية. لم تتوقف عند ذاك الحدّ، فدعتهم في حالة مرح تام مع الوالدة مكية، لكي تطهو لهم كبة الحامض والهريسة باللحم، والكتاب المشوي، فهذه الأيام كانت تنتظر ضيوفاً على سفرة الطعام، فتضحك مكية من قلبها، ويهترّ بدنها وهي ترى بعض الرضا في وجه ابنتها، فتلبي لها ما تطلب جميعه. حتى العم مختار تراه يتсаهم معهم، وهو يضع أمامهم أقداحاً معتبرة، لا تخرج من مكانها في الخزانة. إلا للأشخاص الخصوصيين، فجلبت معها إلى البوزار جميع ما قامت به من تخطيطات بالأسود والأبيض لأولئك الفلاسفة والكتاب والشعراء الروس. لاحظت فتحية أن بعضهم يقف بعيداً والبعض الآخر يشعر بوحدة قاتلة. وهي كانت تستقبلهم بترحاب وحشمة، ومن الجائز شاهدت صورة حبيبها الميت في طيف واحد منهم. فتلاحظ أن بعضهم كان يقف بعيداً، وأنه عائد للتو من ساحة القتال، والجميع يرفعون أبصارهم ببعضهم البعض، ولا أحد يضع كفّاً أو ذراعاً على كتف امرأة بجواره .. ما هذا، ياعفاف؟ كانت الخالة تسأل باستغراب:

لم أر نساء بجوارهم؟ أي بنتي، أنت اسمي النساء، إذا لم تعترني عليهنَّ في الصور. ضعينا نحن جميعاً حولهم، فندعمهم يشمُّون، ويُشمِّمون روانج الاراجن والجمار، ونحن نزح الشلالات عن أكتافنا وأعناقنا. مكية ستُفوح منها رائحة القرفة والقرنفل والهيل، تلك التي دخلت مسامّها، فدعيمهم يشمُّونها، علّهم يبتسمون وتتفرج أسايرهم قليلاً. بنتي، لا تتركيهم وحيدين، ترى مو زين على صحتهم.

كانوا لا يعرفون عن هذه الخالة والحبـبـ الغائبـ، المـيتـ الذي قـضـ في أحد سجون البـصـرةـ. بـقـيـتـ تـقاـوـمـ اـبـنـةـ الـأـخـتـ الفـضـولـيـةـ، وـتـبـعـدـهاـ عنـ القـنـابـلـ، لـكـيـ لـاـ تـفـجـرـ فـيـ وجـهـ الـجـمـيعـ، وـبـعـدـ هـذـهـ الـأـعـوـامـ كـلـهـ .. بـيـنـ الدـمـوعـ وـالـضـحـكـ، تـعـانـقـانـ، وـتـدـفـنـ وجـهـهـاـ بـيـنـ خـصـلـاتـ شـعـرـهـاـ:

لو تـدـرـيـنـ مـنـ سـأـرـسـمـ مـعـهـمـ؟ـ كـلـنـاـ جـمـيـعـاـ،ـ نـحـنـ بـالـطـبـعـ،ـ نـسـاءـ وـشـابـاتـ العـائـلـةـ وـالـطـرـفـ وـالـحـيـ وـالـمـحـلـةـ.ـ بـعـضـنـاـ يـعـانـقـ أـنـجـلـزـ،ـ وـالـآخـرـ يـصـافـحـ مـارـكـسـ،ـ وـهـمـ وـسـطـ الـعـائـلـةـ،ـ وـعـلـىـ سـفـرـةـ الطـعـامـ،ـ وـالـوـالـدـةـ تـعـزـمـ عـلـيـهـمـ بـالـأـطـبـاقـ الـلـذـيـذـةـ،ـ وـأـبـيـ أـيـوبـ،ـ صـحـيـحـ لـاـ يـوـافـقـ بـالـنـظـرـ إـلـيـهـمـ صـراـحةـ،ـ فـكـانـتـ جـلـ نـظـرـاتـهـ مـوـارـيـةـ وـغـامـضـةـ،ـ وـبـلـاـ ضـغـيـنـةـ،ـ لـأـنـ مـكـيـةـ تـفـتـنـ بـالـطـهـيـ.ـ بـقـيـ يـقـرـبـ الـأـطـبـاقـ وـبـأـرـحـيـةـ صـوـبـهـمـ.ـ تـرـىـ أـنـاـ وـضـعـتـكـ فـيـ حـضـنـ إـنـجـلـزـ،ـ لـكـيـ تـكـتمـلـ الـمـتـعـةـ.ـ لـأـعـرـفـ لـمـ أـتـصـوـرـ أـنـ بـهـ شـبـهـاـ مـنـ حـبـبـكـ الـذـيـ تـضـئـنـ حـتـّـىـ باـسـمـهـ عـلـىـ،ـ إـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ أـرـهـقـكـ الـحـبـ؟ـ

وـسـوـفـ يـرـهـقـكـ وـيـمـيـتـكـ أـنـتـ أـيـضاـ،ـ يـاـ نـورـ عـيـنـيـ،ـ وـيـنـازـعـكـ عـلـىـ حـيـاتـكـ وـوـجـودـكـ.ـ عـلـىـ مـهـلـكـ،ـ بـعـدـكـ ماـ طـلـعـتـ مـنـ الـبـيـضـةـ..ـ أـيـ تـمـامـ وـجـهـ حـبـبـيـ بـهـ شـبـهـ مـنـ إـنـجـلـزـ الرـحـيمـ وـنـظـرـاتـهـ بـهـاـ نـبـلـ أـكـثـرـ مـنـ نـظـرـاتـ لـينـينـ الـمـاـكـرـةـ شـوـيـةـ.

وـعـادـتـ الـخـالـةـ فـتـحـيـةـ تـواـصـلـ التـجـوالـ بـيـنـهـمـ.ـ فـيـسـتـوقـفـهـاـ مـنـ بـعـضـ الـوجـوهـ الـتـيـ تـلـحـ عـلـيـهـاـ بـالـقـيـامـ:

بـتـشـذـيبـ شـوـارـيـهـمـ الـكـثـةـ،ـ وـلـاحـاهـمـ الـقـصـيرـةـ وـالـطـوـيـلـةـ.ـ لـاـ تـدـعـيـ جـمـيـعـ ثـيـابـهـمـ دـاـكـنـةـ دـائـمـاـ عـيـنـيـ،ـ وـكـلـهـاـ بـالـأـسـوـدـ وـالـرـمـادـيـ،ـ وـكـأـنـهـمـ فـيـ حـالـةـ حـدـادـ عـلـىـ عـزـيزـ،ـ تـرـىـ مـنـ مـاتـ لـهـمـ؟ـ هـلـ لـكـ عـلـمـ بـذـلـكـ؟ـ شـكـلـيـهـمـ كـمـ تـحـبـبـيـنـ أـنـ يـكـوـنـواـ،ـ هـاـ،ـ وـمـعـظـمـهـمـ يـدـخـنـ،ـ لـاـ نـدـريـ كـمـ فـيـ الـيـوـمـ الـوـاحـدـ؟ـ

عفاف لم تفزع من هيئات رؤوسهم الكبيرة ونظارات بعضهم القاسية.
وضعفهم حول طاولات مستديرة، وبجوارهم رجال وطلاب وطالبة واحدة
ترتدي ثياب المدرسة المتوسطة، ملامحها عادمة وذات نظرات بين الطفلة
والناضجة، وابتسمامة ابنة الرابعة عشرة. يوم وصلت باريس بحثت عن
جميع معارض الألماني دور الذي صور فيه نفسه، فوجدت أنه عدد
قليل، لكنها لاحظت أن رمبراندت، وفان غوخ أنجزاً أعداداً كبيرة من لوحات
الرسم، كل واحد منها فيها وجهه، وحالاته النفسية المتقلبة على مدى
عشرات الأعوام .. ترى هل كان ياسين يخاف من حقيقته عندما قالت
له في أحد الأيام:

في وسعي أن أدخلك التاريخ. تاريخ البورتريه، فأنا أراك موديلاً لا تغرب
الشمس عنه وعن عيني .. ها، ما رأيك؟ أنت موديلي منذ اليوم .. سأظهر
فيك ما لم تره من قبل، وما لا تعرفه عنك ..

فكاد يضرها، فأزاحت جسمها ووجهها عنه. ويوم انتقلوا إلى شارع
الタンكي أخذت التصاوير جميعها معها إلى هناك، فلم تشعر بجوارهم
بالوحشة ولا الألم. بقيت، لا أحد يجيبها، لم انتحر الحال سامي؟ كل
واحد من العائلة ينظر في وجهها ويعانقها ويصمت، وعندما قرأت
ديويستوفסקי، تصوّرت أن شخصية "ستافروجين" هي مجموع وموروث
ذلك الحال. لم تزد الحالة فتحية عن الكلمة:

أي بنتي هو القدر الغاشم.

القدر الغاشم عمل كلاسيكي، ولا يقف أيّ واحد في وجهه، فالاعمال
الكلاسيكية تثير الافتتان الجماهيري، كما هم جماهير سكان شارع التانكي.
كان أكبر من ياسين وهلال؛ كان في الثامنة عشرة. بقيت تتحسّس رقبتها

طويلاً، وإلى هذه الساعة، وهي تزيد كالمحققين العدليين إعادة ترتيب الجريمة، نعم كان ينقصهم: السبب أو الأسباب. فالموضوع يجذب صميم جداً، لكنه يصير كالصنم أمامها. طرب وقدراك، ومن على أرض الواقع كانت تقول كلاماً بعيداً جداً علىأمل أن تعثر عفاف على خيط ما، في حركة التّنقل بين الصّف الخامس ثانوي في كلية بغداد، وإلى الحركة التالية داخل حديقة الكلية، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ يَتَرَصَّدُهُ، أَوْ يَتَبَعُهُ أَوْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهِ، عَلَى جَزءٍ، أَوْ أَجْرَاءٍ مِنْ جَسْدِهِ، وَنَظَرٌ إِلَيْهِ بِمَنْظَارٍ فَاجِرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .. الْجَمِيعُ، وَعَفَافُ فِي الْمَقْدِمَةِ، ظَلَّتْ هُنَاكَ وَهُنَا أَيْضًا تُعِيدُ تَشْكِيلَ، وَتَرْتِيبَ الْمَفَرَدَاتِ وَالشَّخْصِيَّاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْأَكْثَرِ اقْتِرَابًا لِمَا حَصَلَ. هَلْ هُوَ أَحَدُ أَصْدَقَائِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ؟ أَمْ الْبَسْتَانِيُّ، أَوْ أَحَدُ الْأَسَاتِذَةِ مِنَ الْفَادِرِيَّةِ؟ .. لَمْ يُطْلِلْ مَفْعُولَ الْفَضِيحةِ بَعْدَ عَشْرَةِ أَوْ عَشْرِينَ أَوْ قَرْنَ، وَالْجَمِيعُ يُعَدَّلُ وَيُغَيِّرُ فِي حَيَّاتِ الرَّوَايَةِ وَطَرِيقَةِ السَّرْدِ، كَمَا يَحْصُلُ فِي الْأَعْمَالِ الْكَلاسِيْكِيَّةِ، فَمُعَظَّمُ حَوَادِثِ الْإِنْتَهَارِ تَلْتَصِقُ بِهَا رَائِحةُ سُوءِ السُّمعَةِ الْمُفَصَّلَ عَلَى بَعْضِ الْعَوَالِلِ، وَلَا تُمْحَى أَبَدًا، كَمَا كَانَ تَرْوِيَةُ الرَّوَايَاتِ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي اصْطَحَبَتْ عَفَافَ وَهَلَالَ، وَحَتَّى طَرِيَّاً أَعْوَاماً وَأَعْوَاماً، فَهِي تَتَحدَّثُ عَنْ أَجِيَالٍ عَرَاقِيَّةٍ عَدَّةٍ، كَمَا ذَكَرَتْ لِصَمِيمِ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ قَائِلَةً:

نعم، يا أستاذ، بواسطة تلك الروايات تعرّفت وتفهّمت عمّي وأبي وخالي وأخي وأفراد أسرتي جميعاً. ياسين ويونس وأساتذة الأكاديمية وقادة الأحزاب والنقابات و.. عوائلنا جميعاً من الشمال إلى الجنوب. ما كان يحصل لنا كان قاسيّاً، وهو نقطة التقاءنا مع الغير، عندهم الحق بكتابه قصصنا، فهم لم يتحاملوا علينا، وعلى سنسفيل أسلافنا. استساغوا أوهاماً قبل مباركة أحلامنا، وأحاطونا بالرحمة والتعاطف. صحيح الروايات لا تحسّن المعيشة، ولا تجنب التفاهة والمهانة، ولكنها تجعل لحياتنا بعض المعنى.

مسيو كيوم في منافع المرض

بدأت إقامتها بين المعارض تصيبها بالتشوش، فتبصر المراحل والمدارس والتاريخ وتسجل الملاحظات، تجلس وتخرس ولا تُشفق على حالها وأرأسها، فلم تعد قادرة على الفصل ما بين الموتى، والأكثر موتاً. فشاهدت فترات من حياتها، وقبل هذه الحياة، قبل الطفولة، وعندما كان العالم بلا لغات ومعاجم، وأبوبة وأمومة وأديان وأعداء ووسطاء .. و.. هياً، يا عفاف، هل تقدرين على هذه الإغراءات جميعها؟ فلتتكلمي، فهذا أمر لا يصدق؛ الجمال يُنذر بال نهاية، ولا أحد بجوارها، لكي يتبدلا التأملات. أنطوانيت السورية تراها بضعة شهور في العام في قسم النحت، ثم تعود إلى دمشق. معرضها الجديد يتطلب إجراءات رسمية عدّة وأستاذها في الرسم، وبعد أ周ات تقابله في أحد المعارض، فيعرض عليها بعاطفة وإعجاب غير مشروطتين الاشتراك في معرض كبير وعالمي، يشترك فيه رسّامون من القارات كلها، أضاف بصوت شديد الصدق:

أنت، يا آنسة، اسم عربي ممّيز يعود لسنوات، وساهم في معارض مشتركة جيدة جدًا من النشاط والبروز. حسنا، نريد لوحتين .. واسمعي، إليك هذا الملف الأوليّ به عنوان المؤسسة، وأمناء المشروع، شخصياً بالكاد أعرف أحدهم هو ناقد ورسّام: مسيو كيوم فيليب. التفاصيل والمعلومات جميعها هنا، وهذا، أخرج قلماً، وكتب رقم هاتفه الشخصيّ

على ظهر الملف. تصافحا بابتسامة، وأضاف، من الجائز ستكونين العربية الوحيدة .. وربما .. ويده ما زالت بيدها.

تراءى لها اسم كيوم، الطيف الذي كان يقفل بعض اللوحات عليه وعليها، قد حضر إلى هنا، ليتبعها، فتراه مضاءً وحده، وحده هو يتلمس الطريق إليها، لأقلٌ من ربع الثانية، أجل، هو ذاته الجسد الذي يرخي المسارات عليها، فتحسب أنها تسمع شيئاً يتكسر في خلاياها، فتقوم برسمه: هيئـة آلهـة قـابلـة للـتشـابـكـ، وبالـتـالـي للـسـكـنـيـ. مـنـ هـوـ؟ مـاـ هـذـاـ؟ ومتى ظهرـ؟

الكتـفـانـ المشـدـودـتانـ، الرـدـفـانـ القـوـيـانـ، والـبـطـنـ الـخـاـسـفـ قـلـيلـاـ؛ هـوـذاـ الشـكـلـ الأـكـثـرـ شـهـوـانـيـةـ وـتـلـقـائـيـةـ. جـينـاتـ لـاستـعـارـةـ بـلـاغـةـ غـيرـ الغـرامـ وـالـهـوـيـ وـالـحـبـ، إـذـاـ بـلـغـتـهاـ، فـمـاـ سـتـقـولـ بـعـدـ ثـوانـ؟ تـكـادـ تـفـرـّـ منـ بـيـنـ ثـيـابـهـ ذاتـ الـأـنـاقـةـ الـرـيـاضـيـةـ بـنـيـتـهـ النـحـيلـةـ. هـيـئـةـ شـاغـرـةـ بـشـيءـ لـاـ تـعـرـفـ مـاـ هـوـ، هـيـ ستـشـغـلـهـ.

تنـفـسـتـ بـصـوـتـ دـاخـلـيـ، وـأـتـيـهـتـ إـلـىـ أـنـهـمـاـ يـقـفـانـ وـحـدـهـمـاـ فـيـ بـهـوـ قـاعـةـ شـاسـعـةـ مـضـيـئـةـ فـسـيـحةـ مـنـ أـحـدـ الـقـصـورـ الـعـرـيقـةـ الـتـيـ تـقـعـ فـيـ جـنـوبـ بـارـيسـ، فـيـ مـنـطـقـةـ "ـشـاتـوـ دـيـ فـنسـيـنـ". هـمـاـ وـحـدـهـمـاـ. حـضـرـتـ باـكـراـ، وـعـلـمـتـ مـنـ الـكـرـاسـةـ أـنـ الـعـدـدـ يـفـوقـ الـثـلـاثـيـنـ فـتـانـاـ. كـانـ الشـهـرـ نـوـفـمـبرـ، وـقـدـ حلـتـ الـعـتـمـةـ سـرـيـعاـ. فـأـشـعـلتـ الشـمـوـعـ بـجـانـبـ الـإـضـاءـاتـ الـخـانـسـةـ الـمـتـواـرـيـةـ بـيـنـ أـعـمـدـةـ الـقـصـرـ، تـدـلـلـتـ ثـرـياتـ بـرـاقـةـ ذـاتـ تـشـكـيلـةـ أحـاذـةـ، نـصـفـهـاـ بـقـيـ مـطـفـأـ. بـدـأـتـ بـالـعـطـاسـ قـلـيلـاـ، فـاقـتـرـبـ:

اعتـادـ الـمـسـؤـولـ عـنـ الـمـعـرـضـ كـلـمـسـةـ فـيـيـةـ وضعـ عـيـدانـ مـنـ بـخـورـ الصـنـدـلـ وـالـمـسـكـ. هلـ تـضـايـقـكـ الـرـائـحةـ؟

كادت تغصّ قبل أن يواصل:

كيوم، أنا كيوم فيليب. أحد المشرفين على المعرض .. و

لا بدّ أن تجib، أليس كذلك؟ عاد وهي ما زالت تسعل ولا تقدر على الكلام. رفعت رأسها إليه، وببدأت تردد في سُرّها:

لأبأس أن تردد بشيء ما .. وصوته:

من المؤكّد أنك الآنسة العراقية عفاف أيوب.

مدّ يده.

كانت تريد أن تنهالك على الأريكة البعيدة أو على الأرض:

آه، هي الآنسة عفاف.

رفعت خصلات من شعرها القهواري الطويل الممجد إلى أعلى بدبابيس، وتركـتـ الـبـاـقـيـ نـازـلـاـ عـلـىـ كـثـيـنـهـاـ. لـاحـظـتـ وـهـيـ تـرـفـعـ الدـبـابـيـسـ،ـ بعضـ الشـعـيرـاتـ الـبـيـضـاءـ ظـاهـرـةـ لـلـعـيـانـ.

أول ما وصلت شاهدت في بطنه إحدى الصالات موقداً وحوله بعض الرجال ينفضون الغبار عنه، ويلقم بالخشب الكبير والأغصان، فتنبعث منه شعلة يتمايل لهبها على الجدران الشاهقة وسطوح بعض اللوحات. وقفت أمام النار في البداية. كانت ترتدي سروالاً من الجينز الكالح والمبيّع، وكزنة صوفية مكسّمة ومشدودة على بطنهما، فبرز صدرها الذي ترفعه حمالة صدر من النوع الفاخر، لأجل رفعـةـ نـهـيـنـاـ النـاهـضـيـنـ الكـبـيـرـيـنـ،ـ وـفـوـقـ هـذـاـ جـاـكـيـتاـ منـ الجـلدـ الأـسـودـ،ـ وـيـغـطـيـ رـقـبـتهاـ وـبـعـضاـ مـنـ ذـقـنـهاـ شـالـ صـوـفيـ بـأـلـوانـ مـوجـ الـبـحـرـ.ـ لـقـدـ مـرـتـ بـالـبـابـ الـخـارـجيـ مـنـ القـصـرـ،ـ وـبـدـأـ تـمـاـيـلـ مـنـ لـسـعـاتـ

برد، فبدأت تعتصر شالها لكي تتدفقاً، فكادت تتعثر وهي تشاهد بعض الجذور وأغصان الأشجار قد قُطعت للتو، وبدأ الضوء ينحسر بسرعة، وهي تدخل وتشاهد النيران، فتسمع صوتها، وهي تحرّك وتحترق.

لماذا، وفجأة، ولأمر مجهول، شعرت أنها محظوظة كمن اهتدت بعد طول انتظار. وهذه المقدّمات من الكآبة، لماذا تظهر وتشعر بها في هذه الساعة بالذات؟ بالتأكيد، هي متروكة منذ أعوام. ثمة سوء تفahم، وليس عليها أن تنزعج الآن، فهذا ليس وقته. توقفت لحظة، وقالت لنفسها:

لا تحرّكي بعيداً. أمسكي نفسك. ماذا جرى ويجري لك؟ المرة الأولى سترى مدعّوين عند الافتتاح. أبّهه وثياباً خاصة، وأثواب السيدات الخاصة بالسهرة، ربما، ومن الجائز أن تقام المأدبة في إحدى صالات هذا القصر العجيب، والطاولة، ليست كما في بيت شارع التانكي، وآه، لن تحضر مكّية إلى هنا، ولا تعرف نوعية المأكولات أو الأحاديث الجانبية التي قد تجري ما بين الضيوف. وهي ستغليط في بعض الألفاظ الفرنسية فيما يخص الأطعمة بالذات، أمام المدعّوين، وستلفظ بعض التعابير، ربما في غير مكانها، والمجاملة والإتيكيت، وأقداح النبيذ، وهي تريد قدحاً حالاً. الحسأ يربكها إذا ما حضر، وأنواع المرق جميّعاً، وتلك الأيدي التي ترفع وتبدل الملاعق والشوك والسكاكين، من الجائز أن تصادم بها، والدقائق التي عليها الإصغاء فيها لجارها، من سيكون، يا ترى؟ فنان أمريكي أو أفريقي؟ ما هذا البرد؟ وما إن صارت في الصالة الثانية، نعم، هذا الحن "ضوء القمر" لكلود دييوسي، تعرفه من الازمة إياها، فأرادت أن تنسد معه أغنية لعبد الوهاب. ستُغنى فيما بعد، فيما إذا طلب ذلك منها .. وهي تتلفّت باحثة عن لوحاتها من بين اللوحات المعلقة أمامها. شعرت أنها تحت ثيابها أشبه بالهجارة واقفة أمام . حانة من حانات الحيّ الفلاني

وهي تزيد كأساً من النبيذ قبل أن تكؤم على صدر هذا الأمير حالاً، فليس في حوزتها من ثروات إلا حبالها الصوتية:

أين وُضعت لوحاتي، من فضلك؟

لاتقلقي، آنسة. أسانذه البوزار القدامى كلهم قدّموا توصيات لمجمل أعمالك وتحطيماتك، واللوحات المختارة للمعرض. هنا، أنا واحد من مجموعة مسؤولين تقوم بتقدير و اختيار و تقديم لوحات كل فنان. في الغالب نختار ثلاثة، وبما أن لوحاتك المقدمة صغيرة نوعاً، اخترنا أربعاً.

أجاب قبل أن تسأل عن هذه التفاصيل كلها:

بعد مرور هذه الأعوام كلها ما زالت فرنسيتي تشبه لوحات التّنقيطيين الآثنيْن؛ جورج سورا، وبيول سيناك. إلا تسمعها وكأنني اخترعت شكلاً غير مكتمل لها، ربّما، هي، وقبل أن أكمل، اقترب، وكاد يمس ذراعي:

تشبهك. أليس هذا ما كنت تودّين قوله؟

الصالحة الأولى يتواجد إليها المَدْعُون، وما إن سمعت قوله حتى أطلقا ضحكات ذات ذبذبات مرتفعة، وعلى الفور، استدارت بعض الرؤوس صوبهم. حضرت من أجل أن تراه بأمّ العين، لكي تستطيع أن تُخبر عنه شخصاً ما، لا تدري مَنْ هو؛ صميم، معاذ، وربّما طرب. يجب أن تُخبر ما تقوم به في هذه الثوانى، ولو اقتضى الأمر أن لا تدع الوقت يمرّ عمداً. نعم، هو الزمن الملتبس الذي يجدر به أن يكتُس الشخص واحد على الأكثر، وهذا يحصل مَرَّةً في الحياة، فلا يعود الشخص يظهر، ربّما في مكان آخر، ولا يصحّ أن تكون هناك تلميحات فقط، فهذه ليست ضرورية، عليها أن تنساها على الفور. فتدخل الموضوع رأساً، لكن صوت كيوم يشرح:

لوحاتك في إحدى صالات الداخل، ونحن في طريقنا إليها.

مَنْ سَأَلَ عَنِ الْلُّوْحَاتِ؟ مَنْ سِيَقُولُ هَذَا الْمَكَانُ مَنْاسِبٌ لِعِرْضِهِ؟
وَهُلْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْفَضْلِيَّ لِوَضْعِ الْلُّوْحَاتِ وَالْتَّصَاوِيرِ وَالْمَوْتِ؟ هَلْ
الْمَكَانُ هُنَا يَسْاعِدُهَا عَلَى تَمْضِيَّ الزَّمْنِ مَعَهُ، هَكُذا، مِنْ أَجْلِ الْحَوَّلِ
فِي عَيْنِهَا الْيُسْرَى، لِقُصْرِ قَامَتِهَا، لِنَهْدِيْهَا الْكَبِيرَيْنِ، لِلْإِعْاقَةِ فِي مَكَانِ
مَا، هُنَاكَ فِي شَارِعِ التَّانِكِيِّ، بِسَبِيلِ عَظَامٍ رُسْغَهَا النَّحِيلَةِ جَدًّا الَّتِي مَا
إِنْ يَلْمِسُهَا حَتَّى تَظَهُرَ مَشْكُلَةً، وَسِيَخْشِي عَلَيْهَا الْكَسْرُ وَالْتَّهْشِيمُ، وَمَا زَادَ
عَنِ الْفَخَذَيْنِ الْلَّطِيفَيْنِ وَالْحَوْضِ، وَمَا يَحَاوِرُهُمْ، فَلَمْ تَلْحُقْ بِهِمْ أَيُّ أَذَى.

كَانَتِ الْمَمَرَّاتِ طَوِيلَةً مَعْطَرَّةً مَضَاءَةً بِنُورِ خَافِتِ، وَسُجَّادٌ طَوِيلٌ
قَدِيمٌ وَأَنِيقٌ. هُنَا فَكَرْتُ بِنَزْعِ حَذَائِهَا وَوَضْعِهِ جَانِبًا أَوْ رَفْعَهُ بِيَدِهَا. كَانَتِ
أَصَابِعُ قَدَمَيْهَا تَوَرَّمَتْ مِنِ الْمَشِيِّ الطَّوِيلِ، وَالْالْتِفَاتِ الطَّوِيلِ، وَالْوَقْوفِ
الْطَّوِيلِ. كَيْوَمْ يَسِيرُ أَمَامَهَا، وَيَلْتَفِتُ قَائِلًا:

تَلْكَ الصَّالَةُ، يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَصْلِهَا بَعْدٌ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْمَدْعَوِينَ.

هُنَا تَوَقَّفَتْ، وَأَسْنَدَتْ ظَهُورَهَا عَلَى الْحَائِطِ. بَقِيَ سَائِرًا، وَتَجاوزَ الصَّالَةَ،
وَغَابَ. مَدَّتْ يَدِهَا، وَبِحَرْكَةٍ وَاحِدَةٍ دَفَعَتْ بِالْحَذَاءِ خَارِجًا. عَادَ كَيْوَمْ، وَهِيَ
وَاقِفَةٌ بِجُوْرَبٍ أَسْوَدٍ تَنْتَظِرُهُ وَهُوَ يَحْمِلُ بِيَدِيهِ قَدَحَيْنِ مِنِ النَّبِيْذِ الْأَحْمَرِ.
أَرْتَبَكَتْ جَدًّا، فَأَطْلَقَ ضَحْكَةً مُجْلِجلَةً، بَدَّدَتْ اضْطَرَابَاهَا، فَضَحَّكَتْ مَعَهُ،
فَلَمْ تَبْحُثْ عَنِ أَيِّهَا كَلْمَاتٍ وَهِيَ تَشَاهِدُهُ يَنْزِلُ أَرْضًا وَاضْعَالًا الْقَدَحَيْنِ جَانِبًا،
وَبِدُونِ كَلَامٍ، خَلَعَ حَذَاءَيْهِ هُوَ الْآخِرُ، وَدَفَعَهُمَا بَعِيدًا. حَذَاءُهُ رِيَاضِيٌّ مِنِ
الْمَارِكَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ بِهَا، تَعْرِفُهَا مِنِ الإِعْلَانَاتِ عَنْهَا فِي الْمَتْرُو
وَالْحَافَلَةِ وَالشَّارِعِ. حَذَاءُهَا كَانَ ذَا كَعْبَ مُتوسِّطَ، وَغَيْرَ مَرِيجٍ:

هيا، اشربي نخب عادات الطفولة الأولى. قال لها.

نزلت بجواره، وبدأت تشرب. مدّت ساقيها إلى أمام. والمدعون من حولهم يمرون، يحرّكون رؤوسهم بالتحية، ويواصلون:

بون سوار.

كان يجلس في الجانب الآخر منها، وكان يتسرّب منه النّفس والبخار، فيدخلها ويساكنها وهو يقترب كثيراً، يشريان ويتشابهان. كانت تريد أن تشبهه في تلك اللحظة، أن تدخله أكثر مما ينبغي، فلا تعرف كيف، فتلتصق بصوتها الذي بدأ خفيضاً في بادئ الأمر، وقالت همساً:

صوتي بلا كعب.

أرادت أن ترتفع، وعلى الفور، كما لو كانت تتعلق بتلك الثريّا المتدرّلة في الصالة الأولى في أحد قصور فرنسا الملكية وال.. التفت ونظرت في عيّنها، وخافت، شحبت. النظر إلى الجالس في الجانب الآخر منها، إذًا، هو بجانبها إلى اليسار، فتراه جيداً، وبدون حائل. آنسة، تُدعى عفاف. لا يتسع المكان للمرأة والآنسة، وهما جالستان على الأرض. العمل الوحيد الذي تقوم به هو النظر، فالمرء يحتاج لمدّ يد المساعدة، لكي تكون قوّة الإبصار لديه دقيقة وعميقة، فلا يتلاشى في دقائق. استطاعت حمل صوتها وبصرها، فوضعتهما بين يديه. كان صوتها كشهوتها، كرغبتها، كمرضها، خفيضاً ومنحنياً على نفسه، عليه أن يأذن لها بالغناء، فبدأت:

"أي سرّ فيك، لست أدرى
كل ما فيك من الأسرار يُغري

خطر ينساب من مفتر ثغر
فتنة تعصف من لفته نحر
هذه الدنيا هجير كلها
أين في الرمضاء يظل من ظلالك
لو جرت في خاطري أقصى المنى
لتمنيت خيالاً من خيالك

شطط الرجال الفرحين

صدقَتْ عفاف رائحة الحديث الذي لم يتفوه به كيوم وهي تغنى، فقط صدق حديث الأيدي وما تبعه دقات الساعات وحجرات النوم والأضواء التي تبقى مضاءة، لكي لا يحضر النوم، فلا هو، ولا هي يستسلمان للكرى .. فماذا يعقب الغناء والشراب وغمضة الأيدي؟ هكذا بدأت بالثنهد، وهكذا بدأ المرض مع كيوم؛ سيقان ممدودة بين ممرات القصور. أقداح تفرغ، فيمر أحدhem، فتعود للامتلاء ثانية، والغناء الذي لم يرتفع عالياً جدّاً، قال لها بصوت غنائي:

أعلى، أعلى. ارفعيه عالياً، فلا قيمة للغناء إلا جامحاً. وما على الجميع إلا أن يصغي لك، وينسى المعرض وديبوسي، ولو إلى حين ...

كان يشير عليها بيده أن لا تتوقف، رافعاً يده إلى أعلى وهو يقف أمامها، ماداً يده إليها. وقفا وسرا إلى أمام. بدا أن هذا قصره، أو قصر والده أو جده، فهو يعرف الصالات المضاءة التي لم تمتلي بعد، والتي على وشك الامتلاء بالمدعويين. يسير أمامها، وكل واحد منها بيده حذاءاه وقدح من النبيذ. يتذعن بعض القصص، ولا يخططان على ورق لوحة من ضوئهما، فيدخل إحدى الغرف المعتمة، وهي وراءه، تقع في آخر الممر وبعيدة عن الأصوات والأضواء والمدعويين والخطوات. كأنها حجرة أطفال ذات نوافذ مطلة على الحديقة، عريضة كبيرة ستائرها . سحبت إلى منتصفها .. وهي تحوي كل شيء الآن .. نور خفيض، وأثاث ملوكى قادم من

مستودعات خاصة بالملكية .. مَنْ يَأْبِهُ الْمُلُوكُ ورُؤسَاءُ الْجَمَهُورِيَّاتِ؟
شعرا بعطش شديد، فوقف بباب الحجرة، لعل أحدهم يمر. لم ير أحداً،
فخرج وعاد بعد قليل، وهو يحمل صينية من المكسيّرات والمعجنات وقنيّة
مفتوحة من النبيذ. كانا يواصلان حديثاً انقطع منذ بدء الخليقة، وهذا هي
الأشياء والصفات والألوان والألام تواصل حياتها وهي تفكّر بهما، فماذا
هما فاعلان؟ وحركة يد كيوم وأصابعه تعود وتحضر إليها، من علمه عليها
وعلى ملاداتها الآمنة! ما زالت كالبارحة له، وهو يبدأ من القَدَمَيْنِ مثلها.
عندما شاهدته أَوْلَ مَرَّةً، أرادت النزول إلى ساقيه، وخلع حذاءَيْه، ومداعبة
أظافره، وأصابعه، وما بينهما. من علمه عليها وهو يحضر بلا جلبة. لماذا
لم تصب يده بأيّ اختلال، ولا يدها أيضاً، وهما ييدآن بالعنق .. يتسبّبان
عَرَقاً، ليس هو إلا ذلك النهر الذي كانت تزوره هناك، وهذا هو الصّيَّاد
الذي يُدعى كيوم. لم تقابله بثياب النوم، فما كان عليه إلا أن استدار وبدا
شبه عارٍ، وفوق سجادة ثمينة استلقى، وبحركة لا تحسّب أنها قاربت أيّ
يد رسمتها أو شاهدتها، يده التي جعلتها يغمى عليها. لا شرشف ناصع
البياض، ولا لحاف مندوفاً للتوّ، وعدت به بيبي فاطم نذراً مجيداً، فيما
إذا عرّست بشارع التانكي وزفتها بالهلاهل. فكم كانت الساعة وقتذاك
في تلك الديار؟ أغلقت البارات، وعاد السكارى الحيari، وصارت الأعمار
رقيقة، والآنسة عفاف في الثانية والثلاثين عاماً، والله كما هو ضمير
الغائب، ما إن تدعوه وتنايه: أنت، فيجييك. صحيح، الله تسبب الإيلام.
كم هي الساعة الآن؟ كانت تسمع أنفاسهما، كما لو كانوا في حُلم. بفتحة
صمت كيوم، ثمّ وجّم، فتوقف وانقلب وصار بجوارها. سحب ستّتها
وغطّاها، ثمّ احتضنها برفق ورقة. شعرت أن هناك سحابة من الخوف
عليها. وكانت هي تختض في قلب القوّة الغاشمة التي تصاحب الله،
من هذه السعادة التي جعلتها تشعر أن دمها كان ساخناً ووقدّها، فعانته

وهي تشمّه بطريقة حيوانية. كانا يتنفسان في فمي بعضهما، وكانت السنون جمِيعاً، مع باقي الأعوام، تجتمع في تلك الليلة، فتشدّ أبصارهما إليها وحدها. بدا لها أنه من قوم يلتهمون على النباتات والأعشاب، فبطنه يكاد يتلخص بظهره، وعظام صدره تمسّها بيدها، وقامته معتدلة، وشَعرُه ذهبي وفضيّ، يربطه بشرط من الخلف، ووجهه لا يحدّ عمره الحقيقي. عيناه مطبوعتان بشطط الأطفال، وحركات يده تدرّبت على استمالة النساء، فبدا من الرجال الفرحين، أصحاب البهجة الشاحبة، من إمارة الجانب الآخر من الزمان، وهي لا تُفْضِل هذه الغلالة اليقظة في نظرات عيّتها. كبر ونما ونال تحصيله العالي، ولا أحد سدّ عليه الطريق، وهذا كلّه ما كان يعنيها، حتى لو كان إطفائياً أو بستانياً أو طاهياً، فهو القادم من هناك. ليس من عصر محدّد، لا النهضة ولا العباسية ولا الإغريق الذين شغفت بهم وأساطيرهم ولما حمّهم التي تحفي بالجسد البشري، فهو جوهر المثال في تعري الذكر، كما شاهدت كيوم المكتمل بهاء، بالذات، والذي يفسّر بأنه "دليل على الحكمة والقوّة والكمال، عكس الحضارات الآشورية والفرعونية، التي تغرق العري بالخزي والخضوع، هنا الإغريق يقرنون العري بالبطولة".

النجاة من الوحشة

هل دار بخلد كيوم أن آنسة تجاوزت الثلاثين، كانت البكاراة تنهض وتنام معها، ودون قتال بدت مسمّرة تحت يده وبدنها. يظلّ يتأنّلها بصمت وشيء من مسافة ما، وهما، أحدهما في مواجهة الآخر. هادئ وهو يتلصّق بها، ويحلو لها الاتصال به. تُغمض عينها وجوقة شعراً ورسامي البوزار العراقييْن بالدرجة الأولى، الكواسر، طلع البدر عليهم وهم يتفاوضون، وما زالوا ينتظرون: هل يفضّلها قضيب باتريك، زيداً أو عمرو؟

كانت القبلة على مسافة قرون تبادي، وما عثرت عليها. قبلة تمكث بلغات أجنبية وشرقية وسريانية ويونانية، قبلة بها ملح ودموع وعرق يتجمّع بين الأطراف والذراعيْن، فيعتصران بعضهما بعضاً، ويتقاسمان النجاة من الوحشة. يعاود ويقبّل ويشمّ، لا يقول أيّ ضمير، ولا يركّز على الترجمة، وتستطيع اللغة أن تلاشى وتتواري. اللغة تخطّط، تهدر وتعصب. قالت له بصوت ثمل:

أنت مؤلّف، تؤلّفني ولا تصنفي، وعلى مسؤولية هذا الصباح المشرق.

محظوظان يتقاسمان اليوم والبارحة، البيوت والغرف والأسرة والدول والعوائل والنوم واليقظة .. كلها بداع، فهذه المرأة لا تدرِّي، لا تدرك، لا تعرف ما يُفقد المرأة عقله، ويبيّنه معتوهَا تائها؟ هل بقدر مسام الجلد ووفرة العرق الذي يفرزه الجسد؟ أم بعدد مرات اللّثم الذي تباركه الألسنة

واللعاب والذقن والشفتان واليدان وحاشية الأعضاء كلها، ولو كانت الجدة بيبي فاطم، أو الخالة فتحية قد شاهدتها ولو لثوانٍ لرددتا في وجهه وهما تتضاحكان:

ليبارك الله والرسول والسيّد المسيح والسيّدة مريم وإبراهيم الخليل، ويوسف الفتّان، وبوذ الحكيم ونوح الأليف، فأنت المبارك من نهر الكورنيش، وعدوّق التمر وخمرة العُمّ مختار وسَرْدِيَّات صميم، وخفيات طرب، وبوجة معاذ، ومنحوتات يونس .. سيدعوك معاذ محبوب المكعب الدائم، الذي يُرجى منه تجلّي الرغبة، ولفح التّدّله. مكّة ستُدخلك الحمّام وتقوم بتدليلك ظهرك وتمشيط شعرك الناعم. وسنّية تأخذ بيده إلى الغرفة الْرّجاجيّة، لترى سقوط الأشعة على شعرك الذهبيّ وعيّنك اللّتين امتلأتا بالشهد، فتأخذ وقتك هناك في الحديقة، وأنت ترتدي كامل ثيابك، والوالد الرصين العاقل السيّد أيوب، سيراك بدلاً مؤقاً من هلال الغائب.

أناشيد المشائين

ظللت تنشد له أغانيات، وطوال أيام المعرض الذي استغرق شهراً.
فقم بيع أغلب اللوحات، ومن ضمنها لوحاتها الأربع، وبأسعار لا تصدق.
لم تعلم من اقتناها، وفشلت أن تعرف اسمه أو حتى الجهة. ظلت طوال
الأسابيع المنقضية تجلب معها كراسة الرسم الكبيرة. تظل ساهرة في
حجرة الأطفال إليها، فتحتفق، وهما مستلقيان، وجلدهما يتموج فوقه
ضوء غامض، يأتيهما من شق النافذة، فبُصر بشراتهما صافية، وهناك
شيء يبعث فيها الطمأنينة. فتعمل تخطيطاً لظهره ما إن يديه، كفاه
ظهوراً أصغر ستة من باقي أعضائه. تستغل كأنها مصابة بحمى وما عليها
إلا أن تمر على كل بقعة من جسده، فتمسّها بدون إبطاء. هذه الأعضاء
أخوة لها، فهي كلها تهض في وجهها، وأمامها، وتنهي نفسها كاملة غير
منقوصة. تقوم بتصويرها من أعلى وأسفل، من جنب ومن الوسط. كانت
ترى الشرشف الرّصاصي الذي جلبه في اليوم الثاني، فترى حمرة دافئة
في أول فخذه وعظم حوضه.

كل ما فيك ملك يدي وريشتني.

هكذا كانت نصّور وتُردد.

فتبدأ باختيار العناوين للتخطيطات التي أنجرتها خلال ثلاثين يوماً:

التدريب على الشهوة.

كان يحضر ويغيب، ثم يعود إليها. لا يأتي. ينام في حضنها، وينهض في الصباح، ويُخاطبها بالصيغة الحُلْمِيَّة، وعلى نحو مباغت، يُقْبِلُها، ويغيب. الغياب الذي يدوم على طول المخيلة الحرّة، فترهن لهم فجأة، الإنهاك البطيء، كما تسلق الجبال الوعرة، فتتجمّع على مهل فصول السنة وأعباء الحبّ وبلل الدموع التي لا تستقرّ، وهي تنتظر خطواته على بلاط الباب الخارجي، أمام المصعد، ورائحة الكولونيا والتبغ والدم الذي يتناقل في عروقه، وهو لا يصعد، يتوقّف، فتعود لشَّمْ ياقَة قميصه المتروك عندها. شَمْ حيواني صرف، فتفرشه كشرشف، وتنظر على مهل، وفجأة تراه واقفاً أمام الباب، وبهذه الكثير من معالم باريس على شكل صور فوتونغرافية سائلًا إياها المكوث في الشقة في الفترة القادمة، والعمل بجانب تدريس الأطفال الأجانب اللغة العربية، وعمل البرامج الثقافية، وبيعها للإذاعات العربية التي فتحت حديثاً في باريس:

هٰيَّا، أعطيوني أشكالاً حديثة متوجّهة ببرشك المشرقة لكل أثر من آثار بلدك، على الخصوص الجنائن المعلقة. سنقوم بالطباعة والتوزيع على المكتبات في أنحاء فرنسا جميعها والمناطق الطلابية على الخصوص ..

هل تراها ستعود وئِمْ وجهها شطر تلك الديار، فتضيء المصايد وتشاهد تشقيق السياجات، وأنصاص النباتات تقرّمت، والتي كانت متسلقة ريانة هوت وتحطمّت على مفترق الطرق ..؟ كانت تسرع الخطى، وتستطيع زيارة تلك الأطراف، فتبقى تشتعل وتحيط بأولئك النزلاء الذين حطوا عليها من الغياب، فأنزلتهم إلى الأرض .. كان كيوم يهبهما ثلاثة أرباع ما يحصلان عليه، ويبذر الباقي عليهم معاً .. فانصرفت عن ما درجت عليه من عمل يومي مضي في إكمال مشروعها الجديد:

عوليس / كيوم.

لم يعد أمر شغلها وتصاويرها يشغلها، أم، لم يعد يحفل لأمرها وأمر فنّها؟

كانت تريد أن يكون لها قسمات وكيان حقيقي لترتيب غرامه، وانتقاله . وخطواته ووجوده .. وهذه الغيابات المتعددة، هل هو عصيان طفل؟ أم ترويض للشرقية من الجوانب جميعها؟ أم رفض الاستسلام لها، بأي حال من الأحوال؟ هل هو فرار، هجران؟ أم ترك أبعد من هذا كلّه؟ فبدأت صحتها تسرب من بين يديها، فكانت تستيقظ مجهدة ومسمرة. لم تعرّف على طباعه، فلماذا يلجاً رجل مثل كيوم للتلاعيب، للكذب، للمبالغات؟ ناقد فتني بارز، مقالاته تخز، وأفكاره لها سلطة نافذة، فكان يقف أمام لوحاتها، وكالمحلل النفسي يرفض اختزال محو الوجوه في بعضها، لمجرد التحسين الذاتي ضدّ الألم. كان يرجم ذلك لحالة الذهول أمام مراجع المعرفة. والحبّ كيوم؟ ذلك الذي يدعها تفارق الدنيا، ماذا ستفعل به؟ نعم، قالت له في أحد الأيام:

لا تفرط في الملاحظة، فهذا يخيفني منك، فأتصورك، إذا خرجت،
فلن تعود.

والحبّ، حسبت أنه يتقدّم صوبها، وهو إلى جانبها منذ عام وعام .. غاب، غاب، بدون استئذان، فبلغت من العجز أن أمضت حياتها في الشرفة المطلة على الشارع العام، بقيت هناك على مر الفصول، ينابير، مارس، سبتمبر، مايو، تموز، فتخلد للنوم وهي تتظر هناك، وليس بيدها كبة الخيوط لت تلك الخرساء التاريخية بينلوب .. كيوم لم يقل لها، سأخذ إجازة لكي أحارب كما عوليس الذي بقي هومير يأمره بالعودة إلى إيشاكا، فيتجه إلى أسوار العشيقه "كالبيسو"، فبدأت الأعراض تظهر على قسمات وخطوات الزوجة الصامتة، فمضجعها ظلّ خاويًا على الدوام:

اكتئاب طويل الأمد .. فلا توجّه عفاف صوب المستشفى الحكومي، ولا تخبر طبيبها العامّ مسيو جورج اللبنانيّ، عن هذه التّهيّوات خشية أن يغلق الطريق في وجهها، فيحضر، ولا يعثر عليها، فتكره أن يغمض لها جفن، فلا تسمع قرع الباب. رفض أن يكون بحورته مفتاح لللّشّقة، ورفض استدعاءه من نومه ويقطنه، بعرقه وثيابه .. فتعود للرسم، تفلح قليلاً في وضعه في لوحات، وهو في حالات بين النوم واليقظة، وعلى وشك الموت، فيطيب لها السهر على راحة أعضائه، وتمسید شعره، وفك شريط شعره، وتركه حرّاً، لكي تعبث بخصلاته. كانت تُفضّل الكّرّاسات الفارغة دائماً، الفراغ يجعلها تدخل وتغادر كما تشاء للحجرات والأمكنة، وإلى قلب وجسد كيوم، وهي تجوسه ستيماً وراء آخر حكم التّذوق والرغبة والمداعبة والفن، فتنديه: لا تغادر، لا تدعه يغادر، وكلّما قررت وحرمت أمرها على الاتصال به عن طريق أستاذها الأوّل مسيو دنيس، توقفت حالاً. تعرف جيداً، أوّل البارحة، وقبل عقود، وإلى عقود أنها خاسرة. كيف تعامل إذا فشلت بالحب؟ بالجلافة، بالفاظطة، بالتوهّج والإشعاع الذي ينير الوجه بالحيوية الرائفة التي تخفي المرأة .. أجل، فشلت في كل حبّ خاصةً، وهي تحمل عبء هذا الفشل. لكن، من قال إنها فشلت؟ فتدفع بقدّميها، وتببدأ المشي. أوّل ما وطئت قدّمها هذه الأرض وقبل ثلاثة عشر عاماً، كان باستطاعتها أن تُحملق بالرجال والنساء كما تشاء، في الموجودات والكائنات جميعها، وتقول لهم: تعالوا. تأجّج، ودمها يثقب ربّتها، وهي تشاهد خططاً، ولا تعبأ بما ترى ؛ عشرات، ربما، مئات الفرنسييّن وهم ي-taxاطبون مع أحد ما غير موجود بجوارهم. تظاهرت أنها لا ترى جيداً. لم تدقّق، فكانت تسعّل وهي تمرّ بجنبهم. تماماً، حديث تامٌ، وشفاه تحرّك، وتردّد في الإجابة، وتقلّص في الوجه، وزمّ في الفم. يسيرون ويقفون عند بعض الزوايا، ولا ينتظرون أيّ وافد جديد مثلها. تلاحظ ذلك وهي في

طريقها للبوزار. تبتسم في بعض الأحيان في وجوه بعضهم. فكانت ترفع صوتها بالغناء، وهي تمرّ أمامهم. حالماً أبصرت أولئك القوم، تصوّرت أن هذا السلوك هو جزء من الإتيكيت الفرنسي العريق، وربما الأوربي، لم لا؟ فلن يجد المرء أجرد من نفسه للحديث معها. من الجائز أن يكون تمرينا للجال الصوّتية والتدريب على الغناء مثلها، فهي لا تقدر على هذا الأمر في أثناء الفصول الدراسية، أو الشارع العام كأفضل ما يكون عليه الغناء. فكانت تُصنّف ذلك الأمر نوعاً من العرض الفيّ العام .. لوحات كلاسيكية عالمية لا تخطر على البال، فما كان عليها إلا الذهاب والانغماس وسطهم. بدا لها أنهم أفراد يرسمون أحوالهم المتذمّرة الضجرة المكتيبة، ولا يتوقعون لسماع أصوات الغير ..

ترى، هل ضاق كيوم ذرعاً بصوتها؟

لكن جدّتها بببي فاطمة كانت تستحسن هذه العادة اللطيفة، ولا تنتظر من أيّ واحد من العائلة كلمة رقيقة، فهذه عادتها التي دأبت عليها، وهي تكوي وتشطف الطارمة والكراج، وتطوي الثياب. ذكرت لطبيتها العام:

أن الإغريق لديهم هذه الخصلة المباركة في الكلام والتأمل، فقد ح وتوهّج الأفكار في أثناء المشي، وأخوة الحكي مع النفس، فأحبت أولئك المشائين الليليين والنهاريين التواريبيّن من الفرنسييّن والأجانب، فكانت تنخرط وسطهم، فلا تقطع حديث أحدهم مع الآخر، ولا تسمح أن يتدخل أيّ أحد بشؤونها.

عوايد الحب

عندما تقف أمام المرأة، يفرض عليها الحب نظام الإعجاب بالسمات والملامح التي تعلق الأنصار بها. ويوم بدأت، وبالتدريج بتناول المهدئات، لاحظت أن الكثير من ملامحها غادرتها إلى حيث لا تعلم، والباقي، بدأت تنفصل عنها بالتدريج، ولا تعرف أحداً للقيام بالبحث عنها، أفراد عائلتها لن تحظى بعد اليوم بمقابلاتهم. ترى إلى أين تذهب الملامح؟ ومن يجرؤ أن يخبر عن ذلك؟ أخذت عفاف تردد لنفسها: أن عليها القيام بالبحث عنّي. وكما ينبغي أن يكون البحث. نعم، فملامح المرأة هي من عمل الكرباء والرفعة، فلا يجوز أن يُترك ويختم عليه بالنداة فيما إذا ضلّ الطريق إليها.

صار أنفها أقل ارتفاعاً مما كان عليه، وبدأت أصابعها بالالتواء والتتشنج صعوداً إلى الرُّسغ الضعيف، وفمهما ازداد انكماساً، اعوج بعض الشيء، والتم في جانب واحد من الوجه. اعوجاج الفم غير من طراز البناء المعماري لسكن أعضاء وجهها، فكانت تضحك بصوت عال، وهي تصل طبيتها العام قائلة له بعربية صحيحة:

تحوّل وجهي دكتور من النمط الكلاسيكي إلى النمط الاستعماري في انعدام القيمة، وهذا أنت ترانني أقوم بالتصفيق بيدي، وأضحك ..

بدأت بتناول بعض المهدئات العادية في بادئ الأمر، وبدأت لسبب تجهله:

لم تعد تنتظره.

تخرج مساء، وتبدأ المشي. كان هذا هو كل مدخلاتها. توقفت عن الانتظار. فلا تزيد أن تسمع حركة المصعد إلى طابقها الأخير، فلا أحد يزورها إلا أنطوانيت وشقيقها الأصغر، وهما على سفر دائم. عليها أن لا تُسرع الخطى، ولا تُبطئها. نعم، خطوتها رتبة، لتكن دائمة، مستمرة وعلى وثيرة واحدة. تراجعت قليلاً في بادئ الأمر. قالت:

علّها تلمحه، علّه يكون هو، فتناديه، فيسيران معاً.

هي على استعداد أن تناديه، وتطلق صوتها عالياً:

كِيُوم .. كِيُوم ..

في الأحوال كلها لا تلمحه، فقامت بينها وبين أسفلت الشوانع ألفة. ترك ثقلًا على هذه الأرض، هو ذاته الثقل الذي بقيت تردد:

سأفرغ ما في رأسي. هيّا، يا عفاف، هنا قومي بذلك في الشوارع والأمسيات، وأفلحي في الشهيق والزفير .. و

هكذا أخبرت الطبيب. الغضب كله لا يجعلها سعيدة، والحزن لا يجعلها تموت، وهي لا تزيد أن تكون سعيدة فقط. عليها أن تأخذ يد كِيُوم بين يدها، وتغْنِي له، وهو يسيران في حدائق لوسمبورغ والتوليري، فترفع رأسها عالياً:

"أَتُوب إِلَى رَبِّي
وَإِنِّي لِمَرَّةٍ يَسَامِحْنِي رَبِّي"

إليك أتوب

يا جيرة بانت
عن مغمم صب
لعهده خانت
من غير ما ذنب
ما هكذا كانت
عوائد الحب"

فتمتلئ تجاويف الأعصاب ونسيجها بليل كيوم، بالرغبة به. فرجة دائمة لهذا المشي، والقندرة نوعيتها ممتازة، تدع الحياة طويلة وهي تراودك أكثر منه، وقياس قدميها يتسع، يتبدل ويكبر منذ وصلت هنا. لم تتوقف عن هذا. في إحدى المرات سالت بصورة عرضية طبيها، فابتسم ضاحكاً:

لا قدرة لي على ملاحقة ما يصيبك من هواجس، قريباً سوف أحولك للدكتور كارل فالينو صديقي وأخصائي شاطر جداً، ويفهم بالفنون، فلديه تجارب في هذا، لكنه يستحي الإعلان عنها ..

أجل تكبر القدم، فلا يتعرّف الحذاء عليها، وحالما تدخله يأتي ذلك. الحذاء مفردة، لا يطعن في بلاغتها، وأنساق طابع تأريخها وقصصها على مرّ الحضارات .. فإذا كان الحذاء ضيقاً، وبدأت جلدته تخز القدمين، فيقطع عليك الاستعداد للتعرف، للعاطفة. نعم، للحب أيضاً. فتغضب

الأقدام بصورة صارخة وتسع، تكبر وتلهمك اللذة والألم، فتلحق بالتوقف عن الرغبة بك يوم ..

هيا، ابدئي السير، هذا هو الحذاء الذي لم يتوقف عن الكلام معها. يصغي ويتقلص جلدته، فيستكين، ويتراجع في بعض الأحيان فيخرق قدمها. الحذاء مستعد أن يدخل السباق في اللحظة الراهنة:

هيا، ارفعيه عالياً هو وقدميك، يا عفاف. تحدي معه، فهو يُتقن الحديث على أسفلت الجادّات والأزقة، فوق الأحجار والوحل والطين والمياه الوسخة. عفاف مخلوق المشي الذي يطول حكيه، فيقص حكايات جديدة.

منذ المدينة الأولى وهي تمشي مع يونس وطرب ومعاذ وصميم وهلال والعمّ مختار وسنية وفتحية. يمشون وينشدون، وقدمها لا تتماً مثلها. لا تعرف أن تضع رجلاً فوق رجل، ولا ليلة فوق ليلة، ولا عفاف فوق كيوم. الحذاء يبقى فوق الأسفلت، يئن في صوت خفيض، وهي تغبني بصوت مرتفع، وقدمها تكبر نصف درجة، فتشعر بارتياح ما، بلذة، فتدخل القندرة، وتشفق على لحمها الذي احمرّ وتورّم. شاهدت جنود الحروب بالبساطيل، وهم عائدون، هي لن تعود، لمّن تعود، ولمّن ... البساطيل غليظة وقدرة تسع المدُون كلها. البساطيل لها صله برحم الليالي والبيوت والبكاء والشفقة. هي عفاف تشبه البسطال الذي أعلن ولاءه للطُّرقات والدروب. ويوم لا يتعرف على قدمها، تزداد غضاً كما تغضب يوم ترى كيوم. الحذاء يلهم شرعية وبلاعة للأمكنة والألام والذرّات المعلقة بين الأهداب، ومع هذا، ففي غالب الأحيان، الحذاء لا يتعرف على قدمها، فيكبر قياسها نمرة جديدة، فيتضاعف رضوخها للقنادر، فما إن تعود، وبدون تذمر، كانت تستلقي على السرير، وترفع قدّمها عالياً على الحائط،

فتراها كبيرة، مخيفة، تستقلّ عنها، وتمشي بعيداً، لا تتحامل على نفسها، ولا تبرح المكان، ولا تعود تعرف معالم الطريق والبيت والحجرة والمدينة لا تعود لها، وهي تدلّى بين ارتفاع وسقوط وأمواج تلاطم، ووجوه تجمّع، وتنادي عليها من الأسفل والأعلى، نفير أبواق، وهي تصيح على السّكّان القدامي، الذين تدافعوا على مسامها، وتمددوا على جذعها القصير وحوضها الصغير، فوصلوا عشّها الجميل الذي قامت برسمه وهو تحت الضوء الطبيعي حتّى جفّ مأوه، واسودّ لونه. ضحكت وهي تقول للدكتور أنطوان:

أعضاؤنا تصل نهاية الخدمة، دكتور .. وأنا لا أعرف بالضبط أيّها أنجز مهمّته أسرع؛ المرض الإفرنجي؟ أم الداء البلدي؟

اللعنة، كانت تتأهّب للانصراف، أين وضعت المعطف، هو ذاته معطف طرب؟ .. كانت مُتبعة من المشي الطويل، ربما هي الحجرة نفسها، لكنها الآن شديدة الحرارة، والباب مغلق بصورة مواربة، وما إن بدأت بفتح عينها، فصدرت بعض الأصوات الهادئة والرقيقة. كان وجه شابة ترتدي ثياباً بيضاء، لا تذكر أنها وضعت في أحد الأيام هذا اللون في تصوير من تصاويرها، هو لون بعيد، بعيد جداً، لا تستطيع النظر إليه، ووجه هادى القسمات ومرير الحركات، كان يقف أبعد قليلاً من الممرضة، وهو يقرأ ورقة بين يديه. وصوت الملعقة الفضيّة والسيّدة ترفعها إلى فمها، وهي تُطعمها الحساء، هذا هو الآخر الذي يُسبّب لها بعض الحساسية. رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة، أبصرت السماء، ووجهاً مقبلًا عليها، ليس واحداً، كلهم ظهروا، لم يتقاус أحد في ذلك الضرب من بياض الغيوم الآتية من وراء النافذة ..

باريس 2014 / 2018

<https://jadidpdf.com>

تنوية

- استعانت المؤلّفة ببعض ممّا دوّنته شخصيًّا، أو ممّا هو محفوظ في أرشيفها الخاصّ، أو ممّا قامت به من مراسلات مع بعض الصديقات والأصدقاء، فدخل في نسيج العمل، ووضع داخل أقواس، حتّى لسُرْدِيَّاتي الشخصية.
- جميع ما ورد من نصوص وتاريخ ومعلومات عن بغداد، في ضوء الوقفيات والإعلاميات والحجج الشرعيّة المحفوظة في آرشيف وزارة الأوقاف ببغداد. استعانت به المؤلّفة من كتاب: "معالم بغداد في القرون المتّأخرة"، تأليف الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، للناشر: بيت الحكمة بغداد / العراق، الطبعة الأولى: بغداد ٢٠٠٠ م ١٤٣١.

<https://jadidpdf.com>

شكر وامتنان

- إلى صديقتي الطيبة والمعالجة النفسيّة وفاء قاسم، ذات الذّهنية المشرقة والأفكار المتقدّة، والبصيرة الروحية الصافية والسّخية في الاستشارات والمناقشات العلمية والنّفسيّة والعصبية جميعها التي كتّا نتباّدلها، وطوال فترة صداقتِي بها، التي امتدّت طوال ربع قرن.
- إلى الأصدقاء: من المهندسات والمهندسين والمُرّين الذين قاموا بتزويدِي معلومات جدّ نفيسة، غطّت مساحةً ممّا وضعته داخل قويبات.
- إلى المعمار الصديق معاذ الألوسي الذي سمح لي بالعمل من داخل - المكّعب - بيته، الذي همتُ به شغفًا، وأنا أشاهد صوره عبر كتابه الساحر "نوستوس" حكاية شارع في بغداد، فوافق على نقل معظم شخصيات هذا العمل للسكنى فيه، أو مجرّد الحُلم بذلك!!

<https://jadidpdf.com>

صدر للمؤلفة عالية ممدوح

- افتتاحية للضحك، قصص قصيرة، دار العودة ، بيروت ، 1973.
- . هوامش إلى السيدة ب، قصص قصيرة، دار الآداب، بيروت، 1977.
- . ليلي والذئب، رواية، دار الحرية، بغداد، 1980.
- . حبات النفالين، رواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار فصول، القاهرة، 1986.
- (تُرجمت إلى سبع لغات عالمية عن مؤسسة البحر المتوسط في روما)
- . حبات النفالين، طبعة ثانية، دار الآداب، بيروت، 2000.
- . مصاحبات، قراءة في الهاشم البداعي العربي وال العالمي، مقالات، نصوص، عن دار عكاظ، المغرب، 1993.
- . الواقع، رواية، دار الآداب، بيروت، 1995.
- . الغلامة، رواية، عن دار الساقى، بيروت، 2000.
- . الغلامة، طبعة ثانية، دار الآداب، بيروت، 2017.
- . المحبوبات، رواية، دار الساقى، (فازت بجائزة نجيب محفوظ للأدب). (2004).
- . التشهي، رواية، دار الآداب، بيروت، 2007.

غرام بрагماتي، رواية، دار الساقى، بيروت، 2010.

Gram Pragmati, Novel, Dar Al-Saqi, Beirut, 2010.

غRAM بragmati, طبعة ثانية، دار الأسرة، المملكة الأردنية، عمان، 2017.

Gram Pragmati, Second Edition, Dar Al-Arshe, Jordan, Amman, 2017.

الأجنبية، سيرة روائية، دار الآداب، بيروت، 2013.

Al-Ajنبية، سيرة روائية، Dar Al-Adab, Beirut, 2013.

(ترجمت معظم رواياتها إلى لغات عالمية وطبع بعضها أكثر من طبعة واحدة).

فهرس المحتويات

الفصل الأول: كلاكيت أول مرأة	11
الأستاذ صميم مجهول النّسب	13
الفاذرية الأمريكية	23
ضيوف الشرف	29
أكسسوار	33
قطط	36
الفصل الثاني	41
تركيب الجمال	50
ابتكارات خصوصية	55
الفصل الثالث: استشارات قانونية	61
أهو ده اللي صار	63
الخمرة وأخواتها	69
لسان بببي ولسان المدينة	75
طبوغرافيا الأسى	80
أهو دي اللي صار	84
الفصل الرابع: هلال أيوب آل	91
ماكبت الغائب	93

99	الأبطال يتواجدون.....
101	Don't believe yesterday
106	الغياب
109	بيبي فاطم، أليس كذلك؟.....
116	دهاء الموت.....
119	البول العراقي.....
125.....	الفصل الخامس: نعم، المرض موجود،
127	الدكتور كارل فالينو
131	بينلوب وعوليس
138	عفاف الشخص الوحيد الذي أنتظره.....
142	فريق العمل
149	وقفيات العوز
152	لقطات قريبة
157.....	الفصل السادس: النّحّات يونس الهايدي
162	الآنسات الطروبات.....
165	ذاكرة الأيدي
171	بطون النساء
183	في ابتزاز الفراق
184	إلى آخر الدموع
196	من مهملات الحبّ
198	عداوة الحبّ
199	اثنان خير من واحد
203	عيد الفُنْدَرة

الفصل السابع: كلاكيت آخر مَرْءَة	205
عفاف أيوب آل / 2	207
عوائد الحبّ	211
"بِقُجَّةٍ" معاذ الألوسي	214
مشغل الثورات	218
قالت فماذا تروم؟	223
الشراب وأدواته	226
خفيف الروح	229
غرض جنسي	232
مسيو كيوم	239
في منافع المرض	239
شطط الرجال الفرحين	247
النجاة من الوحشة	250
أناشيد المشائين	252
عوائد الحبّ	257
شكراً وامتنان	265
صدر للمؤلفة عالية ممدوح	267



يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
<https://jadidpdf.com>

من الرواية:

غريب أمكم، دكتور، أعني أجدادكم الإغريق، عندما كان يتم التركيز الشديد لتطويل فترة الحنين عبر عائلة عوليس وزوجته المستسلمة وطفلها تيليماخوس، فيتم تصعيد احتياجات المحارب للتعويض عن الأوقات السيئة والخسارات المتواالية في الحروب، فغدت إيشاكا، شخصية سُرديّة مهلاكة لمَنْ يتَنَظِّرُ الوصول إليها. فنرى عوليس يجرجر قدمَيْهِ "كصياد مرتحل"، وهو لا يملِكُ ما يعارض به القدر، والمدينة على بُعد إصبع منه، فلا يصلها. يتجمّع في فمه ما لا يقال، فلا يتفوه بكلمة .. فهل تغيّرت الطريق إليها؟ أم غادرت إيشاكا، وارتحلت؟

فحسب خطاب هومير، الوقت يفلت من بين ذراعيه، والزوجة لا تغادر خرسها، العابر للخساوات المكتبات المنتظرات جميعهن دونما غفوة ولا نوم، وعلى طول سرديّة التاريخ، ألم تشاهد يدها يوماً، دكتور، وهي تفك كبة الخيوط تلك، وتعيدها؟ فماذا تذكر؟ كلاً، ليس بالحكمة والصبر؛ بالتسوّل وبالعوز رسمت يدها، وهي تتسلّل ظلاً لعليس، وهو ينهض مبهجاً من بين أحضان "كاليبسو". ما الذي نراه فيها؟ اليد، والذراع، الأصابع والكفّ والرُسْغ. يدان هاريتان، ويُعمى عليهم دائماً، فتقعر الأجراس، لكي لا تتوقف عن تلك التعاسة.



إنني متأكد أن رواية التانكي هي من أجمل وأعمق ما كتب في أدبنا العربي الحديث عن بتر الأيمنة منها، أو بترنا منها، حتى يصبح الوطن يمشي وحيداً، ونحن نمشي وحيدين بعيداً عنه.

لقد شعرت أثناء قراءتي للرواية بأنفصال الطوبوغرافيا التي صارت خريطة دواخلنا، ومجالاً مستباحاً بالعنف والحسنة والموت البطيء. ثم هذا المكعب الذي يشبه سفينة الطوفان، نغلقه على ما تبقى من خراب المدينة، ونبحر على متنه طلباً للنجاة منه، ومن أنفسنا.

رواية ألم لا تروضه سوى متعة الكتابة.

محمد الأشعري



جديد بـ PDF®
jadidpdf.com

ISBN 978-88-32201-00-0
9 788832 201000

المتوسط